آر أوستن فريمان

لغز المنزل
٣١ نيو إن

ترجمة إبراهيم سند أحمد



لغز المنزل ٣١ نيو إن

تأليف
آر أوستن فريمان

ترجمة
إبراهيم سند أحمد

مراجعة
هاني فتحي سليمان



لغز المنزل ٣١ نيو إن

آر أوستن فريمان

The Mystery of 31 New Inn

R. Austin Freeman

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٥٨٨ ٢

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١٢.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

المحتويات

إهداء إلى صديقي

برنارد إي بيشوب.

مقدمة

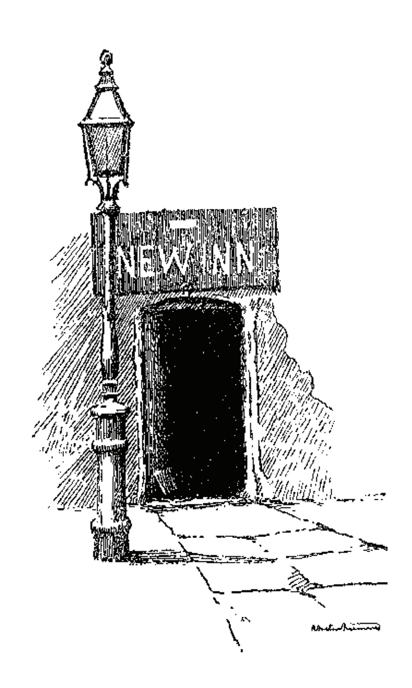
تعليقًا على إحدى رواياتي السابقة، التي ذكرت فيها أنني كنت حريصًا على التمسك بالسيناريوهات المنطقية، وأنني لم أستخدم سوى طرق التحقيق العملية بحق، قال أحد النقاد إن هذا لم يكن له أيُّ أهميةٍ على الإطلاق ما دامت القصة ممتعة.

من وجهة نظري، قليل من الناس سيتفقون مع رأيه. ففي رأي معظم القراء، وبالأخص الذين يريد المؤلف أن يُمتعهم، تعدُّ الواقعية التامة في سير الأحداث عنصرًا على قدْرٍ كبير من الأهمية في الحفاظ على جاذبية القصة البوليسية. ومن ثَم تجدر الإشارة إلى أن الطريقة التي استخدمها ثورندايك لوضع خطة تتبُّع الأحداث — المذكورة في الفصلَين الثاني والثالث — قد استُخدمت في الواقع. وهذه الطريقة نسخةٌ معدَّلة من طريقةٍ استخدمتُها منذ سنواتٍ عديدة، حين عَبَرتُ من إقليم أشانتي إلى مدينة بونتوكو؛ إذ لم يكن موقعها في المناطق الداخلية البعيدة معروفًا بشكلٍ جيد. كانت مهمتي تتمثَّل في تحديد مواقع كل البلدات والقرى والأنهار والجبال بأقصى درجةٍ ممكنةٍ من الدِّقة، وحينما وجدتُ الطرق التقليدية لمسح المنطقة لن تجدي نفعًا؛ بسبب الغابات الكثيفة التي تغطي المنطقة بأكملها، اتبعتُ طريقةً تقليدية وبسيطة في ظاهرها، قِوامها التحقق من المسافات باستخدام الرصد الفلكي حيثما أمكن ذلك.

كانت خريطة الطريق الناتجة مذهلةً على نحو يثير الدهشة، كما يتبيَّن في اتفاق المسارَين الخارجي والداخلي، وقد نشرَتها الجمعية الجغرافية المَلَكية، وأُدرجت في خريطةِ هذه المنطقة، التي جمعها فرع الاستخبارات في وزارة الحرب، وهي شكَّلت الأساس الذي صُممت تبعًا له الخريطة المرفَقة في كتابي «رحلات في أشانتي وجامان». ومن ثَم لا بد من اعتبار خطة ثورندايك عمليةً تمامًا.

ومؤخرًا، أزيل مجمع نيو إن — الذي يعدُّ مسرح أحداث هذه القصة، ومن أواخر المجمعات الباقية من دائرة الاختصاص القضائي المطلق — من الوجود بعدما ظلَّ شامخًا طوال أربعة قرون. ولكن حتى يومنا هذا، يمكن رؤية حفنةٍ من المباني القديمة المتصدِّعة (بما في ذلك المبنى ٣١ الغامض) من منطقة ستراند التي تطلُّ على الأَسْقُف الحديدية لحلبة التزلُّج التي حلَّت محلَّ القاعة الخلَّابة وغرفة الاجتماعات والحديقة. وما تزال البوابة الخلفية في شارع هوتون قائمة، رغم أن القوس مسدود بالطوب من الداخل. حينما مررت به مؤخرًا، رسمتُ رسمةً تقريبية في الصفحة التالية، ووضعتُ فيها كلَّ أطلال المنطقة المنعزلة الجميلة في لندن القديمة.

آر أوستن فريمان
جريفزند



نيو إن.

الفصل الأول

المريض الغامض

حين أتأمل سنوات عملي مع جون ثورندايك، أجِدُ أنها ثريَّة بالمغامرات والتجارب الاستثنائية التي لا يخوضها سوى قلةٍ من الناس، ممن يعيشون في أنحاء لندن. صحيح أنني وثَّقت هذه التجارب، ولكن تبادَرَ إلى ذهني الآن أني نسيت تجربةً من دون أن أوثِّقها، ربما هي الأروع والأكثر إثارةً للدهشة في السلسلة بكاملها؛ إنها مغامرة تحمل أهميةً إضافية في رأيي؛ لأنها تمثِّل بداية عملي الطويل مع صديقي المثقَّف والموهوب، كما أنها وضعَت نقطةَ النهاية لفترةٍ تعيسة وغير مثمرة في حياتي.

حين أسترجع هذه الرحلة عَبْر السنوات الماضية، وأعود إلى بداية تلك الأحداث الغريبة، تحملني الذكريات إلى غرفةٍ صغيرة رثَّة في الطابق الأرضي، في منزلٍ بالقرب من أطراف منطقة وولوورث المتصلة بشارع لووار كينينجتون لين. مجموعة الشهادات العلمية المعلَّقة على الحائط، ومخطط سنيلين لاختبارات الإبصار، وسمَّاعة الطبيب القابعة على المكتب، جميعها تدلُّ على أنَّ الغرفة غرفةُ استشارات طبية؛ وتنمُّ جِلستي في كرسيٍّ له ظَهر مستدير أمام المكتب المذكور أنني الطبيب.

اقتربَت الساعة من التاسعة. أعلنَت الساعة الصغيرة المزعِجة على رفِّ الموقد هذه الحقيقة، وأوحَت عقاربها المحمومة أنَّها مثلي تترقَّب انتهاءَ ساعاتِ العمل. حينئذٍ نظرتُ بحُزن إلى حذائي الملطَّخ بالطين، وتساءلتُ هل بمقدوري أن أتجرَّأ وأرتدي الشبشب الذي يطلُّ خجلًا من تحت الأريكة المتهالِكة. حتى إنَّ عقلي انجرف بأفكاره إلى الغليون القابع في جيب مِعطفي. ولكن تبقَّت دقيقةٌ أخرى قبل أن أُطفئ السِّراج في غرفة الفحص وأغلق الباب الخارجي. وكأنَّ دقَّات الساعة الصغيرة المزعِجة تشرع في السُّعال أو الفُواق، وكأنَّها

تقول: «انتباه! أيها السيدات والسادة، أُوشك أن أدقَّ.» وفي تلك اللحظة، فتح الرسول الباب ومدَّ عنقه متلفِّظًا بكلمةٍ واحدة: «سيدي الفاضل.»

عادةً ما يخلق الاقتصاد المفرِط في استخدام الكلمات حالةً من الغموض. ولكني فهمتُ مقصده. ففي كينينجتون لين، انقرض جنس الرجال والنساء من غير ذوي الألقاب، فيما يبدو. فكلُّ سكَّان الشارع ينادَى عليهم بلقب السيد الفاضل — ما لم يكن المنادَى امرأةً أو طفلًا — مثلما قيل إن الجيش الليبيري يتألَّف من جنرالات. لم يكن الرسول الديمقراطي يميِّز بين منظِّفي المداخن والعمَّال وبائعي الحليب والباعة المتجوِّلين؛ فكلُّهم عنده من أصحاب الألقاب والنبلاء. يبدو أن السيد القادم يحبِّذ الترفيه الأرستقراطي المتمثِّل في قيادة سيارة أُجرة أو عرَبة لصاحبِ عمل، وحينما دخل الغرفة خلَعَ قبَّعته بلُطف وأغلَقَ الباب من خلفه بقدْرٍ من الحرص، ومن دون أن يتحدَّث، سلَّمني رسالةً تحمل العنوان «الدكتور ستيلبري».

حين هممتُ بفتح المظروف، قلت: «بالمناسبة، لستُ الدكتور ستيلبري. إنه ليس موجودًا في الوقت الحالي، وأنا أعتني بمرضاه.»

رد الرجل: «لا يهمُّ. فوجودك يكفي.»

حينئذٍ، فتحتُ المظروف وقرأت الرسالة ووجدتها مختصرة، وليس ثمَّة شيءٌ لافت فيها للوهلة الأُولى.

تقول الرسالة: «سيدي العزيز، تحيةً طيِّبة وبعد، أرجو منكم تشريفنا بزيارة؛ لإجراء الفحص على صديقٍ لي يمكث معي؟ سيُعطيك حاملُ الرسالة مزيدًا من التفاصيل ويُوصِلك إلى المنزل. مع أطيب التحيات، إتش فايس.»

لم يكن مكتوبًا على الورقة عنوانٌ أو تاريخ، وأنا لا أعرف كاتب الرسالة.

قلت: «تذكُر الرسالة أنك ستُعطيني بعض التفاصيل. فما هي؟»

مرَّر حاملُ الرسالة يده على شَعره بإيماءةٍ توحي بانزعاجه. قال وعلى شفتَيه ابتسامةُ امتعاض: «إنها مسألةٌ تافهة. ولو كنتُ في مكان السيد فايس، لَمَا أقحمتُ نفسي فيها. السيد المريض — السيد جريفز — من الناس الذين لا يُطيقون الأطباء. وقد أُصيب بوعكة منذ أسبوعٍ أو أسبوعَين، ولكن ما من شيءٍ يُقنعه بزيارة الطبيب. وفعَلَ السيد فايس كلَّ ما بوُسعه كي يُقنعه، ولكن لا فائدة. رفض الذهاب إلى الطبيب. وكأنَّ السيد فايس هدَّده بأنْ يستدعيَ طبيبًا من معارفه؛ لأنه توتر بعضَ الشيء كما سترى، وحينئذٍ سمَحَ له السيد

جريفز. ولكنه اشترط عليه شرطًا. اشترط عليه أن يستدعيَ طبيبًا من مكانٍ بعيد، وألَّا يُخبره شيئًا عن اسم المريض ولا عن محل إقامته ولا أي شيء آخر عنه، وقد جعل السيد فايس يعِدُه أن ينفِّذ هذا الشرط قبل أن يرسل في طلب الطبيب. ومن ثَم وعَدَه السيد فايس، وبالطبع لم يسعه إلا أن يحترم كلمته.»

قلتُ مبتسمًا: «ولكنك ذكرتَ لي اسمه ... هذا إن كان اسمه جريفز في الحقيقة.»

قال سائق العربة: «بمقدورك أن تستنتج ما تشاء.»

أردفتُ: «وأما بالنسبة إلى عدم إخباري بمحل إقامته، فربما أراه بنفسي. وأنا لستُ كفيفًا على أي حال.»

رد الرجل: «سنُغامر بما تراه. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل ترغب في قبول هذه المهمَّة؟»

نعم، هذا هو السؤال المهم، وقد فكرت فيه مليًّا قبل أن أُجيب. فنحن الأطباء معتادون على التعامل مع هؤلاء الأشخاص الذين «لا يُطيقون الأطباء»، ونحبُّ أن نتعامل معهم في أضيق الحدود الممكنة. إنهم لا يعرفون جميلًا ولا يقدِّرون معروفًا. الحديث معهم لا يسرُّ، وتُجنى من ورائهم متاعبُ كثيرة، واستجابتهم للعلاج محدودةٌ للغاية. ولولا أني لا أردُّ مريضًا، لرفضتُ توقيع الكشف عليه. ولكن هذا ليس من أخلاقي. فأنا مجرد نائبٍ عن الطبيب. ولا يليق بي أن أرفض عملًا يمكن أن يدرَّ ربحًا على مَن أنوب عنه، حتى وإن كان عملًا مزعِجًا.

بينما أقلِّب المسألة في عقلي، دقَّقت النظرَ في زائري وأنا شِبه واعٍ، الأمر الذي تسبَّب في إحراجه نوعًا ما، وما أحببتُ مظهره مثلما لم أحبَّ المهمة التي أُوكِّل بها. ظلَّ واقفًا على مقرُبة من الباب، حيث كان الضوء خافتًا؛ فقد رُكزَت الإضاءة فوق المكتب وكرسي المريض، ولكني رأيت في وجهه مكرًا ونفورًا، وله شاربٌ أحمرُ وناعم، ويبدو أنه لا يتماشى مع الزيِّ الذي يرتديه، على الرغم من أنَّ هذا كان مجرَّد تحامُل عليه. كان يرتدي شَعرًا مستعارًا أيضًا — ولا عيبَ في ذلك — ورأيت آثار جرحٍ في ظفر إبهامه الذي يُمسك القبعة، وأؤكِّد أن هذا لا يقدح في شخصيته، على الرغم من قبح المنظر. وفي النهاية، أخَذَ يرقُبني بحرص ويختلجه مزيجٌ من القلق والعُجب الماكر؛ الأمر الذي أزعجني كثيرًا. وبوجهٍ عام، ترَكَ بداخلي انطباعًا غيرَ سارٍّ. ورغم أن مظهره لم يرُق لي على الإطلاق، قبلتُ المهمة.

بعد مدة، أجبتُه: «لست مهتمًّا بمعرفة هُوية المريض أو محلِّ إقامته. ولكن كيف تقترح أن نذهب إلى هناك؟ هل أُقاد إلى المنزل معصوبَ العينَين، وكأني منقادٌ إلى كهف قطَّاع الطُّرق؟»

تهلَّل وجه الرجل وبدا عليه الارتياح إلى حدٍّ كبير.

أجاب: «لا يا سيدي، لن تذهب معصوبَ العينَين. أحضرتُ معي عربةً بالخارج. ولا أحسبك سترى كثيرًا من داخلها.»

انضممتُ إليه، وفتحتُ الباب كي يخرج: «رائع، سألحق بك في غضون دقيقة. هل أفترض أنه ليس لديك فكرة عمَّا حلَّ بالمريض؟»

رد: «أجل يا سيدي، ليس لديَّ أدنى فكرة»، وخرج إلى العربة.

وضعتُ في الحقيبة بعض أدوية الطوارئ وبضع أدواتٍ تشخيصية، وأطفأتُ السِّراج وخرجتُ عابرًا من غرفة الفحص. وجدتُ العربة واقفةً عند الرصيف ويحرسها سائقها ويراقبها الرسول باهتمامٍ بالِغ. نظرتُ إليها وفي قرارتي شعور يمزج بين الفضول والاستياء. فالعربة من النوع الكبير الذي تجرُّه الخيول، وتشبه العربات التي تستخدمها القوافل التجارية، حيث النوافذ الزجاجية المعتادة يحلُّ محلها مصاريعُ خشبية؛ كي تخفي صناديق البضاعة داخل العربة، ويمكن قفلُ الأبواب من الخارج بمفتاحٍ يشبه مفاتيح السكك الحديدية.

حين خرجتُ من المنزل، فتَحَ السائق باب العربة وتركه مفتوحًا.

حين وضعت قدمي على سلَّم العربة، توقفتُ وسألتُ: «تُرى، كم ستستغرق الرحلة؟»

فكَّر السائق لمدة دقيقة أو دقيقتَين، ثم قال:

«أظنني قطعتُ المسافة إلى هنا في قُرابة نصف ساعة.»

كلامٌ غير مبشِّر. ساعة ذهابًا وإيابًا ونصف ساعة في منزل المريض. بهذا المعدل، لن أعود إلى المنزل قبل العاشرة والنصف، ولا يُستبعد أن أجِدَ رسولًا آخر ينتظرني عند باب المنزل حين أعود. وبينما أنهال بالسِّباب على السيد جريفز الذي لا أعرفه، وعلى عدم الراحة في حياة الأطباء الذين ينوبون عن زملائهم في العمل، صعدتُ إلى المركبة التي لا تسرُّ. وعلى الفور أقفَلَ السائق البابَ بقوة، وأدار المفتاح وتركني في ظلامٍ دامس.

لم يتبقَّ أمامي غيرُ وسيلةٍ واحدة أنفث بها عن غيظي، إنها الغليونَ في جيبي. بعدما استطعتُ مَلْأه في الظلام، أشعلتُ عود ثِقاب، وحينئذٍ انتهزتُ الفرصة لأتفقَّد مَحبِسي من الداخل. عاينتُ منظرًا شنيعًا. تشير حالة الوسائد ذات القماش الأزرق التي أكلها العُثُّ،

إلى حقيقةٍ مفادُها أن العربة لم تُستخدم منذ فترةٍ طويلة، وكذلك بليَ غطاء الأرضية ذو القماش الزيتي حتى ظهرت فيه الثقوب، ولم تكن التجهيزات الداخلية العادية متوفرة. لكنَّ ما أراه؛ يقول إنَّ هذه العربة المجنونة قد أُعدَّت بعنايةٍ كبيرة من أجل أن تُستخدم في مهمتها الحالية. فالمَقابض الداخلية للأبواب أُزيلت فيما يبدو، وقد ثُبِّتت المصاريع الخشبية في مواضعها بمثبِّتات دائمة، وكان المُلصق الورقي على العارضة أسفلَ كلِّ نافذة ذا شكلٍ مريب، وكأنه وُضع من أجل أن يخفيَ اسمًا مطبوعًا لصاحب العربة الأصلي، ويبدو أنه كان من أصحاب الأعمال، أو صاحبَ إسطبل للخيول.

منحَتني هذه الملاحظات وجبةً دسمة للتأمل. ولا بد أن السيد فايس يقِظُ الضمير إلى حدِّ الإفراط؛ حيث ألجأه الوعد الذي قطعه للسيد جريفز إلى اتخاذ هذه الاحتياطات الاستثنائية. ومن الواضح أنَّ إرضاء ضميره الحسَّاس، لم يكفِه مجرد الالتزام بنصِّ الوعد الذي قطعه. هذا ما لم تكن لديه أسبابٌ تدفعه إلى أن يشارك السيد جريفز رغبته غيرَ المنطقية في السرِّية؛ فلا يُعقل أنَّ المريض اتَّخذ تدابير التكتُّم هذه بنفسه.

الاقتراحات الأخرى التي شقَّت عن نفسها من رحم هذا التفكير أصابَتني بشيءٍ من القلق. فإلى أين يحملونني وما غرضهم؟ وبابتسامةٍ نبذت من عقلي صورتي وأنا مقيدٌ في وكرٍ لمجموعة لصوص يريدون سرقتي أو ربما قتلي. اللصوص لا يضعون خُططًا متقنة من أجل سرقة بؤساء فقراء من أمثالي. تظهر حسناتُ الفقر في مثل هذه المواقف. ولكن تبادر إلى ذهني احتمالاتٌ أخرى. لا يصعب على الخيال المدعوم بالتجارب أن ينسج عددًا من المواقف التي يمكن أن يُستدعى الطبيب من أجلها، فربما يأتون به سواءٌ أكان راضيًا أم مُكرهًا؛ كي يشهد، أو يكون له دور فعَّال، في ارتكاب جريمةٍ ما.

ورغم أن هذه الأفكار لم تكن جيدة، فقد شغَلَت عقلي كثيرًا طوال هذه الرحلة الغريبة. كذلك كُسرَت الرتابة بوسائلِ تشتيت أخرى. على سبيل المثال، اهتممت كثيرًا بأن أُلاحظ كيف ومتى تتعطل حاسَّةٌ واحدة وتنشط الحواسُّ الأخرى؛ كي تعوض مستوى الإدراك. جلستُ في الظلام أدخِّن غليوني، ولم يبدِّد الظلامَ الحالكَ إلا وهجٌ خافِتٌ من التبغ المغطَّى في وعائه، وكأني أصبحت معزولًا عن العالم الخارجي بكل ما فيه. ولكني لم أنقطع عنه في الحقيقة. فاهتزازات العربة بسبب النوابض الصلبة والعجَلات ذات الإطارات الحديدية أعلمَتني بدقَّة ووضوح معالمَ الطريق. فالخشخشة العالية من الطُّرق ذات أحجار الرصف، والمطبَّات الخفيفة على الطُّرق الحصباء، والقعقعة الخافتة على الممرات الخشبية والاهتزازات العنيفة

من عبور خطوط الترام؛ كلُّ هذه المعالم رسمَت السمات العامة للمنطقة السكنية التي أمرُّ بها. أما حاسة السمع، فقد أمدَّتني بالتفاصيل. فالآن، أعلنَت صافرة زورقِ القطر عن اقترابنا من النهر. أمَّا الصوت القصير الذي يشبه الصدى، فقَدْ كشف أننا كنا نمرُّ من تحت جسر للسكك الحديدية (وبالمناسبة، تكرَّر هذا الحدث عدَّة مرَّات في أثناء الرحلة)، وحين أسمع الصافرة المعتادة من حارس السكك الحديدية، وأسمع من بعدها نفخةً سريعة من بوق قطار يتباطأ، ترتسم في مُخيِّلتي صورةٌ واضحة لقطار مكتظٍّ بالرُّكاب يخرج من المحطة، وكأني أراه في وضَح النهار.

حين انتهيت من تدخين غليوني وأفرغتُ الرماد عند كعب حذائي، تباطأت العربة ودخلت في ممرٍّ مسقوف؛ علمتُ بذلك حينما سمعتُ صدًى للصوت. ثم ميَّزَت أذناي صريرَ بوابةٍ خشبية ثقيلة تُغلَق من خلفي، وفُتح باب العربة بعد دقيقةٍ أو دقيقتَين. خرجتُ من العربة وأنا أرمش في ممرٍّ مغطًّى بالحصى ويبدو أنه يؤدي إلى إسطبل، ولكن كان الظلام يلفُّ كلَّ شيء، ولم أجِد فرصةً لرؤية أيِّ تفاصيل؛ فقد سيقَت العربة حتى وقفَت أمام بابٍ جانبي مفتوح، وتقف على عتبته امرأةٌ تحمل شمعةً مشتعلة.

سألَت: «هل أنت الطبيب؟» وسمعتُ في صوتها لكنةً ألمانية، وكانت تظلِّل الشمعة بيدها وهي تنظُر إليَّ.

أجبتها بالتأكيد، ثم صاحت:

«سررتُ بمجيئك. سيرتاح بالُ السيد فايس. تفضَّل بالدخول.»

تبعتُها عبرَ طُرقةٍ مُظلِمة، ودلفنا إلى غرفةٍ مظلمة، وُضِعت شمعةٌ فيها على خزانةٍ ذات أدراج، واستدارت كي تغادر. لكن حين وصلَت إلى الباب، توقَّفَت ونظرَت خلفها.

قالت: «الغرفة ليست أنيقة، ولا تليق بمَقامك. ولكننا لم نتمكن من ترتيبها، وأرجو أن تعذرنا. فقَدْ شغلنا القلق على السيد جريفز البائس.»

«هل أصابه المرض منذ فترة؟»

«نعم، منذ فترةٍ قصيرة. وكما تعرف، يعاوده المرض على فتراتٍ متقطِّعة. فأحيانًا تتحسن صحته وأحيانًا أخرى تعتلُّ.»

بينما تتحدث، ظلَّت تتقهقر إلى الطُّرقة بالتدريج دون أن تبعُد مرةً واحدة. وبناءً على ذلك، تابعتُ أسئلتي.

«لم يفحصه أيُّ طبيب، أليس كذلك؟»

أجابت: «بلى، فما برِحَ يرفض زيارة الأطباء. وقد أرهقنا رفضه هذا. السيد فايس يشعُر بقلقٍ بالِغ عليه. وسيُسرُّ حين يعلم أنك أتيت. ينبغي أن أذهب وأُخبِره. تفضل بالجلوس إلى أن يأتيك»، ثم انطلقَت إلى مهمتها بعد هذه الجملة.

لمَّا فكرتُ في قلق السيد فايس والإلحاح الواضح في الموقف، استغربتُ قليلًا حينما لم أجِدْه في انتظاري. وبعدما مرَّت عدَّة دقائق ولم يأتِ، ازداد استغرابي. لم أجِد عندي رغبةً في الجلوس بعد هذه الرحلة في العربة؛ ومن ثَم أمضيتُ الوقت في تفقُّد الغرفة. حينئذٍ، أثارت الغرفة فضولي؛ إذ خلَت من الأثاث وكانت متسخةً ومهمَلة ويبدو أنه لم يكن يستخدمها أحد. وأُلقيَت على الأرض سجادة باهتةُ اللون بطريقةٍ غير مرتَّبة. كلُّ الأثاث الموجود في الغرفة طاولة صغيرة رثَّة المنظر في وسطها، وحول الطاولة ثلاثةُ كراسي مغطَّاة بجِلد الخيل، وخِزانة ذات أدراج. لم تكن ثمَّة صورٌ معلَّقة على الحوائط المتعفِّنة، ولا ستائر تغطِّي النوافذ المغلقة، بل تتدلَّى من السقف ستائرُ سوداء منسوجةٌ من خيوط العنكبوت، وتخلِّد ذِكر فصيلةٍ طويلةِ العمر وشهيرةٍ من العناكب، ما يدل على إهمالِ الغرفة وعدم استخدامها طيلة شهور.

حظيَت الخزانة ذات الأدراج بمعظم اهتمامي؛ لكونها الأقربَ والأكثر وضوحًا في هذا الضوء، ولكنَّها كانت قطعة أثاث لا تتَّسق مع غرفةٍ يبدو أنَّها كانت غرفةَ طعام. كانت الخزانة عتيقةً، وصُنعت على وجه التقريب من خشب الماهوجني الأسود، وقد بليت، بل في أواخر مراحل التحلُّل، ولكنها في الأصل كانت قطعةَ أثاثٍ فخمة. حزنتُ على وصولها إلى هذه الحالة، وأخذتُ أنظُر إليها بقدْر من الاهتمام، ولاحظتُ في الزاوية السفلية مُلصقًا يحمل كتابةً مطبوعة «القطعة ٢٠١»، وحينئذٍ سمعتُ وقْعَ أقدامٍ تنزل السُّلَّم. بعد لحظات، فُتح الباب وظهَرَ شخصٌ غامض، ووقف على مقرُبة من عتبة الباب.

قال الغريب بصوتٍ عميق وهادئ، وبلكنة ألمانية مميَّزة وإن لم تكُن قوية: «مساء الخير يا دكتور. أرجو أن تقبل اعتذاري؛ لأنني حمَلتُك على الانتظار.»

قبلتُ الاعتذار بطريقةٍ رسمية نوعًا ما، وسألتُه: «أنت السيد فايس، هل تخميني صحيح؟»

«أجل، أنا السيد فايس. وإني أقدِّر لك مجيئَك من هذه المسافة الطويلة، وفي هذه الساعة المتأخِّرة من الليل، ولم تمانع رغمَ الشروط الغريبة التي أملاها عليَّ صديقي.»

أجبتُه: «لا عليك مطلقًا. فعملي يقتضي أن ألبِّي طلب مَن يحتاج إليَّ مهما كان الوقت أو المكان، وليس من شأني أن أسأل عن الأمور الخاصة لدى المرضى.»

وافقني متودِّدًا: «كلامك صحيح يا سيدي، وأنا ممتنٌّ لك كثيرًا؛ لأنك تفهَّمتَ الموقف. وقد حاولتُ أن أقنع صديقي بهذا، ولكنه رجلٌ غير عقلاني. إنه شديد التحفُّظ وشكَّاك بطبيعته.»

«هذا ما استنتجتُه. ولكن فيما يتعلَّق بحالته، هل مرضه شديد؟»

قال السيد فايس: «ها، هذا ما أريد معرفته منك. فقد احترتُ كثيرًا في أمر مرضه.»

«وما طبيعة مرضه؟ ما الذي يشكو منه؟»

«نادرًا ما يبثُّ شكواه، مهما كانت، رغم اعتلاله الظاهر. لكن الحقيقة أنه نادرًا ما يكون في حالةِ إفاقةٍ تامة. فهو يدخل في حالة سُبات حالِم من الصباح وحتى الليل.»

أذهلَتني الحالة من غرابتها، ولا تتسق بأي حال مع الرفض القاطع من المريض كي لا يزور الطبيب.

سألت: «ولكن ألَا يستفيق مطلقًا؟»

رد السيد فايس سريعًا: «أوه، ليس الأمر كذلك، إنه يستيقظ من وقتٍ لآخر ويتمتَّع بعقلانيةٍ تامة، وكما تبادَرَ إلى فهمك على حدِّ ظني؛ فإنه يستحيل عنيدًا. تلك هي السمة الغريبة والمحيِّرة في حالته؛ التناوب بين حالة السُّبات وحالةِ شبه اليقظة الطبيعية والصحية. ولكن ربما الأفضل أن تراه وتشخِّص الحالة بنفسك. فقَد انتابَته نوبةٌ حادَّة. اتبعني من فضلك. فالسُّلَّم مظلِم.»

كان السُّلَّم مظلِمًا، ولاحظتُ أنه ليس مفروشًا بأيِّ سجاد أو قماش زيتي؛ ومن ثَم سمعت صدًى خفيفًا لقرع نِعالنا، وكأننا في منزلٍ غير مأهول. تبعتُ مرشدي متخبِّطًا، وبدأت أتحسَّس طريقي بإمساك الدرابزين ولَمَّا وصلنا الطابق الأول، دخلنا غرفةً بحجم الغرفة التي كانت في الطابق السفليِّ وبها قِطَع أثاثٍ قليلة للغاية، غير أنَّها أقلُّ قذارةً من الأخرى. شمعةٌ واحدة في الطرف البعيد من الغرفة ألقَت بضوئها الضعيف على شخصٍ ينام على الفِراش، وتُرك باقي الغرفة في ضوءٍ خافت.

عندما دخَلَ السيد فايس إلى الغرفة على أطراف أصابعه، نهضَت المرأة التي تحدثَت إليَّ في الطابق السفلي من على كرسي بجانب الفِراش، وخرجَت من الغرفة بهدوء من الباب الآخر. وقَفَ مرشدي، وبينما نظَرَ محدِّقًا في النائم على الفراش؛ نادى عليه:

«فيليب! فيليب! ها هو الطبيب جاء لزيارتك.»

انتظَرَ دقيقةً أو دقيقتَين، وحينما لم يجِد ردًّا قال: «يبدو أنه دخل في نوبةِ سُباتٍ كعادته. من فضلك، اذهب إليه وشخِّصْ حالته.»

تقدَّمتُ ووقفتُ إلى جانب الفِراش، وتركتُ السيد فايس عند نهاية الغرفة بالقرب من الباب الذي دخلنا منه، حيث ظلَّ يغدو ويروح بخطًى متثاقِلة وهادئة في مكانٍ شبه مُظلِم. وفي ضوء الشمعة، رأيتُ رجلًا مسنًّا له وجهٌ حسنُ الملامح ومهذَّب وذكي وجذَّاب أيضًا، ولكني فزعتُ لهُزال جسمه وشحوبه واصفرار بشرته. كان يرقد بلا حراك، باستثناء حركة صدره التي لا تكاد تُرى، صعودًا وهبوطًا، كانت عيناه شبه مُغمَضتَين وملامحه مسترخية، وبرغم أنه لم يكن نائمًا فعليًّا، بدا وكأنه في حالة حُلم وسُبات وكسل، وكأنه تحتَ تأثيرِ مخدِّر.

راقبتُه دقيقةً أو نحو ذلك، وقِستُ سرعةَ تنفُّسه على ساعة يدي، ثم ناديت اسمه فجأةً وبصوتٍ حادٍّ، ولكني لم أتلقَّ أيَّ استجابة سوى أن رفَعَ جفنَيه بقدْرٍ طفيف، وبعد لحظات، رمقني بنظرةٍ يكسوها النعاس، ثم عاد الجفنان إلى موضعهما السابق متثاقِلَين.

شرعتُ في إجراء الفحص البدني. أولًا، تحسَّستُ سرعة النبض؛ فأمسكتُ رسغه بقوةٍ متعمَّدة، لعلَّه يستيقظ من سُباته. وجدت النبض بطيئًا وضعيفًا وغير منتظمٍ نوعًا ما، وهذه العلامات تُعطي دليلًا واضحًا — ولا يحتاج الأمر إلى دليل — على انخفاض نشاطه العام. استمعتُ إلى دقَّات قلبه، وكان صوتها واضحًا بالقدر الكافي من خلال الجدران الرقيقة لصدره الذي أصابه الهُزال، ولم أجِد شيئًا غيرَ طبيعي سوى ضعفٍ في القلب وعدم انتظامه. ثم وجَّهت انتباهي إلى عينَيه، وقد فحصتُهما عن قُربٍ بمساعدة الشمعة وعدسة مِنظار العين؛ حيث رفعتُ الجفنَين بغِلظة نوعًا ما حتى أكشف عن القزحيَّة بأكملها. خضع للكشف من دون مقاومةٍ لغلظتي في الكشف على هذه الأعضاء الحسَّاسة، ولم تبدُر منه أيُّ علاماتٍ على عدم الارتياح، حتى عندما قرَّبتُ لهَبَ الشمعة على مسافةِ بُوصتَين من عينَيه.

لكن هذا التحمُّل غير العادي للضوء تبيَّن سببه بعد الفحص عن قرب؛ فقد وجدتُ حدقةَ العين منكمِشةً إلى حدٍّ كبير، لدرجة أنه لم يَظهَر منها سوى نقطةٍ سوداء صغيرة للغاية في مركز القزحية الرمادية. ولم تكن هذه العلامة الغريبة الوحيدة التي رأيتُها في عينَي المريض. فعندما استلقى على ظَهره، مالت قزحية عينه اليمنى تجاه مركزها قليلًا، ما أظهر سطحًا مقعرًا واضحًا، وحين تمكنت من إحداث حركةٍ طفيفة، ولكن سريعة، لمقلة العين، أمكنني رَصْد تموُّجٍ ملحوظ. في الحقيقة، كان المريض مصابًا بحالةٍ تُعرف باسم القزحية الرعاشة، ويمكن رؤية هذه الحالة حين تُستخرج العدسة البلورية لأغراضٍ علاجية، أو حين تُزاح من دون قصد؛ ومن ثَم تترك القزحية من دون دعم. وفي الحالة التي

أفحصها، فإنَّ سلامة القزحية تدلُّ على أنه لم تُجرَ جراحةٌ لاستخراجها، وبعد الفحص عن كثب بمساعدة عدستي، لم أجِد أيَّ دليل على إجراء الجراحة الأقل شيوعًا التي تُستخدم فيها الإبَر. واستنتاجي أن المريض أصيب بحالةٍ تُعرف باسم «خلع العدسات»، وهذا أدَّى إلى استنتاجٍ آخر بأن المريض فقَدَ بصره جزئيًّا أو كليًّا في عينه اليمنى.

في واقع الأمر، استبعدتُ هذا الاستنتاج جزئيًّا عندما وجدتُ تجويفًا عميقًا في جسر الأنف، كان واضحًا أنه ناتجٌ عن ارتداء نظَّارة، وحينما بحثتُ خلف الأذن وجدتُ علاماتٍ تتطابق مع أذرع نظَّارة ذاتِ شكلٍ خطَّافي أو «حوامل منحنية». وعادةً ما يكون الهدف من النظَّارات ذات الحوامل المنحنية، وتُحمل على الأذن، أن تُرتدى على الدوام، وهذا يتَّفق مع التجويف على الأنف؛ حيث إنَّ عمقه لا يدلُّ على مجرد ارتداء النظَّارة بين الفينة والأخرى من أجل القراءة. ربما يقول قائلٌ إذا كانت لديه عينٌ واحدة سليمة، فإنَّ النظَّارة أُحادية العدسات ستفي بالغرض، ولكن هذا القول ليس له ما يؤيِّده؛ لأن ارتداء نظَّارة أحاديَّة العدسة على الدوام، لن يكون مريحًا مثل ارتداء نظَّارة بعدستَين وذراعَين بحاملَين على شكلِ خُطَّاف.

وفيما يتعلَّق بطبيعة المرض الذي كان يعانيه المريض، ليس ثمة رأيٌ محتمَل غير رأيٍ واحد. إنَّها حالةٌ واضحة، وعادةً ما تكون ناتجةً عن التسمُّم بالأفيون أو المورفين. ويبدو أنَّ جميع أعراضه تقود بشكلٍ لا لَبْس فيه إلى هذا الاستنتاج. فاللسان الأبيض الذي برز من فمه ببطءٍ وارتعاش استجابةً لصرخةٍ في أذنه، والبشرة الصفراء والتعبيرات المروِّعة، وانكماش حدقة العين والسُّبات الذي لا يكاد يستيقظ منه، حتى مع التعامل الشديد نوعًا ما، والذي لم يبلغ حدَّ فقدان الإحساس الفعلي بعدُ؛ كلُّ هذه الأعراض تشكِّل مجموعةً واضحة ومتَّسقة لدرجةِ أنها لا تدلُّ بوضوحٍ على تناول العقَّار فحسب، بل إنها تشير إلى أخْذِ جرعةٍ كبيرة منه.

ولكن هذا الاستنتاج بدوره طرَحَ سؤالًا بالِغَ الغرابة والصعوبة. إذا كان قد أَخَذَ جرعةً كبيرة من عقَّار سُمِّي، فكيف أخذها ومَن الذي أعطاه إياها؟ لم يكشف الفحص الدقيق لذراعَي المريض وساقَيه عن أي علامة تدلُّ على حَقْنه بإبرةٍ تحت الجِلد. وواضحٌ أنَّ الرجل لم يكُن يتعاطى المورفين بوجهٍ عام، ومع عدم وجود العلامات المعتادة للوخز بالإبر؛ لم يكن ثمة شيء يبيِّن أو يوضِّح إن كان المريض تناوَلَ العقَّار طواعيةً بنفسه، أم أن شخصًا آخر أعطاه إياه.

ومن ثَم يتبقى احتمالُ أنني ربما أكون قد أخطأتُ التشخيص. لكني واثقٌ كثيرًا في التشخيص. والعاقل يحمل دائمًا قدْرًا من الشكِّ. وبمراعاة الحالة الحرِجة، التي من الواضح أن المريض يمرُّ بها، فالشَّك مُزعِجٌ كثيرًا. في الحقيقة، حين وضعتُ السمَّاعة في جيبي وألقيتُ نظرةً أخيرة على الشخص الصامت الفاقدِ الحركة، أدركتُ أنَّ موقفي من أصعب المواقف وأعقدها إلى حدٍّ كبير. فمن جهة، دفعَتْني شكوكي — التي من الطبيعي أن تُثيرها الظروف غير العادية التي أحاطت بزيارتي — إلى الصمت الشديد، ومن جهة أخرى، يُملي عليَّ واجبي بوضوحٍ أن أقدِّم أيَّ معلوماتٍ قد تكون مفيدةً للمريض.

حين الْتفتُّ بعيدًا عن الفِراش، توقَّف السيد فايس عن خطواته المتثاقِلة ووقَفَ أمامي. وأمسى ضوء الشمعة الخافت مسلَّطًا عليه، ولأول مرة تسنى لي رؤيته بوضوح. لكن لم يكن انطباعي الأول إيجابيًّا. فقَدْ كان قصيرًا وممتلئ الجسم ومستدير المنكبَين، بملامح ألمانية عادية وشَعرٍ أصفرَ، مدهونٍ ومصفَّف وأملس، ولحيته كبيرةٌ وغير مهذَّبة وخشِنة؛ وهذا وصفٌ سريع لملامحه. أنفه كبيرٌ ومستدير ومنتفِخ، ولونه يميل إلى الأرجواني المائل إلى الحُمرة، وهذه الصبغة تمتدُّ إلى الأجزاء المتاخِمة لأنفه في وجهه، وكأنَّ اللون يسرح فيها. حاجباه كبيران ومتدليان فوق عينَيه العميقتَين، ويرتدي نظَّارةً أعطَته مظهرًا يشبه وجه البومة. لم يكُن مظهره الخارجي جذَّابًا، وكنتُ في حالةٍ ذهنيةٍ تجعلني أتقبَّل أيَّ انطباعٍ غير محبَّب.

قال: «ما تشخيصك؟» تردَّدتُ، وظللتُ ممزَّقًا بين الإحجام عن الكلام والتحدُّث بصراحة، وفي النهاية أجبتُ:

«الأحوال غير مُطمْئِنة يا سيد فايس. إنه في حالةٍ سيئة للغاية.»

«أجل، هذا واضح. لكن هل توصَّلتَ إلى أيِّ تشخيصٍ لطبيعة مرضه؟»

اختلجَت نبرةُ صوته بشيءٍ من القلَق ورغبةٍ مكبوتة في السؤال، وهذا طبيعي تمامًا في هذه الظروف؛ ومن ثَم لم تهدأ شكوكي، بل تأثرتُ وآثرتُ أن أتَّخذ جانبَ الإحجام.

أجبتُه حذِرًا: «لا يسعني أن أُبدي رأيًا محدَّدًا الآن. فالأعراض مُلتبِسة، وأغلب الظن أنها تشير إلى عدَّة حالاتٍ مختلفة. فربما تنجُم عن احتقان الدماغ، ولو لم يكن ثمَّة تفسيرٌ آخر، لأخذتُ بهذا الرأي. ولذا، التفسير الآخر هو تناول سُم مخدِّر، مثل الأفيون أو المورفين.»

«ولكن هذا مستحيلٌ تمامًا. فهذه العقاقير ليست موجودةً في المنزل، وهو لم يعُد يغادر غرفته البتة، ولا سبيل إلى الحصول عليها من الخارج.»

سألته: «وماذا عن الخدَم؟»

«لا يوجد خدَم غير مدبِّرة شئون المنزل، وهي محلُّ ثقةٍ مطلقة.»

«ربما لديه خِزانة للأدوية وأنت لا تعلم عنها شيئًا. هل يُترك بمفرده كثيرًا؟»

«في الحقيقة، لا يُترك بمفرده إلا نادرًا. فأنا أمكث معه في الغرفة ما وسعني ذلك، وحين لا أستطيع المكوث معه، فإن السيدة شاليبام — مدبِّرة شئون المنزل — تجلس معه.»

«هل تأتيه نوباتُ نعاسٍ كثيرًا كنوبته الآن؟»

«أوه، تأتيه كثيرًا جدًّا في واقع الأمر، بل يمكن القول إنها صارت حالته العادية. إنه يستيقظ بين الفَينة والأخرى، وبعد ذلك يفيق تمامًا ويصبح طبيعيًّا لمدَّة ساعة أو نحو ذلك، ولكن سرعان ما يغشاه النعاس مرةً أخرى ويغفو، ويظلُّ نائمًا أو شبهَ نائم لساعات متواصِلة. هل تعرف أيَّ مرضٍ يتسبَّب في هذه الأعراض؟»

أجبتُه: «لا. فالأعراض ليست متطابِقة تمامًا مع أعراض أيِّ مرضٍ أعرفه. ولكنها تشبه إلى حدٍّ بعيد أعراض التسمُّم بالأفيون.»

رد السيد فايس بنفادِ صبر: «ولكن يا سيدي، إذا كان من الواضح أن التسمُّم بالأفيون مستحيل؛ فلا بد أن يكون مرضًا آخر. والآن، ما الحالات المحتمَلة لهذه الأعراض؟ كنتَ تتحدَّث عن احتقان الدماغ.»

«نعم، ولكن ما يفنِّد هذا الاحتمال حالاتُ الإفاقة التامة التي يبدو أنَّها تحدُث بين هذه النوبات.»

قال السيد فايس: «ما قلتُ إنها إفاقةٌ تامة. ولكنها إفاقةٌ نسبية إلى حدٍّ ما. فهو يستردُّ وعيه ويصبح طبيعيًّا في تصرفاته بطريقةٍ ما أو بأخرى، ولكنه يظلُّ كسولًا وخاملًا. فلا تبدر منه — على سبيل المثال — أيُّ رغبة في الخروج، ولو حتى من غرفته.»

فكَّرتُ غيرَ مرتاحٍ في هذه العبارات المتضاربة. من الواضح أن السيد فايس لا يميل إلى تأييد نظرية التسمُّم بالأفيون، وهذا الموقف طبيعيٌّ إلى حدٍّ بعيد، ما دام لا يعرف شيئًا عن استخدامات العقَّار. ولكن ...

قال السيد فايس: «هل أسأل إنْ سبق لك التعامل مع مرض النوم؟»

لقد فاجأني سؤاله. فأنا لم يسبق لي أن تعاملتُ معه. بل إنه يُصيب قلةً قليلة من الناس. ولذا لم تتوفَّر لي معلوماتٌ عن المرض. وكان يُعد مجرَّد حالةٍ مرضيَّة غريبة، ولا يعرفه أحدٌ سوى قلةٍ من الأطباء في المناطق النائية بأفريقيا، ولا يُذكر في كتب الطبِّ إلا قليلًا. ولم تكن علاقته بالحشرات المحمَّلة بالمِثقَبيَّات، خضعَت للدراسات بعدُ؛ ومن ثَم فلَمْ أكُن أعرف أعراضه البتة.

رددت: «كلَّا، لم أتعامل معه. فأنا لا أعرف شيئًا عن المرض سوى اسمه. لكن لماذا تسأل؟ هل سافر السيد جريفز إلى الخارج؟»

«نعم، سافر عدَّة مرَّات في السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة، وأعلم أنه قضى بعض الوقت في الفترة الأخيرة بغرب أفريقيا، وهذا المرض موجودٌ هناك. وفي الحقيقة، هو الذي أخبرني عنه أول مرَّة.»

هذه حقيقةٌ جديدة. وقد زعزعَت ثقتي في تشخيصي إلى حدٍّ كبير، وجعلَتني أُعيد التفكير في شكوكي. وإن كان السيد فايس يكذب عليَّ؛ فسيضعني في مأزقٍ لا أُحسد عليه.

سأل: «ما تقول في ذلك؟ هل يُحتمل أن يكون مصابًا بمرض النوم؟»

رددت: «لا أحبُّ أن أقول إنَّ هذا الاحتمال مستبعَد. فأكاد لا أعرف شيئًا عن المرض. ولم أمارس الطب خارج إنجلترا، ولم ترِد إليَّ حالةٌ كي أدرسه. وإلى أن أدرس الموضوع دراسةً وافية، لا أستطيع أن أقول رأيي. بالطبع إذا رأيتُ السيد جريفز في حالةٍ ممَّا نسمِّيه «نوبات الإفاقة»، فستتكون لديَّ فكرةٌ أفضل. هل تعتقد أنه يمكننا ذلك؟»

«ربما. فأنا أفهم أهمية هذه الخطوة، وسأبذل قصارى جهدي لتحقيقها، ولكنه رجلٌ صعب، رجلٌ صعب للغاية. وأتمنَّى من أعماق قلبي ألَّا يكون مرضَ النوم.»

«ولمَ؟»

«لأنَّ هذا المرض — كما فهمتُ منه — نهايته الموت لا محالة، سواءٌ أكان عاجلًا أم آجلًا. ويبدو أنه ليس له علاج. هل تعتقد أنك ستتمكن من اتخاذ القرار حين تراه مرةً أخرى؟»

رَدَدتُ: «أرجو ذلك. سأستشير أهلَ الاختصاص؛ كي أستجلي أعراض هذا المرض بقدر ما لديهم من عِلم، ولكني أرى أنَّ المعلومات المتوفرة عنه نادرةٌ للغاية.»

«وماذا ينبغي لنا أن نفعل في أثناء ذلك؟»

«سنُعطيه بعض الأدوية ونراقب حالته العامة، والأفضل أن ترتِّب لي زيارةً أخرى في أقرب وقت ممكن.» هممتُ أن أقول إنَّ تأثير الدواء نفسه قد يبيِّن قدْرًا من حالة المريض، ولكن لمَّا قرَّرتُ أن أعالجه من سُم المورفين، رأيتُ أنَّ الأليق أن أحتفظ بهذه المعلومة لنفسي. وبناءً على ذلك، اقتصرت على بعض التوجيهات العامة بشأن رعاية المريض، وقد أنصت لي السيد فايس وأنا أُلقيها على مسامعه. ختمتُ حديثي: «والآن، يجب ألَّا نَغفَل عن مسألة الأفيون. والأحرى أن تُفتِّش الغرفة بعناية وأن يراقَب المريض عن كثب، لا سيما في فترات يقظته.»

ردَّ السيد فايس: «حسنًا أيها الطبيب، سأنفِّذ التعليمات التي أمليتَها عليَّ، وسأُرسل في طلبك في أقرب وقت ممكن، إذا لم يكن لديك اعتراضٌ على الشروط السخيفة التي يفرضها جريفز. والآن، أرجو أن تقبل منِّي ثَمن الكشف، وأنا سأذهب كي أطلب لك العربة ريثما تكتب الوصفة الطبية.»

قلت: «لا حاجة إلى وصفةٍ طبية. فأنا سأعدُّ دواءً وأعطيه لسائق العربة.»

بدا أنَّ السيد فايس يميل إلى الاعتراض على هذا الإجراء، ولكنَّ عندي أسبابًا تدفعني إلى الإصرار عليه. فالوصفات الطبية الحديثة ليست صعبةَ القراءة، وأنا لا أريد السيد فايس أن يعرف العلاج الذي يتناوله المريض.

بمجرد أن أصبحتُ بمفردي، عُدت إلى جانب الفِراش ونظرت إلى ذلك الشخص الساكن مرةً أخرى. وحين نظرت إليه، عادت إليَّ شكوكي. فالأرجح أن الحالة تسمُّم بالمورفين، وإذا كان ترجيحي في محلِّه؛ فإنه لن يتناول جرعةً طبيةً عادية. فتحتُ حقيبتي وأخرجتُ منها علبة الأدوية التي تُعطى تحت الجِلد، ومنها أخرجتُ أنبوبًا صغيرًا يحتوي على أقراص الأتروبين. هززتُ الأنبوب في يدي وأخرجتُ منه قرصَين صغيرَين، وسحبتُ الشفة السفلية للمريض، ووضعت القرصَين الصغيرَين تحت لسانه. وبسرعة أعدْتُ الأنبوب وأدخلتُ العلبة في حقيبتي، وما كِدت أفعل ذلك حتى انفتح البابُ بهدوء، ودخلَت الغرفةَ مدبِّرةُ شئون المنزل.

سألَت بصوتٍ منخفضٍ لم أجِد له سببًا غير مراعاة حالة السُّبات التي كان المريض فيها: «كيف حال السيد جريفز؟»

أجبتُها: «مرضه شديدٌ فيما يبدو.»

ردَّت: «هكذا إذن!»، ثم أردفَت: «يُحزنني سماع هذه الأخبار. لقد قلقنا عليه.»

جلسَت في الكرسي بجانب الفِراش، بحيث أبعدَت ضوء الشمعة عن وجه المريض — وعن وجهها أيضًا — وأخرجَت من حقيبةٍ تتدلَّى من خصرها جوربًا غير مُكتمِل، وبدأت في حياكته — صامتةً — بمهارةٍ تتميز بها ربَّة المنزل الألمانية. نظرتُ إليها باهتمام (على الرغم من أنَّ وجهها كان في الظلام، ولم أتبيَّن ملامحها إلا بقدْرٍ يسير)، ولكن لم يجذبني مظهرها كثيرًا مثلما هو حالي مع بقية أفراد هذا المنزل. لم يكُن مظهرها قبيحًا. فجسمها جميلٌ، ويوحي مظهرها بأنها ذات مكانةٍ اجتماعية راقية، وملامحها جميلةٌ، كما أنَّ لون بشرتها لم يكن بشعًا، على الرغم من أنه لم يكن مألوفًا بعض الشيء. وكما هي الحال مع السيد فايس، كان شَعرها أشقرَ ومدهونًا ومفروقًا من المنتصف ومصفَّفًا ومفرودًا، مثل

شعر الدمية الهولندية الملوَّن. بدَت كأنها بلا رموشٍ على الإطلاق، ولا شكَّ أن السبب في ذلك هو لون الشَّعر الفاتح، والشكل الذي يشبه الدمية تؤكِّده عيناها؛ حيث إنَّ لونهما كان بنيًّا أو رماديًّا داكنًا، لم أستطع أن أحدِّد أيهما. سمةٌ مميِّزة أخرى وهي «التشنجات العادية» مثل التي نراها عند الأطفال العصبيين، وهي رعشةٌ سريعة تحدُث في الرأس من وقتٍ لآخر، وكأنها تُبعِد حبل قبعة أو مشبك شعر سائب عن خدِّها. وهي، في نظري، تبلغ من العمر نحو ٣٥ سنة.

العربة — التي قد يتوقَّع المرء أنَّها في انتظاره — يبدو أنَّها تستغرق بعض الوقت حتى تكون جاهزة. بدأ صبري ينفد وأنا جالسٌ أستمع إلى أنفاس المريض الهادئة، ونقرات إبَر الخياطة التي تستخدمها مدبِّرة شئون المنزل. أردتُ الذهاب إلى المنزل، ليس من أجلي فقط، ولكنَّ حالة المريض تستدعي وتحثُّ على إعطائه الدواء في أقرب وقت ممكن. ولكن مرَّت الدقائق، وكاد الغضب يفيض بي، حتى رنَّ الجرس على البسطة.

قالت السيدة شاليبام: «العربة جاهزة. سأُنير لك السُّلَّم.»

قامَت وأخذَت الشمعة وسارَت أمامي إلى بداية السُّلَّم، حيث وقفَت وأمسَكَت الشمعة من فوق الدرابزين، ريثما أنزل وأعبُر الممرَّ إلى الباب الجانبي المفتوح. جَرَت العربة وتوقَّفت في الطريق المسقوف، على حدِّ ما رأيتُ في هذا الضوء الخافت، الصادر من الشمعة البعيدة، وبالكاد جعلني أميِّز سائقَ العربة الذي يقف على مقربةٍ مني في الظِّل. نظرتُ من حولي لعلِّي أرى السيد فايس، ولكن لمَّا لم أرَه، دخلتُ إلى العربة. وسرعان ما أُغلق الباب وأُقفل بالقفل، ثم سمعت سَحْب المزاليج الثقيلة للبوابات وصرير المفصَّلات العالي. خرجَت العربة ببطءٍ وتوقَّفَت، أُغلقَت البوابات من خلفي، وشعرتُ بترنُّح العربة؛ إذ صعد السائق وجلس ثم بدأنا السير.

أفكاري في رحلة العودة لم تبعَثْ على التفاؤل البتة. وما استطعت أن أنبذ قناعتي بأنني تورطت في بعض الأعمال الباعثة على الشك. بالطبع ربما خالجني هذا الشعور؛ بسبب السرِّية الغريبة التي أحاطت بهذه الحالة، وإنْ أُجريَت الزيارة في ظروف عادية، فلربما لم أجد في أعراض المريض ما يبعث على الشك أو القلق. ربما كان الأمر كذلك، ولكن لم أجد عزاءً في هذا التفكير.

وعلى كلٍّ، ربما أخطأتُ التشخيص. ربما كان مرضه — في الواقع — حالةً من حالات اعتلال الدماغ التي يصحبها ضغطٌ، مثل نزيف دموي بطيء أو خُرَاج أو ورم أو احتقان بسيط. فهذه الحالات تصبح حادة في بعض الأحيان. ولكن الظاهر في هذه الحالة ليس

بالضرورة أن يتفق مع الأعراض المصاحِبة لأيٍّ من هذه الحالات. أما بالنسبة إلى مرض النوم، فربما كان اقتراحًا أكثر تفاؤلًا، ولكني لن أتخذ قراري بالاتفاق معه أو نَبْذه حتى تتوفَّر لديَّ معلومات أكثر؛ وعلى النقيض من هذا الرأي، تقف الحقيقة الوجيهة بأنَّ الأعراض تتطابق تمامًا مع نظرية التسمُّم بالمورفين.

لكنْ حتى إن كان الأمر كذلك، فلا توجد أدلةٌ قاطعة على أي عمل إجرامي. ربما كان المريض معتادًا على الأفيون، والأعراض تفاقمت بسبب خيانةٍ متعمدة. فمكْرُ هؤلاء التُّعساء يُضرب به المَثل، ولا يعادله إلا تكتُّمهم وكذبهم. ومن غير المستبعد أبدًا أن يكون هذا الرجل يتظاهر بالسبات العميق ما دام أحدٌ يراقبه، ثم حين يصبح بمفرده لبضع دقائق يقفز من الفِراش ويأتي لنفسه ببعض الأفيون من خزانة أدويةٍ سرية. يتوافق هذا الاحتمال كثيرًا مع اعتراضه على زيارة طبيبٍ ورغبته في السرِّية. وعلى الرغم من ذلك، فإني لا أحسبه تفسيرًا صحيحًا. وعلى الرغم من كل هذه الاحتمالات البديلة الكثيرة، تعاودني الشكوك في السيد فايس وفي المرأة الغريبة القليلة الكلام، ولا تُطرَد من عقلي.

كل الملابسات المحيطة بهذه الحالة تدعو إلى الريبة. التجهيزات المتقَنة التي انطوت عليها حالة العربة التي حملوني فيها، وتغيير مظهر المنزل إلى حين، وغياب الخدَم العاديين رغم وجود سائق العربة، والرغبة الواضحة من السيد فايس ومن تلك المرأة في تجنُّبي التقصِّي عن شخصَيهما، والأهم من هذا كله تعمُّد السيد فايس الكذبَ عليَّ. لا شك عندي البتة في أنه كذب عليَّ. فتصريحه بسُبات المريض شبه المستمر لا يتَّفق البتة مع تصريحه الآخر بشأن رغباته وعناده، ولا يتفق أكثر مع الآثار العميقة والحديثة نسبيًّا على أنف المريض بسبب ارتداء النظَّارة. وبالتأكيد لم يمرَّ على آخِر مرَّة ارتدى فيها ذلك الرجل النظَّارة أكثر من ٢٤ ساعة، ولا أحسبه يرتديها إن دخل في حالةٍ تُشارف على أن تكون غيبوبة.

انقطع حبلُ أفكاري مع توقُّف العربة. فُتح الباب وخرجتُ أنا من سِجني المظلِم والخانق أمام منزلي.

قلتُ للسائق: «سأُحضر لك الدواء خلال دقيقة أو دقيقتَين»، وحين دخلتُ وأقفلتُ خلفي بالمِزلاج، انصرف عقلي سريعًا من التفكير في الوضع الراهن إلى التفكير في الحالة الصحية الحَرِجة للمريض. حزنتُ بالفعل لأنني لم أهزَّه بقوةٍ أكبر حتى أُوقِظه ويستعيد حيويته الواهنة؛ لأنه سيكون مروِّعًا إن تفاقمَت حالته أو فارق الحياة، قبل أن يرجع

إليه السائق بالعلاج. دفعَتني هذه الفكرة المزعِجة إلى الإسراع في تحضير الدواء وحمْلِ الزجاجات التي لفَفتُها بسرعة إلى الرجل، حيث وجدتُه واقفًا بجانب رأس الحصان.

قلتُ له: «عُد بأقصى سرعة لديك، وأخبر السيد فايس ألَّا يهدِر الوقت، ويعطي المريض الدواء الموجود في الزجاجة الصغيرة. التعليمات مكتوبةٌ على الملصَق.»

أخذَ السائق العبوات منِّي دون أن يتفوَّه، وصعد إلى مقعده، وضرب الحصان بالسوط، وانطلق مسرعًا باتجاه نيوينتون باتس.

عرفتُ من الساعة الصغيرة في غرفة الكشف أن الساعة شارفَت على الحادية عشرة؛ إنه الوقت المناسب لمارِسٍ عامٍّ مرهَق والنوم يخامر عقله. لكني لم أكن نعسان. وبينما أتناول عشائي المتواضِع، وجدتُني أعيد نَسْج حبل أفكاري، ولمَّا دخَّنتُ آخر غليون مع انطفاء المدفأة في غرفة الكشف؛ ما برحَت السمات الغريبة والمشئومة لهذه الحالة تقفز إلى عقلي. ثم بحثتُ في مكتبة الدكتور ستيلبري المرجعية المتواضِعة عن معلومات بشأن مرض النوم، ولكني لم أجِد غير أنه «مرضٌ نادر وغريب، ولا تتوفر عنه معلومات كثيرة في الوقت الحالي». قرأت عن تسمُّم المورفين وحينذاك تأكَّد الرأي عندي أنَّ تشخيصي صحيح، ولربما كان التشخيص مقنعًا أكثر لو كانت الظروف مختلفة.

لا تقتصر أهميةُ الحالة على الجانب الأكاديمي. فقَدْ صِرتُ في موقفٍ مليء بالصعوبات والمسئوليات ويتحتَّم عليَّ أن أقرِّر خطواتي التالية. ما الذي ينبغي لي فعله؟ هل ينبغي أن ألتزم بالسرِّية المهنية التي تعهَّدتُ بها ضمنيًّا، أم أنقل خبرًا إلى الشرطة؟

وعلى حين غِرة، انتابني شعورٌ فريد بالارتياح، حين تذكَّرت جون ثورندايك، صديقي القديم، زميل الدراسة؛ فقَدْ صار الآن علَمًا من أعلام الطب الشرعي. وسبق أن تعاونتُ معه في إحدى القضايا بصفتي مساعِدَه، وقد أُعجبتُ كثيرًا بتبحُّره في العلوم، وحِدَّة ذكائه، وسعة حيلته مُنقطِعة النظير. لقد اكتسب خبرةً واسعة بحُكم عمله في المحاماة، وسيكون بمقدوره أن ينصحني على الفور بما ينبغي لي فِعْله من المنظور القانوني، وبحُكم عمله في الطبِّ، فإنَّه سيفهم متطلبات الممارسات الطبية. وإني لأرجو أن أزور منطقة تيمبل وأضَع القضية بين يدَيه، وحينئذٍ ستتبدَّد شكوكي وتُذلَّل الصِّعاب أمامي.

فتحتُ قائمة الزيارات الخاصة بي على وجل؛ كي أُطالع ما ينتظرني من عمل الغد. لم يكن يومًا ثقيلًا، حتى وإن استوعب مكالمة أو مكالمتَين في الصباح، ولكني لم أكن على بيِّنة من أمري، هل سأستطيع الخروج من المدينة أم لا، حتى وقعَت عيناي على اسم بيرتون بالقرب من نهاية الصفحة. يعيش السيد بيرتون في أحد المنازل القديمة في الجانب الشرقي

من شارع بوفري، وهو يبعُد مسافةً أقلَّ من خمس دقائق من مسكنِ ثورندايك الكائن في شارع كينجس بينش ووك، ولحُسن الحظ إنه مصاب بمرضٍ «مُزمِن»؛ ومن ثَم يمكن تركه حتى نهاية اليوم. فحين أنتهي من السيد بيرتون، يمكنني أن أزور صديقي وربما تسنح الفرصة وألْتقيه في الطريق وهو عائدٌ من المستشفى. وأيضًا، ربما تسنح لي الفرصة وتطول المحادثة معه، وباستئجار سيارةٍ جيدة، ستتسنى لي العودة في الوقت المناسب؛ كي أُنجز عمل المساء.

حينئذٍ شعرتُ بالارتياح. فقد انزاحت الهموم من على صدري، حين خطَرَ ببالي أن أتقاسم المسئوليات مع صديقٍ أثِق في رأيه ثقةً كاملة. لمَّا دونت هذا الموعد في قائمة الزيارات، نهضتُ وقد ارتفعت معنوياتي كثيرًا، وأفرغت غليوني تزامنًا مع إعلان الساعة عن منتصف الليل بنفادِ صبر.

الفصل الثاني

ثورندايك يضع الخُطة

حين دخلتُ إلى منطقة تيمبل من البوابة المطلَّة على شارع تودر، استقبلَت حواسي تفاصيل المكان بجوٍّ من الأُلفة المريحة. هنا، قضيتُ أيامًا مُبهِجة بالعمل مع ثورندايك في قضية هورنبي الشهيرة التي أطلَقَت عليها الصحف اسم «قضية بصمة الإبهام الحمراء»، وهنا الْتقيتُ حُب عمري، وهذه القصة رَويتُ تفاصيلها في روايةٍ أخرى. المكان محبَّب إلى قلبي؛ لأنَّ بين جنباته ذكرياتٍ مبهجةً من الماضي السعيد، وتعلُّقي بما فيه يجعلني أرجو السعادة في مُقبِل الأيام وفي المستقبل غير البعيد.

جعَلَ طَرْقي، السريع القوي على الباب، ثورندايك يردُّ بنفسه عليَّ، وأشعرَتني الحرارة التي لمستُها في ترحيبه بالفخر والخجل في آنٍ واحد. فأنا لم أزُره منذ فترةٍ طويلة فحسب، بل إنني ضننتُ بمراسلاتي إليه.

صاح وهو ينظُر إلى داخل الغرفة: «عاد الابن الضالُّ يا بولتون. ها هو الدكتور جيرفيس.»

تبعتُه إلى الغرفة ووجدتُ بولتون — كاتِم أسراره، ومساعِده في المختبَر، والمبتكِر، وذراعه «اليمنى» — يضع صينيةَ الشاي على طاولةٍ صغيرة. صافحني صاحب الجسم الصغير بحرارة، وارتسمَت في وجهه تجاعيد بريشة ابتسامته، التي جعلَت وجهه وكأنه حبَّة جوزٍ طيبة.

قال: «كثيرًا ما نتحدث عنك سيدي. وآخر مرة يوم أمس؛ إذ تساءل الدكتور متى ستعود إلينا.»

وعندما تذكَّرت أنني لم «أعُد إليهما» من أجل زيارتهما، بالمعنى الذي يتوقعانه، شعرتُ ببعض الذنب، ولكني آثرتُ أن أبوح بما لديَّ إلى ثورندايك وحده ورددتُ بكلامٍ

عام مهذَّب. حينئذٍ، جلَبَ بولتون إبريقَ الشاي من المختبر وأشعَلَ المِدفأة ثم غادَرَ، وجلس كلٌّ منَّا أنا وثورندايك — كالعادة — في كرسيه ذي الذراعَين.

سأل زميلي: «من أين أتيتَ في هذه الزيارة غير المتوقَّعة. كأنَّك أتيتَ في زيارة عمل.»

«أجل. ومسرح أحداث القضية التي أتيتُ من أجلها في شارع لووار كينينجتون لين.»

«آه! ستعود إذن إلى مسارك القديم؟»

أجبتُه مبتسمًا: «نعم، المسار القديم، المسار الطويل، المسار الجديد على الدوام.»

أردف ثورندايك عابسًا: «ولا يصِل بك إلى مكان.»

ضحكتُ مرةً أخرى، لكني لم أضحك من أعماق قلبي؛ حيث إن تعليق صديقي يحمل جانبًا مُقلِقًا من الحقيقة، وتجربتي خيرُ شاهد على ذلك. فالطبيب الذي تدفعه قلة الإمكانيات إلى كسب لقمة عيشه من تولِّي مهام أطباءَ آخرين؛ حتمًا سيكتشف أن سنوات عمره ضاعت، ولم يَجنِ منها غير الشيب وكمٍّ من التجارب غير المُرضية.

استأنف ثورندايك الحديث بعد لحظات: «ستُضطر إلى ترك هذا العمل يا جيرفيس، نعم ستُضطر إلى ذلك. فهذه الوظيفة غير المنتظِمة، لا تناسب رجلًا في مثل حالك وله إنجازاتٌ مثلك. وعلاوةً على ذلك، أَلَمْ تخطب فتاةً جميلة وتنوي الزواج بها؟»

«بلى، أعرف. كنتُ مغفلًا. ولكني سأُصلح مساري لا ريب. وإن لزم الأمر، فلن أستنكِف أن أطلُب المال من جولييت كي أشتري عيادة خاصة.»

قال ثورندايك: «ذاك هو القرار الصائب. فكم هو سخيف الاستكبار والتحفُّظ بين شخصَين ينويان الزواج. ولكن لماذا تشتري عيادةً خاصة؟ هل نسيتَ اقتراحي؟»

«سأكون أحمقَ وناكرًا للجميل إنْ نسيتُ.»

أردف متحمِّسًا: «أمرٌ طيِّب. وأنا أُعيده على مسامعك مرةً أخرى الآن. اعملْ معي مساعِدًا لي، وادرُس المحاماة، وقدراتك ستفتح لك أبواب الوظائف الكبيرة. فأنا أريدك معي يا جيرفيس. لا بد أن يكون لي مساعدٌ؛ لأنَّ الأعمال تتكاثر عليَّ، وأنت المساعِد الذي أريده. فقد جمعَتْنا صداقةٌ قديمة وطويلة، وعمل أحَدُنا مع الآخَر، وتجمع بيننا محبة وثقة، وإنك أيضًا أفضل مرشَّح أعرفه لتلك الوظيفة. انضمَّ إليَّ؛ فأنا لن أقبل رفضًا. وهذا قرارٌ نهائي.»

سألتُ مبتسمًا على حرصه: «وما الخيار البديل؟»

«لا شيء. فأنت ستقبل.»

أجبتُه بنبرةٍ خالية من العاطفة: «أغلب الظن أني سأقبل، وإني أسعد بعَرضك، ويعجز لساني عن الوفاء بشكرك. ولكن يجب أن نؤجِّل قراري النهائي إلى اللقاء القادم — وأعتقد أنه سيكون في غضون أسبوع أو نحو ذلك — إذ يتعيَّن عليَّ العودة في غضون ساعة، وأنا أريد مشورتك في مسألةٍ بالغة الأهمية.»

قال ثورندايك: «حسن إذن، سنُرجئ دراسةَ الاتفاق الرسمي إلى اللقاء القادم. ما المسألة التي تطلُب رأيي فيها؟»

قلت: «في الحقيقة، أنا في ورطةٍ كبيرة، وأطلب رأيك فيما ينبغي لي فعله.»

توقَّف ثورندايك ريثما يملأ كوبي، ورمقني بنظرةِ قلَقٍ لا أُخطِئُها.

قال: «أرجو ألَّا يكون قد حلَّ مكروه.»

حاولتُ أن أوضِّح ما يرمي إليه ضمنيًّا بكلمةِ مكروه؛ حيث إنه بالنسبة إلى طبيبٍ شابٍّ وجذَّاب، عادةً ما تكون المشكلة مع أنثى؛ ولذا أجبتُه مبتسمًا: «لا، لا، ليس شيئًا من هذا القبيل. المسألة لا تتعلَّق بشخصي على الإطلاق؛ إنها مسألةُ مسئولية مهنيَّة. ولكن الأحرى بي أن أقصَّ عليك المسألة بالتفاصيل كاملة؛ فأنا أعرف رغبتك الدائمة في أن تكون المعلومات منظَّمة ومرتَّبة.»

عندئذٍ، قصصتُ عليه ما وقَعَ في زيارتي إلى السيد جريفز الغامض، ولم أُغفِل أيَّ حدَثٍ أو تفاصيل على حدِّ ما أتذكَّر.

أنصَتَ ثورندايك إلى القصة منذ بدأتُ أرويها بأقصى درجات الانتباه. لم أرَ وجهه جامدًا من قبل كما رأيتُه هذه المرَّة، ولم أستطع قراءته وكأنَّه قِناعٌ برونزي، لكن بالنسبة إلى شخصٍ على معرفةٍ قويَّة به مثلي، رأيتُ فيه شيئًا معيَّنًا — ربما تغيُّر في اللون أو لمعان غير عاديٍّ في العين — علمتُ منه أن شغفه بالتحقيق في المسألة وصَلَ إلى أعلى مستوياته. ولَمَّا قصصتُ عليه الرحلة المُريبة والمنزل الغريب والسرِّي الذي أخذوني إليه؛ رأيتُ أنها تتناسب مع اهتماماته تناسُبًا تامًّا. وبينما أقصُّ عليه القصة، جلَسَ كأنَّ على رأسه الطير، وواضحٌ أنه حفظ القصةَ بكاملها وبكافة تفاصيلها في ذاكرته، وحتى بعدما فرغتُ، ظلَّ مدةً طويلة من دون أن يتحرك أو يتكلم.

بعد مُدة، رفَعَ بصره إليَّ. قال: «هذه مسألةٌ غير عادية البتة يا جيرفيس.»

وافقتُه: «نعم، والسؤال الذي يؤرِّقني: ما الذي يتعيَّن عليَّ أن أفعله؟»

قال وهو غارقٌ في التفكير: «أجل، هذا هو السؤال، وإنه سؤالٌ صعب للغاية. وقبل الإجابة عنه، علينا أن نجِدَ إجابةً للسؤال التالي: ما الذي يحدُث في ذلك المنزل؟»

سألتُه: «وما الذي تظنُّ أنه يحدُث فيه؟»

أجابني: «لا بد أن نتوخَّى الحذر يا جيرفيس. لا بد أن نفصل بعناية بين الأمور القانونية والطبية، وأن نتجنَّب الخلط بين المعلومات المؤكَّدة لدينا والمعلومات المشكوك فيها. والآن، نتناول الجوانب الطبية في هذه القضية. المسألة الأولى التي يتعيَّن علينا حلُّها تتعلَّق بمرض النوم، أو الخمول الزنجي كما يسمُّونه أحيانًا، وهذه مسألةٌ صعبة. فنحن لا تتوفَّر لدينا معلوماتٌ كافية عنه. وأعتقد أن كِلَينا لم يرَ حالةَ إصابةٍ بهذا المرض، وأوصاف المرض المتاحة لدينا ليست كافية. فبناءً على ما أعرفه عن المرض، تتَّفق أعراضه مع الأعراض التي تعانيها الحالة التي كشفتَ عليها، فيما يتعلَّق بالتجهُّم المزعوم، وطول فترات الخمول تدريجيًّا، وتبادُلها مع فترات الفواق البيِّن. وعلى الجانب الآخر، يقال إن المرض لا يُصيب غيرَ الزنوج، ولكن — حتى الآن — ربما لا يعني هذا سوى أنَّ الزنوج هم الذين يتعرَّضون للظروف التي تؤدي إلى الإصابة به. معلومةٌ أخرى مهمَّة وهي أنَّه على حدِّ علمي، ليس الانقباض الحادُّ في حدقة العين من أعراض مرض النوم. بإيجاز، لا تتفق الاحتمالات مع مرض النوم، ولكن قد تتفق مع عدم توفُّر معلومات كافية عنه؛ ومن ثَم لا يمكننا استبعاده بالتأكيد.»

«هل ترى أنه ربما يكون مرض النوم؟»

«لا، أنا شخصيًّا لا أتفق مع هذه النظرية مطلقًا. ولكني أدرس الأدلة بعيدًا عن آرائنا الشخصية. ومن ثَم علينا أن نعد هذه الحالة فرضية منطقية وأنَّ صاحبها مصابٌ بمرض النوم؛ لأننا لا نستطيع الجزم بثبوت العكس. هذا كلُّ ما في الأمر. لكن حين نأتي إلى فرضية التسمُّم بالمورفين، تختلف المسألة. فالأعراض تتَّفق مع أعراض التسمُّم بالمورفين في كل الجوانب. وليس هناك ثمَّة استثناء أو اختلاف من أيِّ جهة. لذا، فإن المنطق السليم يقضي بأنْ نعتمد التسمُّمَ بالمورفين على أنَّه التشخيص العملي، وهذا ما يبدو أنَّك فعلتَه.»

«نعم. اعتمدتُ ذلك التشخيص من أجل وصف العلاج.»

«بالضبط. فمن المنظور الطبي، اعتمدتَ وجهة النظر الأكثرَ رجحانًا ونبذتَ الأقل رجحانًا. وهذا الفعل منطقي. ولكن من المنظور القانوني، لا بد من عدم إغفال أيٍّ من الاحتمالَين؛ حيث إنَّ فرضية التسمُّم تنطوي على مسائلَ قانونيةٍ خطيرة، أمَّا فرضية مرض النوم، فلا تنطوي على أيِّ مسائلَ قانونية.»

علَّقتُ: «كأنِّي لم أستفِد شيئًا.»

قال: «الحالة تُشير إلى ضرورة اتخاذ الحيطة والحذر.»

«أجل، هذا واضح. ولكن ما رأيك في هذه القضية؟»

قال: «لندرُس الحقائق بالترتيب. لنفترضْ أنَّ الرجل تحت تأثير جرعةٍ سامَّة من المورفين. السؤال الذي يبرُز هنا: هل تناوَلَ هذه الجرعة بنفسه، أم أعطاه إياها شخصٌ آخر؟ وإن أخذها بنفسه، فما الوسيلة التي تناولها بها؟ فالمعلومات التي أُعطيَت لك تستبعد تمامًا فكرة الانتحار. ولكنَّ حالة المريض تستبعد أيضًا فكرة إدمان المورفين. فمتعاطي الأفيون لا يتناول جرعاتٍ تصل به إلى حد الغيبوبة. وعادةً ما يتناول جرعات ضمن المقادير المصرَّح بها والمعلَن عنها. وأرى أن الاستنتاج يقول إن العقَّار أعطاه شخصٌ آخر للرَّجُل، والأرجح عندي هو السيد فايس.»

«أليس المورفين سمًّا قلَّما يُستخدم؟»

«بلى، ولا يصلُح استخدامه سمًّا إلا أن تؤخذ جرعةٌ واحدة مميتة؛ فمعلومٌ أنَّ الجسم يتكيَّف بسرعة مع هذا العقَّار. ولكن يجب ألَّا ننسى أن التسمُّم البطيء بالمورفين قد يكون خيارًا مناسبًا بدرجةٍ كبيرة في حالاتٍ معيَّنة. فالطريقة التي يُضعِف بها المورفين الإرادةَ ويشوِّش العقلَ ويُوهن الجسم؛ قد تُفيد واضعَ السُّم إن كان له مأربٌ في الحصول على توقيع لبعض الوثائق أو المستندات، مثل وصيَّة أو عقد أو تنازُلٍ عن ملكية. ومن ثَم يمكن التسبُّب في الوفاة فيما بعد بوسائلَ أخرى. هل ترى أهميةَ ما تنطوي عليه هذه المعلومات؟»

«هل تعني شهادة الوفاة؟»

«نعم. لنفترضْ أن السيد فايس أعطاه جرعةً كبيرة من المورفين. ثم يرسل إليك ويرمي كلمةَ مرض النوم. إن ابتلعتَها، فقد بات في أمان. ومن ثَم يمكنه تكرار العملية حتى يقتل الضحية، ثم يحصل منك على تقريرٍ يغطِّي على جريمة القتل. إنه مخطِّط بارعٌ للغاية، وتلك بالمناسبة سِمة من سمات الجرائم المعقَّدة؛ فالمجرم الماكر غالبًا ما يكون عبقريًّا في التخطيط للجريمة، ولكنه يكون أحمقَ في التنفيذ، ويبدو أنَّ هذا ما فعله ذلك الرجل، ما لم نكن ظلمناه.»

«وكيف يكون أحمقَ في التنفيذ؟»

«من عدَّة جوانب. أولًا، كان عليه أن ينتقي الطبيب. كان الأنسب له أن يختار طبيبًا كُفئًا وسريعًا في اتخاذ القرارات ومحلَّ ثقة ويعرف مآربه، طبيبًا يُهرَع إلى التشخيص والالتزام به، أو كان عليه أن يختار طبيبًا جاهلًا ويميل إلى معاقرة الخمر. لقد تعثَّر حظُّه كثيرًا؛ لأنَّه تقابل مع طبيبٍ حذِر ومطَّلِع مثل صديقي المبجَّل. إضافةً إلى ذلك، كلُّ

هذه السرِّية كانت حماقةً مُطلَقة، وما فعَلَ سوى أن جعل رجلًا حذرًا يشكُّ في أمره، وهذا ما حدَثَ. وإن كان السيد فايس مجرِمًا بالفعل، فقد أساء إدارة شئونه.»

«وهل تعدُّه مجرمًا حقًّا؟»

«أنا أشكُّ فيه كثيرًا. ولكن أحبُّ أن أطرح عليك بضعةَ أسئلة بشأنه. قلتَ إنه يتحدث بلكنةٍ ألمانية. فما مدى إجادته للغة الإنجليزية؟ هل حصيلةُ المفردات عنده قوية؟ هل استخدم أيَّ عباراتٍ اصطلاحية ألمانية؟»

«لا. أستطيع أن أقول إنَّ لغته الإنجليزية ممتازة، ولاحظتُ أنه يختار العبارات بعنايةٍ، كما لو كان إنجليزيًّا.»

«هل رأيتَ منه «تصنُّعًا» بأيِّ شكلٍ من الأشكال؛ أعني أيَّ تمويه؟»

«لا أعلم. فالضوء كان ضعيفًا للغاية.»

«ألَمْ ترَ لونَ عينَيه، على سبيل المثال؟»

«كلَّا. أظنُّهما رماديَّتان، ولكني لم أتبيَّن.»

«وبالنسبة إلى سائق العربة. قلتَ إنه يرتدي شعرًا مستعارًا. فهل رأيت لونَ عينَيه؟ أو أيَّ صفةٍ مميِّزة تستطيع من خلالها التعرُّفَ عليه؟»

«ظُفْر الإبهام الأيمن مشوَّه. هذا كلُّ ما يمكنني التعرُّف عليه به.»

«هل لاحظت أيَّ شبهٍ بينه وبين فايس بأيِّ شكل، شبَه في الصوت أو في الملامح؟»

«كلَّا على الإطلاق، وهو يتحدَّث بلكنةٍ اسكتلندية مميَّزة كما أخبرتُك.»

«سببُ طرْحِ هذه الأسئلة، هو أنه إذا كان فايس حاول تسميم الرَّجل، فمن المؤكَّد أنَّ السائق تواطأ معه وربما يكون قريبه. وحريٌّ بك أن تتفحَّصه عن كثب إذا أُتيحَت لك فرصةٌ أخرى.»

«سأفعل. وبذلك أرجع إلى السؤال الأساسي، ما الذي يتعيَّن عليَّ فعله؟ هل أبلغ الشرطةَ بهذه الحالة؟»

«أنا أميل إلى عدم الإبلاغ. فما لديك من وقائع ليس كافيًا. وبالطبع إذا أعطى السيد فايس السُّم للرَّجُل «بطريقة غير قانونية ومضِرَّة» فقد ارتكب جنايةً يستحقُّ عليها عقوبة السجن ١٠ سنوات مع الأشغال الشاقَّة، بموجب القوانين الموحدة لسنة ١٨٦١. ولا أعلم بأيِّ مسوِّغات تتقدَّم ببلاغٍ رسمي. فأنت لا تعلم إن كان هو مَن أعطاه السُّم — في حالة أنه قد تناول السُّم بالفعل — ولا يمكنك إعطاء أيِّ اسمٍ موثوق، أو أيِّ عنوانٍ، بأيِّ حالٍ

من الأحوال. ثم إن هناك شكًّا في الإصابة بمرض النوم. بوسعك أن ترفض هذا الاحتمال لأسباب طبية، ولكن لا يسعك الحلف في المحكمة على أن الحالة ليست مرض النوم.»

اعترفت: «أجل، لا يسعني ذلك.»

«ولذا، أعتقد أن الشرطة لن تفعل شيئًا في هذه المسألة، وربما تلحق وصمة عارٍ بممارسات الدكتور ستيلبري، بلا أيِّ طائل.»

«إذن، هل ترى ألَّا أفعل شيئًا في هذه المسألة؟»

«في الوقت الحالي. وبالطبع، من واجب الطبيب أن يساعد العدالة بأيِّ طريقة ممكنة. ولكن الطبيب ليس محقِّقًا، وينبغي ألَّا يحيد عن واجباته وينصِّب نفسه شرطيًّا. بل عليه أن يفتح عينَيه وأذنَيه، وعلى الرغم أنه من واجبه — بوجهٍ عام — أن يحتفظ بمشورته لنفسه، فإن من واجبه أيضًا أن يدوِّن بعناية أيَّ شيء يرى فيه أيَّ قضايا قانونية مهمَّة. ورسميًّا، ليس من عمله أن يفتح تحقيقًا جنائيًّا، ولكن الأكيد أن من عمله أن يكون مستعدًّا إذا دُعي إلى ذلك، وأن يساعد العدالة بالمعلومات التي سهَّلتها له معرفته الخاصة، والفرص التي سنحت له. هل تعي ما أقول؟»

«تقصد أنه ينبغي أن أكتب ما رأيتُه وما سمعتُه، ولا أقول شيئًا عنه حتى يُطلَب مني ذلك.»

«أجل، إن لم يحدُث شيءٌ آخر. ولكن إذا استُدعيت إلى هناك مرةً أخرى، أرى أن من واجبك أن تجمع مزيدًا من المعلومات؛ كي تبلغ الشرطة إن لزم الأمر. فمثلًا، ربما يكون من الأهمية بمكان أن تتعرَّف على المنزل، وجديرٌ بك أن تؤمِّن الوسائل لفعل ذلك.»

احتججتُ عليه: «لكن يا عزيزي ثورندايك أخبرتُك كيف أوصلوني إلى المنزل. والآن، هلَّا تتفضل وتشرح كيف لرجُلٍ مسجون في عربةٍ مظلمة أن يتعرف على أيِّ مكان قد يُحمل إليه؟»

أجابني: «لا أحسب أن المشكلة تنطوي على صعوباتٍ كبيرة.»

قلت: «أوَتظن ذلك؟ فأنا أرى أنَّ الأمر مستحيل تمامًا. ولكن ما الذي تقترحه؟ هل ينبغي أن أركض من المنزل وأهرب إلى الشارع؟ أم هل ينبغي أن أُحدث ثقبًا في مصراع العربة وأتلصص النظر بالخارج؟»

ابتسم ثورندايك ابتسامةً لطيفة. «الطرق المقترَحة من صديقي المتعلِّم تُظهر قدْرًا من السذاجة التي لا تليق برجلِ علم، فضلًا عن مَساوي الكشف عن خططنا للعدو. لا، لا، يا جيرفيس، بوسعنا أن نفعل شيئًا أفضل من ذلك. اسمح لي بدقيقة ريثما أَصِلُ إلى المختبر.»

أسرع إلى حرم بولتون في الطابق العلوي، وتركني أفكِّر في الطريقة التي ينبغي أن يتسلَّح بها الرجل، وكما قال سام ويلر «أن ترى ما وراء العتبة والباب»، أو من وراء حجابٍ، مثل الباب، وهو المصاريع الخشبية في عربة مقفلة.

حين عاد بعد دقيقتَين وفي يده دفتر صغير مغطًّى بالورق، قال: «والآن، كلَّفتُ بولتون بالعمل على جهازٍ صغير، وأظنُّه سيحلُّ المشكلة التي نواجهها، وسأوضح لك كيف تدوِّن ملاحظاتك. أولًا، علينا أن نسطِّر صفحات هذا الدفتر إلى أعمدة.»

جلَسَ على الطاولة وبدأ يقسِّم كلَّ صفحةٍ إلى ثلاثة أعمدة بطريقةٍ منهجية، عمودَين ضيِّقَين وواحد واسع. استغرقَت العملية بعض الوقت، وجلستُ أراقب بفضولٍ ونفادِ صبر الحركات غير المتعجِّلة والدقيقة من قلم ثورندايك، وأنا أتشوَّق لسماع التفسير الموعود. وما كاد ينتهي من الصفحة الأخيرة حتى سمعنا طرْقًا خفيفًا على الباب، حينئذٍ دخَلَ بولتون وعلى وجهه، ما يوحي بالجِدية والذكاء، ابتسامة رضًا وفي يده لوحٌ صغير.

سأل: «هل يَفِي هذا بالغرض يا سيدي؟»

وبينما يتحدَّث، أعطى اللوح الصغير لثورندايك، فنَظَر إليه ومرَّره إليَّ.

أجاب صديقي: «هذا ما كنتُ أحتاجه بالضبط يا بولتون. أين وجدتَه؟ ولا تزعُم أنَّك ابتكرتَه في غضون دقيقتَين ونصف.»

ارتسمَت على وجه بولتون إحدى ابتساماته الغريبة التي تُظهر تجاعيدَ وجهه، وأشار إلى أنَّ «هذا اللوح لم يتطلَّب الكثير من التصنيع»، وغادر مبتهِجًا بهذا الثناء.

قال ثورندايك حين غادَرَ عامِلُه: «يا له من عجوز رائع يا جيرفيس! لقد استوعب الفكرة على الفور، ويبدو أنه أنجز المنتَج النهائي بالسِّحر، مثلما يُحضر المشَعْوِذون الأرانبَ وأوعيةَ الأسماك الذهبية في لحظة. هل أفترض أنك تعلم الطريقة التي ستتبعها في العمل؟»

عندي بعض المعلومات عن الجهاز الصغير — وهو لوحٌ من خشب ذي نمطٍ متشابِك، أبعاده سبع بوصات في خمس بوصات، وفي إحدى زواياه بوصلة جيبيَّة مثبتة بصمغ اللك — ولكني لم أعرف تفاصيلَ طريقة عمله.

قال ثورندايك: «يمكنك قراءة البوصلة بسرعة، أليس كذلك؟»

«بالطبع أستطيع. ألَا تتذكَّر حين أبحرنا في اليخت حين كنا طالبَين؟»

«بلى؛ أتذكَّر، وسنفعل ذلك مرةً أخرى قبل أن نموت. والآن، سأبيِّن لك طريقةَ تحديد مكانِ هذا المنزل. تفضَّل مصباحَ قراءةٍ جيبيًّا؛ حيث يمكنك تعليقه في بطانة العربة. هذا

الدفتر يمكن تثبيته على اللوح بشريطٍ مطاطي هندي، هكذا. ترى أنَّ بولتون المفكِّر قد ثبَّت قطعةَ خيطٍ على زجاج البوصلة كي تكون بمثابة خط البوصلة. سأوضِّح لك كيف تشرع في مهمَّتك. بمجرد أن تُغلق عليك العربة، أَضِئ المصباح — ويستحسن أن تأخُذ كتابًا معك تحسُّبًا لملاحظة الضوء — وأخرج ساعتك وضَع اللَّوح على رُكبتك؛ بحيث يكون الجانب الطوليُّ متَّسقًا بالضبط مع محور العربة. ثم اكتب الوقت في أحد العمودَين الضيِّقَين من الدفتر، واكتب الاتجاه الموضَّح على البوصلة في العمود الآخر، وفي العمود العريض اكتب أيَّ تفاصيل مثل عدد خطوات الحصان في الدقيقة. سأبيِّن لك مثالًا.»

أخذ ورقة منفردة وكتَبَ قيدًا أو اثنَين بالقلم، كما في المثال التالي ...

«٩:٤٠ جنوب شرقي، البداية من المنزل. ٩:٤١ جنوب غربي، بلاطات من الجرانيت. ٩:٤٣ جنوب غربي، طريق خشبي. خطوات الحصان ١٠٤. ٩:٤٧ غربًا ثم جنوبًا، معبر الجرانيت. حصباء ...

وهكذا. دوِّن كلَّ تغيير في الاتجاه بالوقت، ومتى سمعتَ أو شعرتَ بشيء في الخارج، فدوِّنه بالوقت والاتجاه، ولا تنسَ أن تدوِّن أيَّ اختلاف في سرعة الحصان. هل تعي هذه العملية؟»

«أعيها وأستوعبها. لكن هل ترى أن الطريقة دقيقةٌ لدرجةِ أن تحدِّد موضعَ المنزل؟ وتذكَّر أنَّ هذه مجرَّد بوصلة جيب وليس بها إبرة وستتذبذب بشدَّة. وطريقةُ تقدير المسافة عمليةٌ تقريبية إلى حدٍّ كبير.»

أجاب ثورندايك: «كل ما قلتَه صحيح. ولكنك نسيتَ حقائقَ محدَّدة ومهمَّة، وهي أنَّ خريطة التتبُّع التي ستدوِّنها يمكن مطابقتها ببياناتٍ أخرى. المنزل، على سبيل المثال، له طريقٌ مغطًّى يمكن من خلاله معرفة مكان المنزل تقريبًا. ويجب ألَّا تنسى أن العربة لا تسير على سهلٍ مطموس المعالم. فإنَّها تمرُّ من شوارع لها معالم واتجاهات محددة، وهذه الشوارع مرسومة بدقَّة في خرائط هيئة المساحة. أرى يا جيرفيس أنه على الرغم من الحسبة التقريبية الجليَّة في هذه الطريقة، وإذا دوَّنتَ الملاحظات بعناية؛ فلن نجِدَ مشكلة في تضييق دائرة البحث إلى مساحةٍ صغيرة للغاية. هذا بالطبع إن سنحَت لنا الفرصة.»

«أجل، إن سنحت لنا. وأشك أن السيد فايس سيطلُب خدماتي مرةً أخرى، وإني لأرجو حقيقةً أن يطلبني مرةً أخرى. سيكون من النادر العثور على جُحره السري، وكل ذلك غير متوقَّع. ولكن الآن، يجب أن أغادر.»

قال ثورندايك وهو يضع قلمًا مشحوذًا في الشريط المطاطي الذي يثبت الدفتر في اللوح: «مع السلامة. أعلمني بتقدُّم المغامرة — إذا كان هناك أيُّ تقدُّم — وتذكَّر أنَّك وعدتَني بزيارة أخرى في القريب العاجل، مهما كانت الظروف.»

سلَّمني اللوح والمصباح، وعندما وضعتُهما في جيبي، تصافحنا وأسرعتُ مبتعدًا، غير مرتاح بعض الشيء؛ لأنني تركتُ عملي فترةً طويلة.

الفصل الثالث

غريبٌ بينكم يدوِّن الملاحظات

عادةً ما يولِّد موقف الإنسان الشكَّاك في الآخرين سلوكًا يوحي بأنهم يبرِّرون له شكوكه. وتختفي داخل الكثيرين منا نزعةٌ، بقدر معيَّن، إلى الأذى، تكبحُها الثقة، ولكن يحفزها سوء الظن. فالقِط العديم الخبرة، الذي يقترب منا واثقًا ومُقوِّسًا ظهره ورافعًا ذيله يستجدي الملاطفة، غالبًا ما يتلقَّى المعاملة اللطيفة التي توقَّعها؛ وعلى الجانب الآخر، فإن قط الشوارع الذي يفر — استجابةً لحركات لطيفة — وهو يرمينا بابتسامات مُريبة من مأمنه الواهم خلف حائط، يستحثُّنا كي نُعجِّل انسحابه من أمام ناظرنا برمي حجر مُصوَّب تجاهه تصويبًا دقيقًا.

الإجراءات التي اتخذها السيد إتش فايس تشبه تصرُّفات قط الشوارع آنف الذكر، وتستحث فينا الرد عليه برد مُشابِه. وفي نظر رجل يعرف معنى المسئولية ومراعاة المهنة، تُعَد الاحتياطات التي اتخذها إهانة وتحدِّيًا في آن واحد. وبصرف النظر عن الاعتبارات الأخطر، وجدت نفسي تغمُرني سعادة شريرة لأنني أحاول أن أحدِّد مكان هذا المخبأ، حيث يرميني السيد فايس بابتسامات فيها تحدٍّ مطمئن، وأنا لم أضيع أي وقت ولم أدَّخر أي جهد في إعداد نفسي للمغامرة. فقد استخدمت العربة التي حملتني من منطقة تيمبل إلى كينينجتون لين بمثابة اختبار تمهيدي للجهاز الصغير الذي أعطاني إياه ثورندايك. فطول هذه الرحلة القصيرة، راقبت البوصلة عن كَثَب، ودوَّنت ما أحسست به من تضاريس الطريق وأصواته، ودوَّنت عدد خطوات الحصان. وكانت النتيجة مشجعة للغاية. صحيح أن إبرة البوصلة كانت تتذبذب كثيرًا تبعًا لاهتزازات العربة، ولكن لا يزال هذا التذبذُب يَحدث حول نقطة محدَّدة وهي الاتجاه التقريبي، وتبين لي أن البيانات التي تعطيني إياها يمكن الاعتماد عليها إلى حد مقبول. وبعد هذه التجربة الأوَّلية، لم يكن لديَّ أدنى

شكٍّ في قُدرتي على رسم مخطط مسارٍ واضح إلى حدٍّ ما، إذا أُتيحت لي الفرصة لممارسة مهارتي.

لكنني أشعر أن الفرصة لن تسنح. فالسيد فايس لم يفِ بعدُ بوعده لي بأن يُرسل في طلبي في أقرب وقت. مرت ثلاثة أيام ولم تصلني أي إشارة. بدأت أخشى من أنني ربما تحدَّثت بصراحة مبالغ فيها، وخشيت أن تكون العربة المغلقة قد ذهبت للبحث عن طبيب أوثق وألين في التفاهم، وأن استعداداتنا المتقَنة باتت بلا جدوى. وعندما اقترب اليوم الرابع من نهايته ولم يصِلْني أي استدعاء، هيَّأت نفسي على مضض كي أشطب على القضية وأعدها فرصة ضائعة.

وفي تلك اللحظة، وفي وسط أسفي، أقحم الرسول رأسه فجأة من الباب. كان صوته أجشَّ ونبرته غير سارَّة، تراكيبه النحوية دون المستوى، لكنني عفوت عن كل هذا حين فهمت أهمية رسالته.

«عربة السيد فايس في انتظارك، ويطلب منك أن تأتي بأسرع ما يمكن؛ لأن المريض أصيب بنوبة حادة للغاية هذه الليلة.»

اندفعت من كرسيِّي وجمعت الأغراض الضرورية من أجل الرحلة سريعًا. وضعت اللوح الصغير والمصباح في جيب مِعطَفي، وعدلت حقيبة الطوارئ، وأضفت إلى محتوياتها زجاجةً من برمنجنات البوتاسيوم ربما أحتاج إليها. ثم وضعت الجريدة المسائية تحت إبطي وخرجت.

أمسك السائق — حيث وجدته واقفًا عند رأس الحِصان حين خرجت — بقُبعته، وتقدَّم كي يفتح الباب.

علَّقت وأنا أُبرز الجريدة حين دخلت إلى العربة: «لقد استعددت لرحلة طويلة كما ترى.»

قال: «لكن لا تستطيع القراءة في الظلام.»

أخرجت المصباح وأشعلت عود ثقاب، قلت: «أجل، ولكني جلبت معي مصباحًا.»

راقبَني حين أضأت المصباح وعلقته في المسند الخلفي، علَّق قائلًا:

«كأنك وجدت الرحلة مُملَّة في المرة السابقة. إنه طريق طويل نوعًا ما. يجدر بهم أن يُزوِّدوا العربة بمصباح داخلي. ولكن سنضطر إلى الإسراع هذه الليلة. يقول السيد المحترم إن السيد جريفز أُصيب بنوبة حادة غير عادية.»

حينئذٍ أغلق الباب جيدًا. وسحبت اللوح من جيبي ووضعته على ركبتي ونظرت في الساعة، وصعد السائق إلى مقعده، ودوَّنت القيد الأول في الدفتر الصغير.

«٨:٥٨ غربًا ثم جنوبًا. البداية من المنزل. ١٣ خطوة من أرجل الحصان الأمامية.»

في أول حركة من العربة حين بدأت الرحلة، استدارت وكأنها تتجه إلى نيوينتون باتس، وبناءً على ذلك دوَّنت القيد الثاني:

«٨:٥٨:٣٠. شرقًا ثم شَمالًا.»

لكننا لم نمكث في هذا الاتجاه طويلًا. فسرعان ما اتجهنا نحو الجنوب ثم إلى الغرب ثم نحو الجنوب مرة أخرى. جلست وعيناي مُثبَّتتان على البوصلة، حيث تتتبَّع تغيراتها السريعة بقدر من الصعوبة. فقد كانت الإبرة تتأرجح يَمنة ويَسرة، ولكنها ما برِحت تتأرجح ضمن قوس محدد، ومركز القوس هو الاتجاه الصحيح. ولكن هذا الاتجاه يختلف من دقيقة إلى أخرى بطريقة محيرة. ظلَّت الإبرة تتجه في كل الاتجاهات والعربة تنعطف حتى تعذَّر عليَّ معرفة الاتجاه. كانت حركة البوصلة غريبة. بالنظر إلى أن السائق يسابق الزمن بالعربة في مهمَّة عاجلة ومسألة حياة أو موت، فقد حيرني عدم اكتراثه للاتجاهات. ولا بد أن السَّير المتعرِّج قد ضاعف طول الطريق مقارنةً بالسير المستقيم. هذا ما بدا لي على الأقل، على الرغم من أنني — بطبيعة الحال — لم أكن في وضعٍ يسمح لي بتقديم نقد خبير.

وعلى قدر ما يتراءى لي، فقد تبِعنا المسار الذي تبعناه المرة السابقة. فبمجرد أن سمعتُ صافرة زورق القطر، علمت أننا على مقربة من النهر، ومررنا بالقرب من محطة السكك الحديدية، ومن الواضح أننا فعلنا ذلك في الوقت نفسه مثل المرة السابقة؛ حيث إنني سمعت قطار الركاب يبدأ رحلته، وأحسبه هو القطار نفسه. عبرنا عددًا لا بأس به من الطرق الرئيسية ذات خطوط الترام — لم أكن أعلم أنه يوجد العديد منها — وقد تكشَّف لي مدى كثرة أقواس السكك الحديدية في هذا الجزء من لندن ومدى تغير طبيعة أسطُح الطُّرق.

لم تكن الرحلة مملَّةً بأي حال من الأحوال هذه المرة. فالتغيرات المستمرة في الاتجاهات والاختلافات في طبيعة الطريق شغلتني كثيرًا، بحيث لا أكاد أدوِّن قيدًا حتى أجد إبرة البوصلة تتأرجح بشدة، ما يدل على أننا اتخذنا منعطفًا آخر، وقد فوجئت كثيرًا حين أبطأت العربة وانعطفت إلى طريق مسقوف. وبسرعة دوَّنت القيد الأخير («٩:٢٤. جنوب شرقي. في طريق مسقوف»)، وأغلقت الدفتر ووضعته هو واللوح في جيبي، ولم أكد أفتح

الجريدة حتى فُتح باب العربة، وبناءً على ذلك فككت المصباح وأطفأته ووضعته في جيبي أيضًا، وفكرت في أنه قد يفيدني فيما بعد.

كما في المرة السابقة، وقفت السيدة شاليبام عند الباب المفتوح ومعها شمعة مشتعلة. لكنها بدت أقل تمالُكًا لنفسها هذه المرة. بل بدا عليها الجزَع والرعب في الحقيقة. وعلى الرغم من ضوء الشمعة الخافت، فإني أرى شحوب بشرتها وعدم قدرتها على البقاء ساكنة. حين أخبرتني ببعض التفاصيل المهمة، ما فتِئَت تتململ، وظلَّت ترتعش يداها وقدماها.

قالت: «هلُمَّ معي في الحال. فحالة السيد جريفز سيئة للغاية هذه الليلة. ولن ننتظر مجيء السيد فايس.»

ومن دون أن تنتظر الرد، هُرعت إلى السلم وكنت أنا في عقِبها. وجدت الغرفة على الحالة التي كانت عليها في المرة السابقة. ولكن لم يكن المريض على الحالة نفسها. وبمجرد أن دخلت الغرفة، أعطتني قرقرةٌ ناعمة وإيقاعية من السرير إنذارَ خطر واضح تمامًا. حينئذٍ تقدَّمت بسرعةٍ ونظرت إلى طريح الفراش وإذا بالخطر يتأكد لديَّ. أمسى وجه المريض المخيف أكثر رُعبًا، وغارت عيناه داخل محجرَيهما، وزاد شحوب بشرته، «باتَ أنفه رفيعًا مثل ريشة الكتابة»، وعندما لم أرَه يهذي بما يراه من «المروج الخضراء في الجنة»، فهذا لأن حالته قد تفاقمت إلى ما هو أبعد من ذلك. ولو كانت المسألة مسألة مرض، لقُلت من فوري إنه يحتضر. فحاله لا يوحي إلا بحال رجل شارف الموت. لكن لأني على يقين بأن الحالة تسمُّمٌ بالمورفين، لم أتيقن من قدرتي على انتشاله من فوق حافة الموت التي يتأرجح عليها بشدة.

«هل مرضه شديد؟ هل يحتضر؟»

تحدثَت السيدة شاليبام بصوتٍ منخفضٍ للغاية، ولكن اختلجته نبرة حرص واهتمام. التفتُّ وأنا أضع إصبعي على رسغ المريض ورأيت في وجهها رُعبًا لم أرَه على أحد من قبل. وهذه المرة لم تحاول أن تتحاشى الضوء، ولكنها نظرت في عيني مباشرةً، ولاحظتُ — بحالة شبه لا شعورية — أن عينَيها بُنِّيتان، ورأيت فيهما أثر إجهاد غريب.

أجبتها: «نعم، إن مرضه شديد. ويُحدق به خطر عظيم.»

لم تُزِح ناظرها عني لبضع ثوانٍ. ثم حدث شيء غريب. فجأة، احولَّت عيناها حوَلًا مخيفًا، إنه ليس الحوَل التقارُبي المألوف الذي يُقلده ممثلو الكوميديا، ولكنه الحوَل إلى الخارج، أو التباعُدي، المصاحب لِقصر النظر أو الرؤية غير المتوازنة. وقد احترت في هذه

النظرات. ففي لحظةٍ تنظُر إليَّ بعينَيها كلتَيهما، وفي اللحظة التالية تدور إحدى عينَيها حتى تنظر إلى الركن البعيد وتترك العين الأخرى تُحدق فيَّ مباشرةً.

من الواضح أنها تُدرك هذا التغير؛ حيث إنها أدارت رأسها بعيدًا عني بسرعة واحمرَّ وجهها بعض الشيء. ولكن لم يكن ثمة وقت للتفكير في المظهر الشخصي.

«يجب أن تُنقذه أيها الطبيب! أرجوك لا تدعه يموت! يجب ألَّا يموت!»

كانت تتحدث بحُرقة وكأنه أعز صديق لديها في هذه الدنيا، لدرجة أني شككتُ في أن هذا كله ليس حقيقيًّا. لكن رعبها الظاهر كان له فائدة.

قلت: «أي شيء ضروري لإنقاذه لا بد أن يحدث بسرعة. سأعطيه بعض الأدوية في الحال، ولكن يجب أن تعدِّي قهوة مُركَّزة.»

تعجبَت: «قهوة! ولكن لا يوجد بنٌّ في المنزل. هل يُغني الشاي إذا أحضرته ثقيلًا؟»

«لا، لن يُغني عن القهوة. يجب تحضير القهوة، ولا بد أن يؤتى بها بسرعة.»

«إذن، يجب أن أذهب وأشتريَ بعض القهوة. ولكن الوقت متأخر. وستكون المتاجر مغلقة. ولا أحب أن أترك السيد جريفز.»

سألتها: «هل يمكن إرسال السائق؟»

هزت رأسها إشارة على نفاد صبرها. «لا، هذا غير ممكن. يجب أن أنتظر حتى يأتي السيد فايس.»

قلت بحدة: «هذا لن يجدي نفعًا. سيتفلت من بين أيدينا ما دُمتِ تنتظرين. يجب أن تذهبي وتُحضري هذه القهوة على الفور وتأتيني بها بمجرد أن تصبح جاهزة. وأريد قَدَحًا وبعض الماء.»

أحضَرَت زجاجة مياه وكوبًا من فوق منضدة الغسيل، ثم أسرعت بالخروج من الغرفة وهي تئنُّ قانطة.

لم أضيع الوقت وأعطيته العلاج المتاح لديَّ. أفرغت بضع بلورات من برمنجنات البوتاسيوم في الكأس وملأتها بالماء وقربتها من المريض. كان سُباته عميقًا. هززته بقوة بقدر ما تسمح به حالته البائسة، ولكن لم أجِد أي مقاومة أو ردة فعل. ولما شككت في قدرته على البلع، لم أتجرأ وأُخاطر بسكب السائل في فمه خشية أن يختنق. ولو توفَّر أنبوب معد، لحُلَّت المشكلة، ولكن ليس معي واحد بالطبع. كان معي منظار فَمَوي واستخدمته مكان موسِّع الفم، وعندما فتحت فم المريض به، أسرعت وخلعت أنبوبًا مطاطيًّا من سماعتي الطبية، وأدخلت أحد طرفيه في منظار أُذُن ليكون بمثابة قِمع. ثم

أدخلت الطرف الآخر في المريء بقدر ما يسمح طوله، واتخذت حذري وأنا أسكب كمية صغيرة من محلول البرمنجنات في القمع المؤقت. شعرت بغمرة من الراحة حين أظهرت حركة الحلق أن منعكس البلع لا يزال موجودًا؛ ومن ثَم تشجعت وسكبت في الأنبوب كمية من المحلول بمقدار ما رأيته آمنًا للأخذ في المرة الواحدة.

جرعة البرمنجنات التي أعطيتها له تكفي لتحييد أي كمية كبيرة من السُّم، الذي ربما لا يزال موجودًا في مَعِدته. بعد ذلك، توجَّب عليَّ التعامل مع كمية العقَّار التي امتُصَّت بالفعل وأصبح لها آثار سُمية. عندما أخرجت علبة الحقن تحت الجلد من حقيبتي، جهزت المحقنة بجرعة كاملة من كبريتات الأتروبين، وعلى الفور حقنتُ بها ذراع الرجل الفاقد الوعي. وهذا كل ما وسِعني فعله فيما يتعلَّق بالعلاجات حتى وصلت القهوة.

نظفت المحقنة ونحيتها جانبًا، وغسلت الأنبوب، ثم عندما عدت إلى جانب السرير، حاولت أن أوقظ المريض من نعاسه العميق. ولكن توجَّب الحذر كثيرًا. فقليل من التعامل الخشن غير المدروس قد يوقف هذا النبض الضعيف الواهن إلى الأبد، ولكن من المؤكد أن عدم الاستيقاظ في أسرع وقت قد يُعمِّق النعاس حتى ينتهي به المآل إلى الموت من دون أن يشعر. ولذا شرعت في عملي بحرص بالغ، وبدأت أحرك أطرافه وأمسح وجهه وصدره بطَرَف منشفة مبلَّلة، وأدغدغ أخمص قدمه، وكذلك أمارس بعض المحفِّزات القوية دون العنيفة.

لقد انشغلت بإنعاش مريضي الغامض، لدرجة أني لم ألاحظ أن الباب مفتوح، وفي البداية عندما نظرت حولي، أدركت أنه يوجد ظل رجل في الطرف البعيد من الغرفة، تميزه بُقعتا ضوء خافت تنعكسان من نظارته. لا أعلم منذ متى وهو يُراقبني، ولكن حين أدرك أني رصدته، تقدم نحوي ورأيت أنه السيد فايس، على الرغم من أنه لم يكن بعيدًا بمسافة طويلة.

قال: «لعلك وجدت صديقي بخير الليلة.»

تعجبت: «بخير! لم أجده بخير على الإطلاق. أنا قلِق عليه إلى أقصى حد.»

«أرجو أنك ... إمممم ... لا تترقب أي شيء ... إمممم ... أي شيء خطير.»

قلت: «لا حاجة إلى الترقُّب، فحالته من أخطر ما يكون. وأظن أنه قد يموت في أي لحظة.»

قال لاهثًا: «الرحمة يا رب! إنك تُرعبني!»

لم تكن مبالغة منه. وفي خضم هياجه، تقدم إلى بُقعة أكثر إضاءة في الغرفة، ورأيت وجهه شاحبًا شُحوبًا مخيفًا، باستثناء أنفه وبُقع حمراء متاخمة لأنفه في خدَّيه، ما أحدث تبايُنًا شنيعًا وغريبًا في بشرته. لكن سرعان ما استعاد رباطة جأشه قليلًا وقال:

«أرى حقًّا — أو على الأقل أرجو — أنك تعتبر حالته خطيرة من دون داعٍ. فهكذا كانت حالته من قبل، كما تعلم.»

شعرت يقينًا بأن حالته لم تكن كذلك، ولكن ليست ثمة فائدة من مناقشة الأمر. ولذا رددت وأنا أحاول جهدي أن أوقظ المريض:

«قد يكون كما قلتَ وقد لا يكون. ولكن لكل شيء نهاية، وربما تكون هذه آخر فرصةٍ له في الحياة.»

قال: «أرجو ألَّا تكون الأخيرة، على الرغم من أنني أعلم أن هذه الحالات دائمًا ما تنتهي بالموت سواء أكان عاجلًا أم آجلًا.»

سألته: «ماذا تقصد بالحالات؟»

«أقصد مرض النوم، ولكن يبدو أنك ترى رأيًا آخر بشأن طبيعة هذه الشكوى المخيفة.»

ترددت للحظات، وأردف هو قائلًا: «بالنسبة إلى اقتراحك بأن الأعراض ربما تكون ناتجة عن تناول عقَّارات، فأظن أنه يمكننا نبذ هذا الاقتراح. فقد وضعته تحت المراقبة على مدار الساعة عمليًّا منذ قدومك المرة السابقة، غير أنني فتشت الغرفة بنفسي وفتشت في الفراش ولم أجد أي أثر لأي عقَّار. هل بحثت في المصادر عن مرض النوم؟»

نظرت إلى الرجل شَزْرًا قبل أن أجيبه، وحينئذٍ ازدادت شكوكي فيه أكثر من ذي قبل. ولكن هذا الوقت ليس مناسبًا للتراجُع. فقد كان المريض واحتياجاته الحالية هما كل همي. فكما قال ثورندايك، أنا في نهاية الأمر طبيب ولست مُحققًا، والظروف تطلبت الكلام المباشر والعمل من جانبي.

قلت: «أجل اطَّلعت على المصادر وتوصلت إلى نتيجة حاسمة. هذه الأعراض ليست ناجمة عن مرض النوم. وأرى أنها تسمم بالمورفين بلا شك.»

صاح: «ولكن سيدي هذا الأمر مستحيل! ألم أُخبرك أنه وُضع تحت المراقبة على مدار الساعة؟»

أجبته: «أنا لا أحكم إلا بالأعراض التي تراها عيني»، وعندما رأيته يهمُّ بالاعتراض مجددًا، أردفت: «لا تُهدر وقتنا الثمين وإلا فقد يموت السيد جريفز من قبل أن نصل إلى

نتيجة. أرجو أن تعجِّل إحضار القهوة التي طلبتها منذ وقت ريثما أتخذ بعض الإجراءات الضرورية، فربما نتمكن من إفاقته.»

من الواضح أن أسلوبي الفظ أخافه. فلا بد أنه بات واضحًا لديه أنني لست مستعدًّا لقبول أي تفسير لحالة فقدان الوعي لدى المريض غير التسمُّم بالمورفين، ومن هنا أَمسى الاستنتاج واضحًا أن البدائل إما الشفاء وإما التحقيقات. ولما أغلظت عليه في الرد بأنني «يجب أن أفعل ما أراه الأفضل»، أسرع خارجًا من الغرفة، وتركني أواصل جهودي دون مزيد من المقاطعة.

مكثتُ بعض الوقت وأنا لا أرى ثمرة لهذه الجهود. فالرجل يرقد ساكنًا وفاقدًا للحس والوعي، ولا يفرقه عن الجثة الهامدة سوى النفس البطيء والصعب وغير المنتظم، والحشرجة المنذِرة بالسوء المصاحبة له. لكن بعد لحظات، بدأت علامات الإفاقة في الظهور بدرجات ضئيلة للغاية. وبصَفعة قوية بالمِنشفة المبللة على الخد تفتحت الجفون بقدر معقول، وبضربة مثلها على الصدر صدرت شهقة خفيفة. وبتحريك القلم على باطن القدم رصدت حركة انكماش واضحة، وبفحص العين مرة أخرى، اكتشفت تغيرًا طفيفًا عَرَفت منه أن مفعول الأتروبين قد بدأ.

هذه العلامات مشجعة للغاية ومُرضِية إلى حد كبير، على الرغم من أن الوقت لا يزال باكرًا على الفرح. أبقيت المريض مُغطًّى بعناية واستمررت في عملية استثارة نشاطه برفق، وتحريك أطرافه وكتِفَيه، وتمشيط شعره، وتحفيز حواسِّه المخدَّرة بمحفِّزات بسيطة ولكن مستمرة. وبمتابعة هذا العلاج، استمرَّ التحسُّن كثيرًا لدرجة أنه لما صرخت بسؤال في أذنه فتح عينيه للحظة، ولكن في لحظة أخرى، عادت جفونه إلى موضعها السابق.

بعد هذا التحسُّن بفترة وجيزة، دخل السيد فايس إلى الغرفة مرة أخرى، وتبعَته السيدة شاليبام وهي تحمل صينية صغيرة وضَعَت عليها جرة بُن وجرة لبن وفنجانًا وصحنَ فنجان وعلبة سُكر.

سأل السيد فايس بتوتر: «كيف حاله الآن؟»

رددت: «يُسعدني أن أقول إن هناك تحسنًا ملموسًا. لكن يجب علينا أن نُثابر. وعلى أي حال، فقد زال الخطر الآن.»

تفحَّصت القهوة، ورأيت لونها الغامق وشممت رائحتها النفاذة والمطَمْئنة، وسكبت نصف فنجان واقتربت من الفراش.

صرخت: «أريدك أن تشرب بعض القهوة الآن يا سيد جريفز.»

ارتفع الجَفنان المرتخيان للحظات، ولكن لم تكن ثمة استجابة أخرى. فتحت فمه برفق ولم أتلقَّ أي مقاومة، وسكبت فيه مِلعقَتَين من القهوة، وسرعان ما ابتلعهما، وبناءً على ذلك كررت هذا الإجراء، واستمررت فيه على فترات قصيرة حتى فرغ الفنجان. وسرعان ما ظهر تأثير الدواء الجديد. ثم بدأ يغمغم ويتمتم بكلمات غير مفهومة ردًّا على أسئلتي التي كنت أصرخ بها في أُذنه، وقد فتح عينيه مرة أو مرتين ونظر إلى وجهي حالمًا. بعد ذلك أجلسته وسقَيته القهوة من الفنجان، ولم أتوقف طيلة الوقت عن طرح سيل من الأسئلة التي أحدثت كمًّا من الضوضاء، غير أنها افتقرت إلى ترابط بعضها ببعض.

ومع هذه الإجراءات، وقف السيد فايس ومدبرة شئون منزله يُراقبان باهتمام كبير، وتقدم السيد فايس — على غير عادته — من السرير كثيرًا كي يرى بوضوح أكبر.

قال: «هذا تحسُّن كبير حقًّا، ولكن يبدو أنك أصبت في النهاية. فلا ريب أن حاله أفضل بكثير. ولكن أخبرني، هل سيؤدي هذا العلاج إلى تحسن ملحوظ مثل الآن إذا كانت الأعراض ناجمة عن مرض النوم؟»

أجبته: «لا، بالتأكيد لن يؤدي.»

«وكأن هذا العلاج قد حل المشكلة. ولكنها أكبر مسألة غامضة. هل عندك أي فكرة عن الطريقة التي ربما أخفى بها خزانة العقاقير؟»

قمت ونظرت في وجهه مباشرةً؛ إنها الفرصة الأولى التي أتيحت لي كي أتفحص وجهه بأي وسيلة غير الضوء الخافت؛ ومن ثَم نظرت إليه باهتمام بالغ. والآن، إنها حقيقة غريبة أن يكون هناك فاصل زمني طويل بين استقبال الانطباع البصري ونقله بالكامل إلى الوعي، على الرغم من أن هذه الحالة لا بد أن كثيرين لاحظوها. فالشيء يمكن رؤيته من دون وعي وسرعان ما يختفي على ما يبدو من الذاكرة، ولكن يمكن استرجاع الصورة كاملة من الذاكرة ودراسة تفاصيلها، وكأن الشيء لا يزال في مرمى بصرنا.

لا بد أن شيئًا من هذا القبيل قد حدث لي الآن. وعلى الرغم من انشغالي بحالة المريض، فإن العادة المهنية المتمثِّلة في المراقبة السريعة والدقيقة جعلتني أُلقي نظرة فاحصة على الرجل الذي أمامي. لم تكن سوى نظرة سريعة، ولكن ربما السيد فايس لم تُرِحْه نظراتي الفاحصة له؛ ومن ثَم انسحب من فوره إلى مكان مظلم، ويبدو أن انتباهي توجَّه في المقام الأول إلى التباين الغريب بين شحوب وجهه وحُمرة أنفه، وإلى شعر حاجبيه الخشن.

ولكني لاحظت حقيقة أخرى بالغة الغرابة، وقد لاحظتها من دون وعي ونُسيَت على الفور، ولكني تذكرتها مرة أخرى حين تفكرت فيما حدث هذه الليلة. الحقيقة هي:

عندما وقف السيد فايس مُميلًا رأسه بعض الشيء، تمكنت من النظر عبر عدسة النظارة إلى الحائط الذي خلفه. رأيت على الحائط رسمة ذات إطار، ويبدو أن حافة الإطار — حسبما رأيت من عدسة النظارة — لم تُمس ولم يصبها تشويه أو تصغير أو تكبير، وكأني أراها من زجاج نافذة عادي، لكن انعكاسات لهب الشمعة في النظارة أظهرت اللهب مقلوبًا، ما يعطي إثباتًا قاطعًا أن النظارة يوجد بها على الأقل عدسة واحدة مُقعَّرة. لم تستمر هذه الظاهرة الغريبة أمامي أكثر من لحظة أو لحظتين، وحين غابت عن ناظرَيَّ، غابت من عقلي أيضًا.

ردًّا على السؤال الأخير، أجبته: «لا، ليس عندي فكرة عن الطريقة التي ربما أخفى بها خزانة المورفين على نحو فعَّال. وبناءً على الأعراض، فقد تناول جرعة كبيرة، وإذا كان من عادته أن يتناول جرعات كبيرة، فلا بد أن لديه مخزنًا كبيرًا للغاية. وليس عندي أدنى فكرة عن ذلك.»

«هل ترى أن الخطر قد زال الآن؟»

«أوه، كلا على الإطلاق. وفي رأيي أنه يمكننا إبقاؤه مستيقظًا إذا ثابرنا، ولكن لا بد ألَّا يعود إلى حالة الغيبوبة مرة أخرى. لا بد أن نُبقيه يتحرك حتى يزول تأثير العقَّار بالكامل. من فضلك ساعده حتى يلبس منامته، سنسانده كي يتمشى في الغرفة بعض الوقت.»

سأل السيد فايس على وجل: «لكن هل هذا آمن؟»

أجبته: «آمن تمامًا. وأنا سأراقب نبضه عن كثب. الخطر في احتمالية — بل في حتمية — أن ينتكس إذا لم يستمر في الحركة.»

لم يخفَ على وجه السيد فايس عدم رغبته واستنكاره، ولكنه أخرج منامة وساعدته كي نُلبسها للمريض. ثم سحبناه من فوق الفراش وهو يعرج كثيرًا، ولكنه غير مذعِن تمامًا، وأوقفناه على قدميه. فتح عينيه ورمش مثل البومة لأحدنا ثم الآخر، وتمتم بكلمات احتجاج غير مفهومة؛ لم نأبه لها، وأدخلنا قدمَيه في النعلين وحفزناه كي يمشي. في البداية، بدا أنه لا يستطيع الوقوف، واضطررنا إلى إسناده من الذراعَين وحفزناه للسير إلى الأمام، ولكن بعد فترة وجيزة بدأت ساقاه المتثاقلتان تمشيان بحركات محدَّدة، وبعد دورة أو دورتين في الغرفة، لم يتمكن من دعم وزنه جزئيًّا فحسب، بل بدرت منه احتجاجات أقوى، ما دل على بدء استرجاع الوعي.

في هذا الوقت، ذُهلت من السيد فايس حين أعطى الذراع التي يمسكها إلى مدبرة شئون المنزل.

قال: «إذا سمحت لي يا دكتور، سأذهب لأقضي بعض الأعمال المهمة التي تركتها دون أن تكتمل. وستقدم لك السيدة شاليبام كل المساعدة التي تحتاج إليها، وستطلب لك العربة حين ترى أنه بات لا بأس من ترك المريض. وتحسُّبًا لعدم رؤيتك كما في المرة السابقة، أقول لك تصبح على خير. أرجو ألَّا تحسبني فظًّا.»

صافحني وخرج من الغرفة وتركني — كما قلت — مُنذهِلًا من أعماقي؛ لأنه يَعتبر أي عمل في هذه اللحظة أهم من حالة صديقه، الذي كانت حياته على المحك حتى هذه اللحظة. ولكن في الحقيقة هذا ليس من شأني. فأنا يمكنني أن أتدبَّر أمري من دونه، وقد شغلني إنعاش هذا الرجل البائس نصف الميت، لدرجة أنه جذب انتباهي بالكامل.

بدا مستوى الانقباض يعلو ويهبط من جديد في الغرفة، وكذلك الاحتجاجات غير المفهومة من المريض. وبينما نتمشى، ولا سيما عند الانعطاف، لمحت وجه مُدبِّرة شئون المنزل أكثر من مرة. لكن في أغلب المرات كنت أراه من الجنب. وكأنها تتحاشى النظر في وجهي، على الرغم من أنها نظرت فيه مرة أو مرتين، وفي كل مرة كانت عيناها تتجهان نحوي بصورة طبيعية، ومن دون أي علاماتٍ على الحوَل. على الرغم من ذلك، تكوَّن لديَّ انطباع بأن عينَيها تُصابان بالحوَل حين تُدير وجهها بعيدًا عني. كانت «العين الدوَّارة» — وهي اليُسرى — نحوي لأنها تمسك المريض من ذراعه اليمنى، ولا أحسبها نظرت في اتجاه غير اتجاهي، على الرغم من أنني على يقين بأنها تنظر أمامها مباشرةً، ولكن بالطبع لم تكن عينها اليُمنى في مرمى بصري. صدمتني هذه المسألة حتى في ذلك الوقت لأنها مسألة غريبة، ولكن انصب جُل اهتمامي على المهمة التي في يدي، وأَوليتها كثيرًا من تفكيري.

وفي هذه الأثناء، واصل المريض الاستفاقة سريعًا. وكلما زاد مستوى إفاقته، امتلأت احتجاجاته بالطاقة على هذا المشي المضني. ولكن من الواضح أنه كان رجلًا مُهذبًا؛ لأنه على الرغم من اضطراب قدراته، تمكن من أن يُزين اعتراضاته بكلام مهذب ولطيف على نحو فريد، ولا يتفق مع الشخصية التي رسمها لي السيد فايس.

تمتم متثاقلًا: «شكرًا. أتعبتُك. ضَعني على الفراش.» نظر إلى الفراش حزينًا، ولكني الْتفَفتُ به ومشيت به في الغرفة مرةً أخرى. مشى معي من دون مقاومة، ولكنه كرَّر طلبه حين اقتربنا من الفِراش مرةً أخرى.

«كفى، شكرًا. أعِدني. مُمتَنٌّ لكرمك» — وهنا الْتففتُ به — «لا، مُتعَب كثيرًا. أرِحني، من فضلك.»

قلت: «يجب أن تمشي مسافة أطول يا سيد جريفز. ستسوء حالتك كثيرًا إذا نمتَ مرة أخرى.»

رمقني بنظرة فضول وذهول باهت، وتفكر لبعض الوقت وكأنه في حيرة من أمره. ثم نظر إليَّ مرة أخرى وقال:

«غير صحيح، مخطئ ...»

وهنا قاطعَته السيدة شاليبام بنبرة حادة:

«يقول الطبيب الأفضل لك أن تمشي قليلًا. فقد كنت نائمًا منذ فترة طويلة. إنه لا يريدك أن تنام الآن.»

قال المريض: «لا أريد النوم، أريد الاستلقاء.»

«ولكن يجب ألَّا تستلقي ولو لفترة قصيرة. يجب أن تواصل المشي بضع دقائق أخرى. والأفضل ألَّا تتكلم. تمشي وحسب.»

قلت: «الكلام ليس فيه ضرر، بل إنه جيد له. سيساعده الكلام على أن يبقى مستيقظًا.»

قالت السيدة شاليبام: «حسبت أن الكلام يُتعبه، كما أنه يعزُّ عليَّ أن يطلب الاستلقاء في حين أنه لا يمكننا تلبية طلبه.»

تحدثت بنبرة حادة وصوت عالٍ من دون داعٍ، لدرجة أن المريض سمعها. من الواضح أنه استوعب التلميح القوي الذي انطوت عليه الجملة الأخيرة؛ حيث إنه ظل يروح ويغدو في الغرفة صامتًا لبعض الوقت، ولكنه كان مُضجَرًا وغير مستقر، على الرغم من أنه ظل ينظر إليَّ من وقت إلى آخر وكأن مظهري فيه شيء يُحيِّره كثيرًا. بعد مدة، تغلَّبَت رغبته الجامحة إلى الراحة على تأدُّبه وعاد إلى نبرة الهجوم.

«اكتفيت الآن. أرهقني التعب. أنا مُتعَب. من فضلك دعني أستلقِ بضع دقائق.»

سألت السيدة شاليبام: «في رأيك، هل يمكن أن يستلقي لفترة قصيرة؟»

قِستُ نبضه وعلمت أن الإجهاد بدأ ينال منه، والأفضل ألَّا نُفْرِط في الحركة وهو في حالة الوهن تلك. وبناءً على ذلك، وافقت على رجوعه إلى الفراش واتجهت به صوبه، وحينئذٍ ترنَّح فرحًا إلى مكان راحته مثل خيل مُتعَب وفي طريقه إلى إسطبله.

بمجرد أن بلغ الفراش، سقيتُه فنجان قهوة، وقد شربها ببعض الشَّره وكأنه عطشان. ثم جلست على جانب الفراش، وحتى أُبقيه مستيقظًا، انهلت عليه بسيل من الأسئلة مرة أخرى.

سألت: «هل رأسك يؤلمك يا سيد جريفز؟»

«يسألك الطبيب هل رأسك يؤلمك؟» صاحت السيدة شاليبام بصوت عالٍ لدرجة أن المريض بدأ الكلام واعيًا.

أجاب وعلى شفتيه ابتسامة خافتة: «سمعته يا عزيزتي. تعلمين، لست أَصَمَّ. نعم. رأسي يؤلمني كثيرًا. لكن أحسب أن الرجل مخطئ ...»

«يقول يجب أن تبقى مستيقظًا. يجب أَلَّا تنام مجددًا، وألَّا تُغمض عينيك.»

«حسنًا يا بولن. سأُبقيهما مفتوحتَين»، وبدأ من فوره يُغمضهما وفيهما مسحة من الهدوء اللامتناهي. حينئذٍ أمسكتُ يده وهززتها برفق؛ ومن ثَم فتح عينيه ونظر إليَّ والنُّعاس يُداعبهما. ربتَت مدبرة شئون المنزل على رأسه، وما برحت تحيدُ جانب وجهها عني، وعلى حد ظني أنها تفعل ذلك دومًا كي تُخفي عني حوَل عينها، وقالت:

«هل ثمة داعٍ لمكوثك هنا مدة أطول أيها الطبيب؟ الوقت يتأخر وطريقك طويل.»

نظرتُ إلى المريض مُرتابًا. وكرهتُ أن أتركه؛ لأنني لا أثق في هؤلاء الناس. لكن عندي عمل في الغد، وربما زيارة أو زيارتان في المساء، كما أن قدرات تحمُّل الطبيب لها حدود.

أردفت السيدة شاليبام: «أظن أنني سمعت العربة منذ مدة.»

نهضت مترددًا ونظرت في ساعتي. ووجدت أنها الحادية عشرة والنصف.

قلت بصوت منخفض: «هل تفهمين أن الخطر لم يزُل بعدُ؟ وإذا تُرك الآن فسينام مرة أخرى، ولن يستيقظ مهما حاولنا. هل تعينَ ما أقول؟»

«أجل أعي جيدًا. وأعدك أني لن أتركه ينام مرة أخرى.»

بينما تتحدث، توجهت إليَّ بوجهها كاملًا للحظات، ولاحظت أن عينيها طبيعيتان تمامًا ولا أثر للحوَل فيهما.

قلت: «حسن جدًّا. بناءً على ذلك سأغادر الآن، وأرجو أن أجد صديقنا وقد تعافى تمامًا في زيارتي القادمة.»

التفتُّ إلى المريض وقد بدأ يغفو؛ ومن ثَم صافحته بقوة.

قلت: «مع السلامة يا سيد جريفز. أنا آسف لأنني اضطرِرتُ إلى إزعاج راحتك كثيرًا؛ ولكن يجب عليك أن تبقى مستيقظًا كما تعلم. يجب أَلَّا تنام.»

رد والنعاس في عينيه: «حسن جدًّا. أعتذر لأني أتعبتك. سأبقى مستيقظًا. ولكن أظنك مخطئًا ...»

«يقول الطبيب إنه يجب ألَّا تنام الآن، ويجب أن أحرص على ذلك. هل تفهم؟»

«أجل. ولكن لماذا هذا الرجل ...؟»

قالت السيدة شاليبام مداعبةً: «لا فائدة الآن من طرح الكثير من الأسئلة، سنتحدث غدًا. طابت ليلتك أيها الطبيب. سأُضيء لك السلم، ولكن لن أنزل معك لئلَّا ينام المريض مرة أخرى.»

أخذت كلامها على محمل الطرد الصريح وغادرت، وأعقب ذلك نظرة ذهول حالمة من المريض. أمسكت مدبِّرة شئون المنزل الشمعة من فوق الدرابزين حتى وصلت إلى بداية السلم، وحينئذٍ لمحت وهج ضوء من مصابيح العربة من خلال الباب المفتوح عند نهاية الطرقة. وجدت السائق منتظرًا عند الباب بالخارج، ولا يكاد يُتعرَّف عليه في ضوء المصباح الخافت، وحين دخلتُ العربة تعجب بلكنته الاسكتلندية «وكأني سأقضي الليل كله هنا.» لم ينتظر الرد، بل لم تكن ثمة ضرورة للرد، فقد أغلق الباب جيدًا.

أضأتُ المصباح الجيبي وعلقته في المسند الخلفي. ثم أخرجت اللوح والدفتر من جيبي. ولكني رأيت أن لا حاجة إلى تدوين ملاحظات جديدة، والحق أني تكاسلت عن هذه المهمة؛ فقد تعبت بعد الجهود الأخيرة، كما أنني أردت التفكير في أحداث هذه الليلة وهي لا تزال عالقة في ذهني. وبناءً على ذلك، وضعت الدفتر جانبًا، وملأت غليوني وأشعلته، ووطَّأت نفسي كي أسترجع الأحداث التي شهدتها في الزيارة الثانية إلى هذا المنزل الغريب.

باسترجاع ما حدث في هذه الزيارة على مهل، نجد أنفسنا أمام عدد من الألغاز التي تحتاج إلى أن يُكشف عنها. ومن هذه الألغاز حالة المريض. فقد تبددت كل الشكوك بشأن سبب الأعراض بعد رؤية تأثير الترياق. بالتأكيد كان السيد جريفز تحت تأثير المورفين، والإشكالية الوحيدة هي كيف وصل إلى هذه الحالة. ففرضية أنه تجرع السم بنفسه غير منطقية. مدمن المورفين لا يتناول هذه الجرعة المميتة. وبتُّ على يقين أن شخصًا آخر سقاه السُّم، ووفقًا لما ظهر من السيد فايس، فليس هناك أحد يمكن أن يسقيه السُّم غيره هو ومدبرة شئون المنزل. كذلك كل الملابسات الغريبة الأخرى تشير إلى هذا الاستنتاج.

ماذا كانت هذه الملابسات؟ كما قلت، إنها كثيرة، وإن كان العديد منها يبدو تافهًا. بادئ ذي بدء، فعادة ظهور السيد فايس بعد وصولي ببعض الوقت واختفائه قبل مغادرتي ببعض الوقت؛ لا شك أنها عادة غريبة. والأغرب رحيله المفاجئ هذه الليلة،

وكأن السبب الذي ذكره ليس سوى ذريعة. وقد تزامن هذا الرحيل مع استعادة المريض قدرته على الكلام. هل خشِي السيد فايس من أن يقول الرجل شبه الواعي شيئًا يفضحه في وجودي؟ يبدو أن الأمر كذلك. لكنه رحل وتركني مع المريض ومدبرة شئون المنزل.

وحين فكرت في الأمر، تذكرت أن السيدة شاليبام ظهر عليها بعض القلق، لدرجة أنها منعت المريض من الكلام. فقد قاطعته أكثر من مرة، وتدخلت مرتين حين بدا منه أنه على وشك أن يطرح بعض الأسئلة. ذكر المريض أنني «مخطئ» بشأن شيء ما. فما الشيء الذي أراد أن يخبرني به؟

وما استغربته أن المنزل لا توجد به قهوة، بل توجد به كمية وفيرة من الشاي. ومعروف عن الألمان أن من عاداتهم احتساء القهوة وليس الشاي. ولكن قد لا يكون ثمة غرابة في ذلك. بل إن الأغرب هو عدم وجود سائق العربة. لماذا لم يُرسَل لإحضار القهوة، ولماذا لا يحلُّ هو محلَّ السيد فايس حين يغيب بدلًا من مدبرة شئون المنزل؟

ثمة أمور أخرى تبادرت إلى ذهني. تذكرتُ كلمة «بولن» التي نادى بها السيد جريفز مدبرةَ شئون المنزل. من الواضح أنه اسم مسيحي، ولكن لماذا ناداها السيد جريفز باسمها المسيحي في حين أن السيد فايس يناديها باسمها الرسمي وهو السيدة شاليبام؟ وهذه المرأة نفسها، ما الذي يوحي به هذا الحوَل الغريب الذي يختفي؟ من الناحية العضوية، فهو لا ينطوي على أي سر. فالمرأة تُعاني حوَلًا تباعُديًّا عاديًّا، ومثل العديد من المصابين بهذا الانزياح في حدقة العين، فإنه يمكن إعادة العين إلى وضعها الطبيعي المتوازي بجهد عضلي كبير. وقد اكتشفت هذا الانزياح حين حاولت الحفاظ على هذا الجهد فترة طويلة، وتفلتت منها قدرتها على التحكم العضلي. ولكن لماذا فعلت ذلك؟ هل كان مجرد غرور أُنثوي، أم مجرد حساسية تجاه تشوُّه شخصي طفيف؟ ربما كانت المسألة كذلك، أو ربما وراءها دافع آخر. لا يسعني معرفة ذلك.

بينما أتفكر في هذا السؤال، تذكرت فجأة السمات الغريبة بنظارة السيد فايس. وهنا قابلتني مشكلة محيرة. فحين نظرت من خلال هذه العدسات، كانت الرؤية واضحة وكأني أنظر من خلال زجاج نافذة عادي، ولا شك أنها أعطت انعكاسًا مقلوبًا للهب الشمعة، مثل الانعكاس الذي يُرى من سطح عدسة مقعرة. لكن ليس خفيًّا استحالة أن تكون العدسة مُسطَّحة ومُقعَّرة في آن واحد، ولكن النظارة فيها خصائص لكل من العدستَين المسطَّحة والمقعَّرة. ثمة مشكلة أخرى. بما أني تمكنت من رؤية الأجسام من دون تغيير عبر هذه العدسة، فلا بد أن الأمر نفسه ينطبق على السيد فايس. لكن وظيفة

النظارة أن تغير مظهر الأجسام، إما بالتكبير وإما بالتصغير وإما بتعويض ضبابية الرؤية. وما دامت لا تغير في مظهر الأجسام، فلا فائدة من استعمالها. لم أستطع التوصل إلى استنتاج. بعد التفكير المضني في هذه المسألة، نبذتها من عقلي، وما رأيت مَضضًا في ذلك؛ حيث إن نظارة السيد فايس ليس لها تأثير قوي في القضية.

حين وصلتُ إلى المنزل، نظرت في صندوق الرسائل على وَجَل، ولكني ارتحت حين لم أجد مزيدًا من الزيارات التي ينبغي القيام بها. وبعدما أعددت الخليط للسيد جريفز وناولته سائقَ العربة، كوَّمت رمادَ المدفأة في غرفة الكشف، وجلست أدخن آخر غليون وأنا أتفكَّر مرة أخرى في هذه القضية الفريدة والغريبة التي جُرَّت قدمي إليها. ولكن سرعان ما قطع الإرهاق حبل هذه التأملات، وحين توصلت إلى أن هذه الأحداث تتطلب التشاوُر مرة أخرى مع ثورندايك، خفضت ضوء المصباح الغازي حتى أَمسى مجرد شرارة زرقاء وأويت إلى فراشي.

الفصل الرابع

الرأي الرسمي

استيقظت في صبيحة اليوم التالي، وأنا لا أزال عازمًا على تهيئة فرصة في أثناء اليوم كي ألتقي ثورندايك، وألتمس مشورته بشأن السؤال الذي بات مُلِحًّا؛ وهو: ما الذي ينبغي لي أن أفعله؟ وتعمدت استخدام كلمة «مُلحًّا» لأن أحداث الليلة الماضية غرست فيَّ قناعة راسخة بأن السُّم أُعطي لمريضي الغامض لغرض ما، وما ينبغي لنا أن نضيع الوقت إذا أردنا إنقاذه. فقد نجا البارحة وهو على مَشارف الموت — على افتراض أنه لا يزال على قيد الحياة — فقط بسبب موقفي الحازم غير المتوقَّع، الذي أجبر السيد فايس على الرضوخ إلى إجراءات الإنعاش.

لا أرى أملًا في أن أُدعَى إلى هناك مرة أخرى. وإذا صحت شكوكي القوية، فأظن أن السيد فايس سيستدعي طبيبًا آخر على أمل أن يُحالفه الحظ، ولا بد من إيقافه قبل فوات الأوان. قد رأيت هذا الرأي، ولكنني عزمت على أن آخذ رأي ثورندايك وأتصرف بناءً على توجيهاته، ولكن كما قيل:

«مهما بلغ حُسن التدبير، فقد تأتيك الرياح بما لا تشتهيه.»

عندما نزلت إلى الطابق السفلي، فوجئت حين ألقيت نظرة مبدئية على دفتر المواعيد غير المنظَّم المعهود به إلى المساعد، أو إلى الخادمة حين يكون غائبًا. فقد رأيت أن قيود الفترة الصباحية تشبه صفحة من دليل مكتب البريد. فالاتصالات الجديدة وحدها أكثر من المعهود في يوم العمل العادي، ولا تزال المواعيد الروتينية بحاجة إلى الإضافة. تفكَّرت عابسًا إن كان الموت الأسود قد عاد إلى إنجلترا فجأة؛ ولذا هُرعت إلى غرفة الطعام وتناولت إفطارًا سريعًا، ولكنني كنت أتعطل بين الفينة والأخرى حين يعلن المساعد عن وصول رسائل جديدة.

عُرف السبب بعد أول زيارتين أو ثلاث. تفشَّت الإنفلونزا في المنطقة، وفي هذه الفترة لا يكون لدينا عبء العمل العادي فحسب، بل تَرِد إلينا حالات من عند أطباء آخرين. إضافة إلى ذلك، يبدو أن الإضراب الذي نظَّمه العاملون في مجال التعمير والتشييد، قد أعقبه على الفور تدهور كبير في الحالة الصحية بين البنائين المنضَمِّين إلى نادٍ نفعي مُعيَّن، وهذا ما يفسر التفشِّي المنتشر والمفاجئ للمرض.

بالطبع، لم أجد سبيلًا لزيارة ثورندايك المزمَعة. ولذا اضطُرِرت إلى أن آخذ قراراتي على مسئوليتي الخاصة. ولكن بسبب العجلة والضغط والقلق في العمل، حيث إن بعض الحالات كانت حادة، بل بعضها كان خطيرًا؛ لم أجد فرصةً للتفكير في أي إجراء، فضلًا عن عدم إيجاد الوقت لتنفيذه. وعندما لم يكن لدى ستيلبري عربة، استأجرت واحدة، وما كدت أنتهي من زيارتي الأخيرة حتى انتصف الليل، وحينئذٍ أحسست أن التعب قد نال مني، لدرجة أنني غفوت في أثناء العشاء المؤجَّل.

افتُتِح اليوم التالي بمزيد من المرضى؛ ولذا أرسلت برقية إلى الدكتور ستيلبري في هاستنجز؛ حيث رأى أن الحكمة تقتضي الذهاب إلى هناك من أجل الاستشفاء من مرض خفيف. طلبت منه أن يأذن لي في استعمال مساعد، ولكن جاءني الرد بأن ستيلبري نفسه في طريقه إلى المدينة، وقد أحسست براحة حين دخلت غرفة الكشف لأحتسي كوبًا من الشاي، ووجدته يتصفح دفتر اليومية المفتوح.

قال بنبرة مرِحة ونحن نتصافح: «مصائب قوم عند قوم فوائد. فهذه الكشوفات ستُعوض مصاريف إجازتي، بما في ذلك أجرك أنت. بالمناسبة، أنت لست في عجلة من أمرك، أليس كذلك؟»

في الحقيقة، أنا كنت في عجلة؛ حيث إنني قررت أن أقبل عرض ثورندايك وأصبحت متشوقًا لتولِّي مهامي معه. ولكن لا يليق بي أن أترك ستيلبري يكافح وحده مع هذا الكم من الحالات، أو أن أتركه يطلب المساعدة من غريب.

أجبته: «أُفضِّل الرحيل حين لا تعود في حاجتي، ولكني لن أرحل حتى تنتهي هذه الذروة.»

قال ستيلبري: «هذا جميل منك. أعلم أنك لن تتركني. لنحتسِ الشاي ثم نقسم العمل. هل ثمة ما يستدعي الاهتمام؟»

هناك حالة أو حالتان استثنائيتان في القائمة، وبينما نصنِّف المرضى، كنت أقدم له التاريخ المرَضي بكلمات موجزة. ثم فتحت موضوع تجاربي الغامضة في منزل السيد فايس.

«ثمة مسألة أخرى أريد أن أخبرك بها، ولكنها ليست سارة.»

تعجَّب ستيلبري: «عجبًا يا صديقي!» وضع الكوب ونظر إليَّ وتعبيرات وجهه تنمُّ عن قلق بالغ.

أردفت: «أرى أنها حالة تسمم تنطوي على شُبهة جنائية لا لبس فيها.»

أشرق وجه ستيلبري من فوره. قال وفي صوته نبرة تنُم عن ارتياحه: «أوه، يُسعدني أن المسألة ليست أكبر من هذا. خشيت أن تكون مشكلة محيرة مع امرأة. فهذا الخطر موجود دومًا كما تعلم، لا سيَّما حين يكون الشخص شابًّا، ويصادف أن يكون جميل الطلعة مثل جيرفيس. هاتِ ما عندك.»

أوجزت له قصة ارتباطي بالمريض الغامض، وتجاهلت أيَّ ذكرٍ لثورندايك، ومررت مرور الكرام على الجهود التي بذلتُها كي أحدِّد مكان المنزل، واختتمت بضرورة إبلاغ الشرطة بهذه المعلومات.

قال متثاقلًا: «نعم، إنك على حق. ولكنها مسألةٌ مُزعجة للغاية. وذِكْر الطبيب في القضايا التي تحقِّق فيها الشرطة لا ينفعه. فهذه القضايا تستغرق وقتًا طويلًا أيضًا، وتُبقي المرء معلقًا حتى يُدلي بشهادته. ولكن معك كل الحق. لا يجدر بنا الوقوف مكتوفي الأيدي ونحن نرى بائسًا يُسقى السُّم من دون أن نفعل شيئًا. ولكن لا أحسب الشرطة ستتخذ أي إجراءات.»

«أوَتظنُّ ذلك حقًّا؟»

«أجل، أظنُّ ذلك. فالشرطة تحبُّ أن تتوفَّر أدلةٌ قاطعةٌ وواضحة قبل اتخاذ أي إجراءات. والإجراءات القانونية مُكلفة؛ ومن ثَم لا يهتمون بتحريك الدعوى ما لم تتوفَّر أدلة دامغة على الإدانة. وإذا لم تتوفر الأدلة، فإنهم يتعرضون للنقد اللاذع.»

«لكن ألَا ترى أن ما أُدلي به كافٍ لتحريك الدعوى؟»

«كلا يا جيرفيس. ربما يكشفون عن معلومات جديدة، ولكن إن لم يتمكَّنوا، فستسقط الدعوى. فأنت ليس لديك وقائع مبنية على أساسٍ متين كي تُجابِه الدفاع القوي. بالإضافة إلى أن المسألة ليسَت من اختصاصنا. أنت تريد أن تضع المسئولية كلها على الشرطة، وأنا أتفق معك قلبًا وقالبًا.»

قلت: «ما ينبغي أن يقع أي تأخير.»

«لا داعي لأي تأخير. فأنا سأزور السيدة واكفورد وستزور أنت أطفال رومل، وسنمُر على قسم الشرطة في طريقنا. ما رأيك أن نُعرِّج على المفتش أو الحكمدار؟»

انسجم الاقتراح مع ما أراه انسجامًا تامًّا. انطلقنا إلى وجهتنا بمجرد أن انتهينا من احتساء الشاي، وفي غضون ١٠ دقائق تقريبًا، وصلنا إلى مكتبٍ سيئ التأثيث ورثِّ الحال مُلحق بقسم الشرطة.

نزل الضابط الموجود من فوق كرسيِّه العالي، ووضع قلمه بعناية، وصافحنا بحرارة.

سأل وعلى شفتيه ابتسامة لطيفة: «ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلكما؟»

بدأ ستيلبري يشرح له ما جئنا من أجله.

«تولى صديقي الدكتور جيرفيس مهام عملي بالنيابة عني لمدة أسبوع أو أسبوعَين، وقد مر بتجربةٍ غير عادية ويريد أن يقُصَّها عليك.»

سأل الضابط: «وهل هذه التجربة ضمن اختصاصات عمل الشُّرطة؟»

قلت: «الحكم في ذلك مردود إليك. وأحسبها تقع ضمن اختصاصات الشُّرطة، ولكن ربما ترى أنت رأيًا آخر»، عندئذٍ ومن دون مزيد من المقدمات، شرعت في سرد القصة، وقد أوجزتها له كما فعلت مع ستيلبري.

أصغت أذناه لما رويته له، وكتب بعض الملاحظات على ورقة، وحين انتهيت، كتب في دفترٍ ذي غلاف أسود مُلخَّصًا موجزًا للقصة.

قال: «كتبت هنا خلاصة ما قصصته عليَّ. سأقرأ عليك البلاغ، وإذا كان صحيحًا فستُوقِّع عليه.»

بعدما قرأ عليَّ البلاغ ووقعت على المستنَد، سألته ما الإجراءات التي يمكن اتخاذها في هذه المسألة.

أجابني: «يؤسفني أن أقول لك إنه لا يمكننا اتخاذ أي إجراءات فعَّالة. لقد جعلتنا على أهبة الاستعداد وسنُبقي أعيننا مفتوحة. ولكن أعتقد أنه لا يسعنا غير هذا، ما لم تَرِد إلينا معلومات أخرى.»

صِحتُ: «ولكن ألَا ترى أن هذه المسألة تُثير الريبة؟»

رد: «بلى. لا شك عندي أنها تثير الريبة، وقد أصبتَ بقدومك إلينا وإبلاغنا.»

قلت: «يا للأسف لأنه لن تُتَّخذ أي إجراءات. وبينما أنت هنا تنتظر سماع معلومات جديدة، فربما يُعطون ذلك البائس جرعةً أخرى ويقتلونه.»

«في هذه الحالة، ينبغي أن يتوفَّر المزيد من المعلومات، إلا لو أتى طبيبٌ أحمق وأصدر شهادة وفاة.»

«ولكن هذا غير مُرضٍ البتة. يجب ألَّا ندع الرجل لحتفه.»

«أنا أتفق معك تمامًا يا سيدي. لكننا لا نملك دليلًا على أن حياته مهدَّدة. أصدقاؤه أرسلوا في طلبك، وأنت عالجته بمهارة وتركته في حالة جيدة تُتيح له أن يتعافى. هذا كل ما نعلمه حقًّا عن هذه الحالة.» أردف الضابط حين بدرت مني إشارات على الاعتراض: «نعم، أعلم أنك ترى أنه ربما تُرتَكب جريمة وواجب علينا أن نمنعها. لكنك تبالغ في تقدير سلطاتنا. نحن لا يمكننا التحرك إلا بناءً على أدلةٍ تفيد أن الجريمة ارتُكِبت بالفعل، أو أن الجاني حاول ارتكابها حقًّا. لكن في الوقت الحالي، لا نملك ذلك الدليل. راجع تصريحاتك وأخبرني ما الذي يمكنك أن تُقسِم عليه.»

«أحسبني يمكنني القسم على أن السيد جريفز أُعطِي جرعة سامَّة من المورفين.»

«ومن أعطاه ذلك السُّم؟»

«أشك بقوة في ...»

قاطعني الضابط: «هنا الخطأ يا سيدي. الشك ليس دليلًا. إننا نريدك أن تُقسِم على معلومةٍ وتعطينا وقائع كافية تُمكِّننا من رفع دعوى قانونية ضد شخصٍ بعينه. وما أدليتَ به لا يُمكِّنُنا من ذلك. فالمعلومات التي لديك تتلخص في الآتي: ذلك الشخص أعطاه أحدٌ ما جرعة سامَّة من المورفين ومن الواضح أنه تعافى. هذا كل ما أدليتَ به. ليس بوسعك أن تُقسم على أن الأسماء التي ذُكرت لك حقيقية، ولا يمكنك أن تعطينا أي عنوان أو حتى اسم منطقة.»

قلت: «دوَّنت بعض اتجاهاتٍ حسب البوصلة وأنا في العربة. وأظن أنه يمكن تحديد موقع المنزل من دون صعوبةٍ كبيرة.»

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه الضابط ونظر إلى الساعة شارد الذهن.

رد: «يمكنك أن تحدد موقعه يا سيدي. ليس عندي أدنى شكٍّ في أنه يمكنك تحديد موقعه. لكن لا يمكنني أنا. وعلى أي حال، ليس لدينا معلوماتٌ كافية كي نحرك الدعوى. وإذا حصلت على أي معلوماتٍ جديدة، أرجو أن تبلغني بها، وإني أقدِّر لك جهودك في هذه المسألة. طاب مساؤك يا سيدي. طاب مساؤك يا دكتور ستيلبري.»

صافح كِلَينا بلطف، وعلى الرغم من تأدُّبه وهو يصرفنا، فقد كان واضحًا أنه يريدنا أن نغادر؛ ولذا غادرنا.

وحين صرنا خارج القسم، تنفَّس ستيلبري الصُّعَداء. لم يُخفِ ابتهاجه حين علم أنه لن تطاله أي اضطرابات.

قال: «توقعت أن يكون هذا موقف الشرطة، وهم على حق تمامًا، كما تعلم. صحيح أن وظيفة القانون هي منع الجريمة، ولكن الوقاية بالمعنى الذي نفهمه غير ممكنةٍ في الممارسات القانونية.»

نزلت على رأيه وأنا فاقد الحماس. وقد شعرت بالإحباط لأنه لا تُوجد إجراءات احترازية يمكن اتخاذها. لكني بذلت ما بوسعي في هذه المسألة. ولا تقع عليَّ مسئولية أخرى، وعلى الرغم من أنني على يقين عمليٍّ بما شهدته وسمعته آخر مرة من السيد جريفز وعائلته الغامضة، صرفت هذه القضية عن تفكيري. افترقت أنا وستيلبري عند المنعطَف التالي ليذهب كلٌّ منا في طريقه، وسرعان ما تحوَّل تفكيري من خيال الجريمة إلى واقع تفشِّي الإنفلونزا.

استمرَّ العمل في عيادة الدكتور ستيلبري لفترةٍ أطول مما اتفقت معه عليها. مرت الأيام وأنا أتنقل بين شوارع كينينجتون المظلِمة، أو أصعد السلالم الضيقة أو أنزلها، وأعود في الليل مُنهَك القُوى، أو أخرج، والنُّعاس يداعبني، استجابةً لصلصلة مزعجة من دقات الجرس في الليل.

لقد نال مني إحباطٌ كبير. وظللت شهورًا وأنا أقاوم محاولات ثورندايك كي يقنعني بالتخلي عن ممارسة الطب العام والانضمام إليه. لم تنبُع مقاومتي من قلة الرغبة، ولكن من شكوكي العميقة بأنه كان يفكر في احتياجاتي أنا أكثر من احتياجاته هو، وأنه يعرض عليَّ الأمر من مُنطلَق عمل الخير وليس من منطلق عرض العمل. لكن عندما علمت أن الأمر على غير ما ظننت، لم أُطِق صبرًا كي أنضمَّ إليه، وبينما أسير بين الطرقات المظلمة لهذه الضاحية العتيقة، ذات الفيلات التي كانت رائعةً ذات يوم، والحدائق ذات الزهور الذابلة، وجدت نفسي أتُوق إلى الرفعة الهادئة التي تحظى بها منطقة تيمبل، والمسكن الذي يعيش فيه صديقي في شارع كينجس بينش ووك.

لم تأتِني العربة المغلقة مرة أخرى، ولم أسمع أي أخبار سواء بالخير أو بالشر عن المنزل الغامض الذي أتيت منه. وكأن السيد جريفز قد خرج من حياتي إلى الأبد.

لكن حتى وإن خرج من حياتي، فإنه لم يخرج من ذاكرتي. وبينما أمشي في الشوارع، كثيرًا ما تتَّقِد ذاكرتي بصورة تلك الغرفة ذات الإضاءة الخافتة ولا يسعني إطفاؤها. وفي كثيرٍ من الأحيان، أجدني أنظر مرةً أخرى في ذلك الوجه المخيف المنهَك، الهزيل الشاحب، وعلى الرغم من ذلك لا يَشمئزُّ الناظر إليه. تسترجع ذاكرتي كل الأحداث التي وقعت في تلك الليلة الأخيرة وكأنها وقعَت للتَّو، ما يدل على قوة الانطباع الذي تركه في نفسي حينئذٍ.

ليتني أنسى هذه الحالة برُمَّتها؛ لأن كل حدثٍ فيها يصيبني بالانزعاج. لكنها ظلت عالقةً في ذاكرتي وتطاردني، وكلما استرجعَتها ذاكرتي، استرجعت معها هذه الأسئلة المقلِقة: هل السيد جريفز لا يزال حيًّا؟ وإذا لم يكن حيًّا، فهل لم يكن ثمة شيءٌ يمكن فعله من أجل إنقاذه؟

مضت قرابةُ شهرٍ قبل أن تبدر علامات العودة إلى وتيرة العمل الطبيعية. ثم بدأَت قوائم الكشف اليومية تتقلَّص يومًا بعد يوم، حتى قلَّ معها عبء العمل في اليوم. وحينئذٍ، انتهت مدة عُبوديتي. وفي إحدى الليالي، وبينما نكتب دفتر اليومية، قال ستيلبري:

«أظنني يمكنني تدبر شئون العمل بنفسي الآن يا جيرفيس. أعلم أنك لا تمكُث إلا جبرًا لخاطري.»

«أنا أنفذ التزامي تجاهك، ولكن لن أنزعج من الانصراف إن كان يمكنك تدبر أمرك من دوني.»

«أحسب أنه يمكنني ذلك. متى تريد أن تنصرف؟»

«في أقرب وقت ممكن. ولنقُل صباح الغد، بعدما أُجري بعض الزيارات وأنقل المرضى إلى مسئوليتك.»

قال ستيلبري: «جميل جدًّا. حينئذٍ، سأعطيك الشيك وأُسوِّي المسائل الليلة، بحيث يمكنك الانصراف متى شئت صباح الغد.»

هنا، انقطعت علاقتي بكينينجتون لين. وفي اليوم التالي قرب الظهيرة، وجدتُني أعبر جسر ووترلُو وأنا يغمرني إحساس المفرَج عنه قريبًا وفي جيبي شيك بقيمة ٢٥ جنيهًا. ستلحق بي أمتعتي حين أرسل في طلبها. والآن، عندما لم تعُقني حتى حقيبة يد، نزلت الدَّرَج فرحًا عند الطرف الشمالي من الجسر متوجهًا إلى شارع كينجس بينش ووك من طريق إمبانكمينت وميدل تيمبل لين.

الفصل الخامس

وصية جيفري بلاكمور

لم يكن وصولي إلى مسكن ثورندايك غير متوقَّع؛ فقد سبقتني إليه بطاقةٌ بريدية تُعلن قدومي. وجدت الباب المصنوع من خشب «البلوط» مفتوحًا، وبطرقٍ خفيفٍ بالمطرقة النحاسية على الباب الداخلي، خرج زميلي بنفسه ورحب بي ترحيبًا حارًّا.

قال ثورندايك: «أخيرًا، أُطلِقَ سراحُك من محبسك. فقد كنت بدأت أظن أنك ستمكث في كينينجتون بقية عمرك.»

«أنا نفسي كنت أتساءل: متى سأنال حريتي؟ ولكن ها أنا ذا، وبوسعي أن أعلن أني سأرمي ممارسة الطب العام وراء ظهري إلى الأبد؛ ولكن هذا إن لم تنضب رغبتك بعدُ في اتخاذي مساعدًا لك.»

تعجَّب ثورندايك: «رغبة! حتى باركيس نفسه لن تكون رغبته أقوى من رغبتي. فأنت ذو قيمةٍ عندي. لنُسوِّ بنود رفقتنا معًا الآن، وغدًا نتخذ الإجراءات اللازمة كي تلتحق بجمعية إنَر تيمبل بصفتك طالبًا. هل نتحدث في الهواء الطلق وتحت أشعة شمس الربيع المشرقة؟»

رحَّبت بهذا الاقتراح؛ فالطقس في هذا الوقت من العام يكون مُشرقًا ومشمسًا ودافئًا، إنه بداية شهر أبريل. نزلنا إلى شارع ووك ثم سلكنا طريقنا نمشي الهوينى إلى الساحة الهادئة خلف الكنيسة، وهناك يقبع العجوز البائس أوليفر جولدسميث — مثلما كان يتمنى — وسط الأشياء المحببة إليه التي جمعها في حياته المتقلِّبة. لا حاجة إلى ذكر تفاصيل محادثتنا. ولم يكُن عندي أيُّ اعتراضٍ على مقترحات ثورندايك إلا على عدم جدارتي وعلى سخائه الزائد. بعد بضع دقائق، وصلنا إلى الاتفاق على البنود كاملة، وحين دوَّن ثورندايك تلك البنود على ورقة، وقَّع عليها وأرَّخها ثم سلمها إليَّ، وهنا سُوِّيت المسألة.

قال زميلي مُبتسِمًا وهو يطوي دفتر جيبه: «لو سوَّى الناس المسائل التي بينهم بتلك الطريقة، لفقد المحامون جزءًا كبيرًا من عملهم. الإيجاز هو روح الحكمة، وخشية التبسيط هي بداية النزاعات.»

قلت: «والآن، أقترح أن نذهب ونتناول شيئًا نأكله. سأدعوك إلى الغداء احتفالًا بالعقد الذي أُبرم بيننا.»

رد: «لا يزال صغيري المثقَّف غرًّا. لقد رتبتُ احتفالًا بسيطًا؛ أو بالأحرى أعدتُ تنظيم احتفال سبق ترتيبه. هل تتذكر السيد مارشمونت، المحامي؟»

«نعم.»

«اتصل بي صباح اليوم، ودعاني إلى الغداء معه ومع عميل جديد في حانة تشيشَير تشيز. قبلت دعوته وأخبرته أني سآتي بك معي.»

سألت: «ولمَ حانة تشيشَير تشيز؟»

«ولمَ غيرها؟ مارشمونت له أسبابه في اختيار المكان؛ أولًا: عميله لم يرَ قطُّ حانةً في لندن على الطراز القديم، وثانيًا: أن اليوم هو الأربعاء، ومارشمونت نفسه يعتريه تَوقٌ شَرِهٌ إلى تناول بودينج اللحم البقري الشهي. أرجو ألَّا يكون لديك اعتراض.»

«أوه، كلا على الإطلاق. وبما أنك أتيت على ذكر الطعام، فإن مشاعري تميل إلى التعاطُف مع مارشمونت. فقد تناولت فطوري مبكرًا.»

قال ثورندايك: «تأتي معي إذن. فالاحتفال سينعقد الساعة الواحدة، وإذا مشينا على مهل، فسنصل في الموعد المحدد.»

مشينا الهوينى في شارع إنَر تيمبل لين، ثم عبرنا شارع فليت وتوجهنا بهدوء إلى الحانة. وحين دخلنا إلى غرفة الطعام ذات الطراز القديم والعتيق، نظر ثورندايك حوله، وحينئذٍ نهض رجل كان يجلس مع رفيقه على طاولة في أحد المربعات أو المقصورات الصغيرة، ووجَّه إلينا التحية.

قال حين اقتربنا: «اسمحا لي أن أعرفكما على صديقي السيد ستيفن بلاكمور.» ثم التفتَ إلى صديقه وعرَّف كلًّا منا باسمه.

أردف: «حجزت هذه المقصورة حتى تتوفر لنا الخصوصية في الحديث إذا أردنا إجراء حديث تمهيدي، على الرغم من صعوبة الحديث في حضرة بودينج اللحم البقري. لكن حين يلوح في الأفق موضوعٌ يتحدث فيه الناس، فسينجرف الحديث إليه عاجلًا أم آجلًا.»

جلست أنا وثورندايك في الجهة المقابلة للمحامي وعميله، وتبادلنا النظرات. أنا أعرف مارشمونت من قبل؛ فهو رجل مُسِن وله مظهر مِهني، كما أنه محامٍ متمسك بقواعد المدرسة القديمة؛ وجهه ينبض بالشباب، دقيق في مواعيده، لكن طبعه حادٌّ، ولا يعطي انطباعًا سيئًا بشأن اهتمامه المعقول بنظامه الغذائي. أما الرجل الآخر فقد كان شابًّا في الخامسة والعشرين من عمره على الأكثر، ذا جسمٍ رياضيٍّ جميلٍ وبشرةٍ صحية ووجهٍ ذكي وجذَّاب للغاية. وقد أُعجبت به من أول نظرة، ورأيت أن ثورندايك أيضًا أُعجب به.

خاطبنا بلاكمور: «يبدو أنكما تعرفان بعضكما منذ فترة طويلة. وقد سمعت عنكما كثيرًا من صديقي روبن هورنبي.»

تعجب مارشمونت: «أه! لقد كانت قضية غريبة؛ قضية بصمة الإبهام الحمراء كما أسمتها الصحف. فقد كانت بمثابة إلهامٍ للمحامين التقليديين أمثالي. سبق أن عُرض لنا شهود علميون، ولكننا ضايقناهم كثيرًا ... يا إلهي! ... إنهم لا يعطوننا الدليل الذي نريده. لكن المحامي العلمي شيء جديد. وظهوره في المحكمة لفت انتباهنا جميعًا، وهذه حقيقة مؤكدة.»

قال ثورندايك: «لعلنا نلفت انتباهك مرة أخرى.»

قال مارشمونت: «لن تستطيع هذه المرة. فالقضايا التي من نوعية قضية صديقي بلاكمور قانونية بحتة، أو بالأحرى لا توجد قضيةٌ أصلًا. فلا يوجد شيءٌ يُتنازَع عليه. وحاولت أن أُثني بلاكمور عن استشارتك، ولكنه أبى إلا أن يستشيرك. هنا! أيها النادل! إلى متى سننتظر؟ وكأن الأجل سيأتينا قبل أن يأتينا الطعام!»

ابتسم النادل مُعتذرًا. قال: «أمرك سيدي. سيأتي الطعام حالًا يا سيدي.» وفي هذه اللحظة، أُحضر إلى الغرفة بودينج ضخم في دلو كبير ووُضع على كرسيٍّ ذي ثلاث أرجل، وقد قطعها الطاهي صاحب الملابس البيضاء والقبعة البيضاء بقوة. شاهدنا هذه العملية — ومعنا جميع الحاضرين — باهتمامٍ لا يحركه الشَّره بالكامل؛ حيث إنها أضْفَت لمسة مُبهِجة إلى تلك الحانة ذات الطراز القديم الخلَّاب، وأرضيتها الرملية، ومقصوراتها المريحة التي تشبه مقصورات الكنائس، ومقاعدها ذات الظهور العالية، وصورة «المعجمي الشهير» التي تبتسم لنا وهي معلَّقة على الحائط.

علق السيد مارشمونت: «الأمر هنا مختلف عن مطعمك الحديث الرائع.»

قال بلاكمور: «معك حق، وإن كانت هذه الطريقة التي عاش بها أسلافنا؛ فقد توفَّرت لديهم فكرة عن الرفاهية أفضل مما لدينا.»

عمَّت لحظاتٌ قصيرةٌ من الصمت، وفي أثنائها نظر السيد مارشمونت شرهًا إلى البودينج؛ ثم قال ثورندايك:

«إذن، هل أقول إنك رفضت الاستماع إلى المشورة المسبَّبة يا سيد بلاكمور؟»

«نعم. فكما تعلم، درس السيد مارشمونت وشريكه المسألة وقررا أنه ليس ثمة إجراءات يمكن اتخاذها. ثم تصادف أن ذكرت القضية أمام روبن هورنبي، وحثَّني على أن أطلب مشورتك.»

تذمَّر مارشمونت: «إنها وقاحة منه أن يتدخل في شئون مُوكِّلي.»

أردف بلاكمور: «تحدَّثت في هذه المسألة مع السيد مارشمونت، واتفق معي على أهمية أخذ رأيك فيها، غير أنه نبهني لئلَّا أعلق أي آمال مستنِدًا إلى أن المسألة لا تقع ضمن اختصاصاتك.»

قال مارشمونت: «إذن، تفهم أننا لا نتوقع جديدًا منك. فهذا أملٌ لا رجاء فيه. ولا نأخذ رأيك إلا من باب الإجراءات الشكلية، لئلَّا يقال إننا تركنا بابًا لم نطرقه.»

علَّق ثورندايك: «هذه بداية مشجعة. وبذلك لا أتحرَّج إن ضنَّت قريحتي عليَّ بالحل. ولكن في الوقت نفسه تحرَّك بداخلي فضول جامح كي أعرف طبيعة القضية. هل المسألة سِرِّية للغاية؟ لأنه إن لم تكن سرِّية، أود أن أذكُر أنَّ جيرفيس قد انضمَّ إليَّ كي يكون زميلي الدائم في العمل.»

قال مارشمونت: «إنها ليست سرًّا على الإطلاق. فعامة الناس تعرف التفاصيل، ولا يضيرنا أن نزودهم بمزيد من التفاصيل عبر المحكمة الحسبية، إذا تمكنَّا من إيجاد حجةٍ مقبولة. لكن لا يمكننا إيجاد تلك الحجة.»

هنا، أحضر النادِل طلبات طاولتنا وهو مستعجل ومُرتبِك لأنه تأخر علينا.

«أعتذر أن جعلناكم تنتظرون يا سيدي. إنها لم تستغرق الوقت الكافي كي تطيب يا سيدي. وإننا لم نُرد أن يأتيَكم الطعام غير مكتمِل النضج يا سيدي.»

تفحص مارشمونت طبقه بعين ناقدة وعلَّق:

«أشكُّ أحيانًا في أن هذا المحار ليس سوى بلح البحر، وأحلف أن طيور القنابر هذه ليست سوى العصافير الدُّورية.»

قال ثورندايك: «لنرجُ ذلك. وإني لَأفضِّل أن تُترك طيور القنابر تغرد في السماء على أن تُضاف إلى مكونات بودينج اللحم البقري. لكنك كنت على وَشْك أن تخبرنا عن قضيتك.»

«أجل. إنها مسألة ... هل تفضل بيرة المرز أم نبيذ الكلاريت؟ أوه، أعلم أنك تفضل الكلاريت. فأنت تمقت بيرة جون بيرليكورن البريطانية القديمة.»

رد ثورندايك: «من يحتسِ البيرة ينضح إناء عقله بالبيرة. لكنك كنت تقول إنها مسألة ...؟»

«إنها مسألة مُوصٍ عنيد ترك وصية سيئة الصياغة. إنها قضية مزعِجة أيضًا؛ لأن الوصية ذات الصياغة غير المفهومة حلَّت محل الوصية ذات الصياغة المفهومة، ونوايا الموصي ... إمممم ... بيرة ممتازة. ربما تكون مُسكرة، ولكنها جيدة. إنها أفضل من النبيذ الفرنسي اللاذع الذي تشربه يا ثورندايك ... كانت ... إمممم ... كانت نواياه واضحة. وما أراده بوضوح كان ... هل تريد مستردة؟ الأفضل أن تضع بعض المستردة. ألَا تريد؟ حسنًا، حسنًا! حتى الفرنسي يحب إضافة المستردة. لن تعرف المعنى الحقيقيَّ للمذاق يا ثورندايك إذا تناولت طعامك من دون أي توابل أو إضافات. وبمناسبة الحديث عن المذاق، هل تجد أيَّ فرقٍ بين مذاق طائر القُنْبُرة والعصفور الدُّوري؟»

ابتسم ثورندايك ابتسامة كدرة. قال: «أحسب أنه لا فرق بينهما، ولكن يسهل معرفة إن كان ثمة فرق بينهما بتذوقهما.»

وافقه مارشمونت: «هذا صحيح، والأمر يستحق المحاولة لأن العصافير الدُّورية أسهل في الصيد من طيور القنابر على حد قولك. ولكن، بالنسبة إلى الوصية. كنت أقول ... إمممم ... ماذا كنت أقول؟»

رد ثورندايك: «فهمت أنك تقول إن نوايا الموصي لها علاقة بالمستردة نوعًا ما. أليس كذلك يا جيرفيس؟»

قلت: «هذا ما فهمته.»

حدَّق مارشمونت النظر فينا للحظات وعلى وجهه تعبيرات الاندهاش، ثم ضحك مرحًا، وأدرك نفسه برشفة من البيرة.

أردف ثورندايك: «المغزى من ذلك ألَّا نخلط الحديث عما ورد في الوصية بالحديث عن بودينج اللحم البقري.»

قال المحامي غير الخَجِل: «أحسبك على حقٍّ يا ثورندايك. يجب عدم الخلط بين العمل والطعام. والأفضل أن نتحدَّث عن القضية في مكتبي أو في مسكنك بعد الغداء.»

قال ثورندايك: «نعم، لتأتيا معي إلى تيمبل وأقدِّم لكما فنجان قهوة كي يصفوَ ذهنك. هل توجد أي مستندات؟»

أجاب مارشمونت: «معي كل الأوراق في حقيبتي»، ثم انجرف الحديث بعيدًا عن الأمور الجادة إلى موضوعاتٍ أخرى، مثلما يحدث حين يتحدث الجميع ويأكلون في آنٍ واحد.

بمجرد الانتهاء من الوجبة ودَفْع الحساب، خرجنا من شارع واين أوفيس كورت، شققنا طريقنا عبر طريقٍ مليء بالعربات الفارغة المصطَفَّة في ذلك الوقت على جانبَي شارع فليت، وانطلقنا من طريق ميتر كورت إلى شارع كينجس بينش ووك. ولما بلغنا وجهتنا، أُعدَّت القهوة واصطفَّت كراسيُّنا حول المدفأة، وأخرج السيد مارشمونت من حقيبته حزمة كبيرة من الورق، وبدأنا الحديث عن العمل الذي نحن بصدده.

قال مارشمونت: «والآن، اسمح لي أن أعيد عليكم ما قلته من قبل. من الناحية القانونية، لا يوجد سندٌ لأي قضية، ولو بأدنى قدر. لكن أراد موكِّلي أن يأخذ رأيك ونزلت على رغبته، ولكن ليس عندي أمل كبير بأن تكتشف شيئًا ربما غفلنا عنه. ولا أظنك ستكتشف شيئًا؛ حيث إننا درسنا القضية دراسةً شاملة، لكن لا تزال هناك فرصة ضئيلة للغاية، وحريٌّ بنا أن نستغلها. هل تريد الاطلاع على الوصيتين، أم تريدني أن أشرح لك الملابسات أولًا؟»

رد ثورندايك: «أرى أن سرد الأحداث حسب ترتيب وقوعها سيفيد أكثر. وأريد أن أعرف أكبر قدر عن الموصي قبل أن أطلع على المستندات.»

قال مارشمونت: «جميل جدًّا. سأبدأ إذن بسرد الملابسات، وسأُوجزها على النحو التالي: مُوكِّلي ستيفن بلاكمور هو ولد الراحل إدوارد بلاكمور. ترك إدوارد بلاكمور اثنين من الإخوة بعد وفاته، الأخ الأكبر اسمه جون والأصغر اسمه جيفري. جيفري هو الموصي في هذه القضية.

منذ عامَين تقريبًا، كتب جيفري بلاكمور وصية تنص على أن ابن أخيه ستيفن هو منفِّذ الوصية والوريث الوحيد؛ لكن بعد بضعة أشهر، أضاف بندًا ينص على منح ٢٥٠ جنيهًا لأخيه جون.»

سأل ثورندايك: «ما مقدار التركة؟»

«حوالي ٣٥٠٠ جنيه، وكلها مستثمَرة في سندات الدين الموحَّد. كان الموصي يتقاضى معاشًا من وزارة الخارجية، ويقضي حاجاته المعيشية منه، وترك رأس ماله من دون مساس. وبعدما كتب وصيته بفترةٍ وجيزة، ترك مسكنه في شارع جيرمين، حيث عاش لبضع سنوات، وخزَّن أثاثه ثم انتقل إلى فلورِنسا. ومن هناك، انتقل إلى روما ومنها إلى

البندقية وأماكن أخرى في إيطاليا، وهكذا استمر في الترحال حتى نهاية سبتمبر الماضي؛ لأنه يبدو أنه عاد إلى إنجلترا، ففي أول أكتوبر اتخذ مسكنًا في مجمع نيو إن، وفرشه ببعض الأثاث من مسكنه القديم. وعلى حد ما نفهم، فإنه لم يتصل البتة بأي أحدٍ من أصدقائه، باستثناء أخيه، ولم يعلم أحدٌ بإقامته في مجمع نيو إن أو بوجوده في إنجلترا بوجهٍ عام إلا بعد موته.»

سأل ثورندايك: «هل تصرُّفه هذا يتسق مع عاداته اتساقًا تامًّا؟»

أجابه بلاكمور: «يمكن القول إنه ليس من عادته. كان عمي مطالِعًا نهمًا وانطوائيًّا، لكنه لم يكن يحب العُزلة من قبل. لم يكن كثير المراسلات، ولكنه حافظ على قدرٍ من التواصل مع أصدقائه. على سبيل المثال، اعتاد أن يراسلني في بعض الأحيان، وحين أتيت من كامبريدج لقضاء الإجازة، طلب مني المكوث معه في مسكنه.»

«هل ثمة شيء معروف يفسر هذا التغيير في عاداته؟»

رد مارشمونت: «نعم. وسنأتي على ذكره بعد قليل. ولنشرع الآن بسرد ما جرى: في الخامس عشر من مارس الماضي، وُجد ميتًا في مسكنه، واكتُشِفت وصيةٌ أحدث بتاريخ الثاني عشر من نوفمبر العام الماضي. ولم يحدث تغيير في ظروف الموصي يفسر سبب كتابة الوصية الجديدة، كما لم يكن ثمة تبديل يمكن تقديره بشأن التصرف في التركة. وما يمكن استنتاجه أن الوصية الجديدة صيغت من أجل أن تنص على نوايا الموصي بمزيد من الدقة، ومن أجل إلغاء البند الإضافي. وكما كان من قبل، أُوصِي بنقل التركة بالكامل — باستثناء ٢٥٠ جنيهًا — إلى ستيفن، ولكن خُصصت الأصول المنفصلة، كما نَصت الوصية على أن يكون المنفذ هو أخا الموصي جون بلاكمور، وأن يكون هو المستفيد بالباقي.»

قال ثورندايك: «أفهم ذلك. ومن ثَم فإن نصيب موكِّلك في الوصية يبدو أنه لم يُمسَّ عمليًّا بهذا التغيير.»

صاح المحامي وهو يضرب على الطاولة كي يضيف تأكيدًا على كلامه: «نعم، هذا هو. هذا هو الجزء المأساوي من القصة. ولو ينأى مَن ليس لديهم علم بالقانون بأنفسهم عن التعديل في وصاياهم، فيا له من كم هائل من المشكلات التي سيتجنَّبونها!»

قال ثورندايك: «أوه، هوِّن عليك! لا يليق بمُحامٍ أن يقول هذا الكلام.»

وافقه مارشمونت: «أجل، لا يليق بي هذا. ولكنك تعلم أننا نفضل أن يكون هذا اللَّبس في جانب الخصم. أما في هذه الحالة، فإن اللبس في جانبنا. وكما قلت، فإن التغيير لم يُنقِص نصيب صديقنا ستيفن. وهذا بالطبع ما اعتقده جيفري بلاكمور البائس. ولكنه جانب الصواب. وتأثير هذا التغيير لا شك أنه كارثي.»

«حقًّا!»

«نعم. فكما قلت، لم يحدث تغيير في ظروف الموصي وقت كتابة الوصية الجديدة. لكن قبل وفاته بيومين فقط، تُوفِّيت أخته السيدة إدموند ويلسون، وتبيَّن أنها كتبت وصية تُوصي فيها بنقل كل تركتها إلى أخيها، وتُقدَّر تركتها بنحو ٣٠ ألف جنيه.»

صاح ثورندايك: «يا ربي! يا لها من مسألة مؤسفة!»

قال مارشمونت: «أنت على حق، فقد كانت فاجعة. بموجب الوصية الأصلية، فإن هذا المبلغ سيئول إلى صديقنا السيد ستيفن، لكن بموجب الوصية الجديدة، فإنه سيئول بالطبع إلى الوريث المتبقي وهو السيد جون بلاكمور. وما يزيد الأمر سخطًا حقيقةً أن هذه المسألة واضح أنها لا تتَّسق مع رغبات السيد جيفري ونواياه، حيث إنه رغب صراحةً في أن يرث ابن أخيه تركته.»

قال ثورندايك: «نعم، أحسبك أصبت في تقديرك هذا. ولكن هل تعلم إن كان السيد جيفري على علم بوصية أخته؟»

«لا نظن ذلك. فقد كُتبت وصيتها في الثالث من سبتمبر الماضي، ويبدو أن الاتصالات انقطعت بينها وبين السيد جيفري منذ ذلك الحين. إضافة إلى ذلك، إذا فكرتَ في أفعال السيد جيفري، فسترى أنها لا تشير إلى معرفته أو حتى توقُّعه لهذه الوصية المهمة. ولا يُعقل أن يفصِّل الرجل تخصيصات مبلغ ٣٠٠٠ جنيه ثم يترك مبلغ ٣٠ ألف جنيه من دون أن يخصصها لتكون بمثابة بقية التركة.»

وافقه ثورندايك: «كلامك صحيح. وكما قلت، فإن النية الجليَّة من الموصي أن يترك الجزء الأكبر من تركته للسيد ستيفن. ولذا يمكننا أن نعد الأمر شبه المؤكد أن السيد جيفري لم يعلم أنه المستفيد بموجب وصية أخته.»

قال السيد مارشمونت: «نعم، يمكننا اعتبار هذه المعلومة شبه مؤكدة.»

قال ثورندايك: «فيما يتعلق بالوصية الثانية، هل أفترض أنه لا حاجة إلى السؤال عمَّا إذا كانت الوثيقة نفسها خضعت للتدقيق؛ أعني من حيث موثوقيتها وصحتها المطلقة؟»

هز السيد مارشمونت رأسه أسفًا.

قال: «أجل، ويؤسفني أن أقول لك إنه لا يوجد شك محتمل فيما يتعلق بموثوقية الوثيقة وصحتها. والظروف التي كُتبت فيها الوصية تؤكد صحتها بما لا يدع مجالًا للشك.»

سأل ثورندايك: «ماذا كانت هذه الظروف؟»

«سأقُصُّها عليك: في صباح الثاني عشر من نوفمبر الماضي، أتى السيد جيفري إلى غرفة البواب وفي يده وثيقة. وقال: «هذه وصيتي. وأريدك أن تكون الشاهد الأول. فهل تمانع؟ وهل يمكنك العثور على شخص آخر محترم كي يكون الشاهد الثاني؟» وتصادف أن ابن أخي البواب — وهو يمتَهِن الرسم — يوجد في العمل في مجمع نيو إن. حينئذٍ خرج البواب وأحضره إلى غرفته ووافق الرجُلان أن يشهدا على الوصية. قال السيد جيفري: «الأفضل أن تطَّلعا على الوصية. في الحقيقة هذا الإجراء ليس ضروريًّا ولكنه إجراء احترازي إضافي، كما أنه لا يوجد شيء له طبيعة خاصة لهذه الوثيقة.» بناءً على ذلك، اطَّلع الرجلان على الوثيقة، وحين وقع عليها السيد جيفري في حضورهما، وضعا توقيعهما؛ ويمكنني أن أضيف أن الرسام ترك بصمات مميزة من ثلاث أصابع كان عليها ألوان الرسم.»

«وهل استجوبتما هذين الشاهدين؟»

«نعم. فقد حلف كلاهما على الوثيقة وعلى توقيعهما، وميَّز الرسَّام بصمات أصابعه.»

قال ثورندايك: «ما ذكرته يُبدِّد أي شكوك بشأن مصداقية الوصية بشكل فعال، وإذا كان السيد جيفري أتى إلى غرفة البواب بمفرده على حد ما فهمت، فهذا يُبدد أي شكوك في تعرضه لعوامل مؤثرة.»

قال السيد مارشمونت: «كلامك صحيح. وأرى أنه يجب أن نعد الوصية لا تشوبها شائبة.»

قال ثورندايك: «يبدو لي غريبًا أن السيد جيفري لم يكن يعلم سوى القليل جدًّا عن نوايا أخته. هل عندك تفسير لهذا يا سيد بلاكمور؟»

رد ستيفن: «لا أرى ما يلفت النظر في هذه المسألة. فأنا لا أعلم الكثير عن شئون عمتي، ولا أحسب أن عمي جيفري علِم الكثير عن شئونها؛ لأنه ظن أن جل اهتمامها في الحياة ينصبُّ على تركة زوجها. وربما كان على حق في ظنه. كذلك التركة التي تركتها لعمي ليست معلومة. فقد كانت امرأة متحفِّظة للغاية ونادرًا ما تثق في أي أحد.»

قال ثورندايك: «إذن، هل يُحتمل أن عمتك نفسها قد حصلت على هذه الأموال عن طريق الوصية؟»

أجاب ستيفن: «هذا احتمال وارد للغاية.»

قال ثورندايك وهو ينظر إلى الملاحظات التي دوَّنها: «فهمتُ أنها تُوفيت قبل السيد جيفري بيومين. فمتى كان التاريخ؟»

قال مارشمونت: «تُوفِّي جيفري في الرابع عشر من مارس.»

«هل يعني هذا أن السيدة ويلسون تُوفيت في الثاني عشر من مارس؟»

أجاب مارشمونت: «أجل»؛ ثم سأل ثورندايك:

«هل تُوفيت فجأة؟»

رد ستيفن: «لا، ماتت بسبب السرطان. أعلم أنها أصيبت بسرطان المعدة.»

سأل ثورندايك: «هل نما إلى علمك طبيعة العلاقة بين جيفري وأخيه جون؟»

قال ستيفن: «أعلم أن العلاقة بينهما لم تكن على وفاق في وقتٍ ما، ولكن ربما عاد الوصل بينهما، على الرغم من أنني لا أعلم إن عاد الوصل بينهما بالفعل أم لا.»

قال ثورندايك: «طرحت هذا السؤال لأنه يمكنني القول إنني لاحظت تلميحًا لتحسن العلاقات في الوصية الأولى. وفي الأساس، نصت الوصية على أن يكون السيد ستيفن هو الوريث الوحيد. لكن بعد فترة وجيزة، أضيف بند إضافي لصالح السيد جون، وهذا يبين أن جيفري أحس بضرورة الاعتراف بأخيه. ويبدو أن هذا يشير إلى تغير في العلاقات، ومن هنا يُثار السؤال: إذا حدث هذا التغير في الواقع، فهل كان بداية تحسن جديد ومتزايد في العلاقات بين الأخوين؟ هل لديك أي معلومات تجيب بها عن هذا السؤال؟»

زمَّ مارشمونت شفتَيه وكأنه يفكر في اقتراح غير محبَّب، وبعد لحظات من التفكير، أجاب:

«أظن أن الإجابة عن هذا السؤال ستكون «نعم». ثمة حقيقة لا يجدر تجاهلها وهي أنه من بين كل أصدقاء جيفري، فإن جون بلاكمور هو الوحيد الذي علم بمكوث جيفري في مجمع نيو إن.»

«أوه، أحقًّا جون علِم بذلك؟»

«نعم، بالتأكيد؛ فقد أبانت الأقوال أنه زار جيفري في مسكنه أكثر من مرة. ولا شك في هذا. ولكن انتبه!» أردف السيد مارشمونت مؤكِّدًا: «هذا لا يفسر عدم الاتِّساق في الوصية. فالوصية الثانية لا تنطوي على ما يدل على أن جيفري نوى بالفعل أن يزيد حصة أخيه من الميراث.»

«أتفق معك تمامًا يا مارشمونت. وأرى أن موقفك سليم تمامًا. هل أفترض أنك فكرت في إمكانية إلغاء الوصية الثانية على أساس أنها لا تتفق مع رغبات الموصي ونواياه الواضحة؟»

«نعم. فقد درست أنا وشريكي وينوُود هذا السؤال بعناية بالغة، كما أننا أخذنا مشورة المستشار — السير هوراس بارنابي — وقد اتفق رأيه مع رأينا بأن المحكمة ستقر الوصية.»

قال ثورندايك: «أرى أن رأيي سيتفق معكما أيضًا، لا سيما بعد ما أخبرتني به. هل أفهم أن جون بلاكمور هو الوحيد الذي علم بمكوث جيفري في مجمع نيو إن؟»

«الوحيد من الأصدقاء الشخصيين. فقد كان موظفو البنك الذين يتعامل معهم، وكذلك المسئولون الذين يتقاضى منهم معاشه على علم بمكانه.»

«بالطبع عليه أن يخطر البنك إن كان قد أجرى تغييرًا على عنوانه.»

«نعم، بالطبع. وفيما يتعلق بالبنك، فإني أقول لك إن المدير أخبرني أنه في الآونة الأخيرة لاحظ تغييرًا طفيفًا في رسم توقيع جيفري، وأظنك ستعرف سبب التغيير حين تسمع باقي القصة. إنه تغيير طفيف للغاية، ولا يتخطَّى الأمر الحد الطبيعي حين يكبر الرجل، لا سيما إذا أصيب بضعف في البصر.»

سأل ثورندايك: «هل ضعُف بصر السيد جيفري؟»

قال ستيفن: «أجل، ولا شك في ذلك. فقد أصيب بالعَمى بالفعل في إحدى عينيه، وذكر لي في خطابه الأخير أنه يعاني بوادر للإصابة بالمياه البيضاء في العين الأخرى.»

«ذكرت لي معاشه. فهل استمر في سحبه بانتظام؟»

«نعم، كان يسحب معاشه كل شهر، أو يسحبه له موظف من البنك. فقد اعتادوا أن يسحبوه له حين يكون بالخارج، ويبدو أن السلطات سمحت باستمرار هذا الفعل.»

فكَّر ثورندايك للحظات وهو يمرر عينيه على الملاحظات المكتوبة في قصاصات الورق التي في يده، ومارشمونت يُبصره وعلى وجهه ابتسامة خبيثة. وبعد فترة، علَّق مارشمونت: «أرى أن المستشار الخبير قد نضب مَعِينه.»

ضحك ثورندايك. رد عليه: «إنما مَثَل أفعالك كمَثَل رجل دَمِث أعطى دبًّا حصاة من الصوان كي يكسرها ويُخرج النواة منها. ويبدو أن إرادتك المتملِّلة لن تعطيني نقطة ضعف أبدأ الهجوم منها. لكن لا استسلام. وأرى أننا استنفدنا كل المعلومات من الوصية. والآن، لندرس بعض الوقائع التي تتعلق بالأطراف المعنية؛ وبما أن جيفري هو الشخصية المحوَرِية، فلنبدأ به وبالمأساة التي تعرض لها في نيو إن، والتي تشكل نقطة البداية لهذه المشكلة برُمتها.»

الفصل السادس

وفاة جيفري بلاكمور

بعدما طرح ثورندايك الاقتراح السابق، وضع قصاصة ورق جديدة على اللوح النشاف على ركبته ونظر، والأسئلة تدور في ذهنه، إلى السيد مارشمونت، والذي بدوره تنهد ونظر إلى حزمة المستندات على الطاولة.

سأل وفي صوته مسحة من ضجر: «ما الذي تريد معرفته؟»

رد ثورندايك: «كل شيء. لَّمحت إلى وجود ملابسات من شأنها أن تفسِّر التغيير في عادات السيد جيفري، ومن شأنها أن تبين سبب التغيير في شكل توقيعه. اذكر لي هذه الملابسات. وإذا سمحت لي أن أقترح، أودُّ أن تذكر الأحداث بالترتيب الذي وقَعَت به، أو بالترتيب الذي عُرِفت به.»

تذمَّر مارشمونت: «هذا أسوأ ما فيك يا ثورندايك. فحين تُعصَر القضية حتى آخر قطرة من الناحية القانونية، تريد أنت أن تبدأ كل شيء من جديد، وتدرس التاريخ العائلي لكل طرف مَعني، وتُعد قائمة بممتلكاته وأثاث منزله. ولكن أعتقد أنه يجب تلبية متطلباتك، وأتصوَّر أن أفضل طريقةٍ لإعطائك المعلومات التي تريدها هي سَرْد الأحداث المحيطة بوفاة جيفري بلاكمور. فهل هذا يناسبك؟»

أجاب ثورندايك: «يناسبني تمامًا»؛ ومن ثَم شرع مارشمونت في سرد الأحداث:

«اكتُشِفت وفاة جيفري بلاكمور في حوالي الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم الخامس عشر من مارس. ويبدو أن أحد البنائين كان يصعد سُلَّمًا خشبيًّا لتفحُّص مئزابٍ في المبنى رقم ٣١ بمجمع نيو إن؛ حيث إنه مر أمام نافذة في الطابق الثاني ووجد الجزء العلوي منها مفتوحًا؛ ومن ثَم نظر إلى الداخل ورأى رجلًا مستلقيًا على الفراش. كان ذاك المستلقي مُرتديًا كل ملابسه، ويبدو أنه يستلقي على الفراش لأخذ قسط من الراحة، أو على الأقل هذا ما حسبه البنَّاء حينذاك؛ حيث إنه مر فقط أمام النافذة وهو يصعد، وعلى

الأرجح أنه لم يدقق النظر. لكن وهو ينزل السلم بعد ١٠ دقائق، رأى أن الرجل لا يزال مستلقيًا من دون أن تتغير وضعيته، فنظر إليه بمزيد من الانتباه، وكان ما لاحظه ... ولكن ربما الأفضل أن أقص عليك القصة على لسانه كما وردت في التحقيقات.

حين نظرت إلى الرجل بمزيد من الإمعان، تفاجأت بقدر من الغرابة في مظهره. فقد رأيتُ وجهه شاحبًا — أو بالأحرى أصفر اللون — مثل رقِّ الكتابة، وفمه مفتوحًا. يبدو أنه لم يكن يتنفس. وكان بجانبه على الفراش شيء نحاسي ... لم أستطع أن أتبين ما هو ... وبدا أنه يمسك شيئًا معدنيًّا صغيرًا في يده. وقد وقع في نفسي شيء مما رأيت، وحين نزلت عرَّجت على غرفة البواب وأخبرته بما رأيت. خرج البواب معي إلى الساحة وأريته النافذة. حينئذٍ أخبرني أن أصعد السلم إلى شقة السيد بلاكمور في الطابق الثاني، وأطرق على الباب وأظل أطرق حتى يجيبني أحد. صعدت وظللت أطرق على الباب بأعلى صوت، ولكني أخرجت كل من في الشقق الأخرى في المبنى، ولم أتلقَّ ردًّا من السيد بلاكمور. لذا نزلت مرة أخرى وأرسلني السيد ووكر البوَّاب إلى أحد رجال الشرطة.

خرجتُ وقابلت شرطيًّا على مسافةٍ قريبةٍ من نُزُل داين، وقصصت عليه القصة؛ ومن ثَم عاد معي. تشاور مع البواب ثم أخبراني أن أصعد السلم الخشبي، وأدخل من النافذة وأفتح باب الشقة من الداخل. وعلى إثر ذلك صعدت، وبمجرد أن دخلت من النافذة اكتشفت أن الرجل ميِّت. عبرت إلى الغرفة الأخرى وفتحت باب الشقة وأدخلتُ البواب والشرطي.»

قال السيد مارشمونت وهو يضع الأوراق التي تحتوي على الأقوال: «هكذا اكتُشِف موت جيفري بلاكمور البائس.

الشرطي أبلغ المفتش، والمفتش أرسل إلى جراح القسم، وقد رافقه إلى مجمع نيو إن. لكن لا حاجة إلى الخوض في الأقوال التي أدلى بها رجال الشرطة؛ حيث إن رأي الجراح اتَّفق مع آرائهم، وإفادته تتناول كل شيء عن وفاة جيفري. وسأسرد عليك أقواله، بعدما ذكر كيف أُرسل ووصل إلى هناك:

«حين دخلت الغرفة، رأيت جُثة رجل يتراوح عمره ما بين الخمسين والستين، وقد تعرف عليه الناس في حضوري بأنه السيد جيفري بلاكمور. كان مُرتديًا ملابسه كاملة، حتى حذاءه، الذي كان ملتصقًا به كمية طفيفة من الطين الجاف. وجدته مستلقيًا على ظهره على الفراش، ويبدو أن الفراش لم يُستخدم للنوم؛ حيث لم أرَ علامات تدل على صراع مع النوم أو قلق. رأيته مُمسكًا في يده بمحقنة تحت الجلد تحتوي على بضع قطرات من سائل شفاف، وحين حللته اكتشفت أنه محلول مركَّز من الستروفانثين.

على الفراش بالقرب من الجانب الأيسر للجثة، وجدت غليونًا نحاسيًّا مخصصًا للأفيون بتصميم أظنه صُنع في الصين. احتوى وعاء الغليون على كمية صغيرة من الفحم، وقطعة من الأفيون بالإضافة إلى بعض الرماد، ورأيت كمية صغيرة من الرماد على الفراش ويبدو أنه سقط من الوعاء حين سقط الغليون أو وُضع. أما على رفِّ الموقد في غرفة النوم، وُجدت جرَّة زجاجية صغيرة ذات سدادة تحتوي على أُونصة تقريبًا من الأفيون الصلب، وجرَّة أخرى أكبر تحتوي على فحم خشبي مكسَّر إلى شظايا صغيرة. وُجد أيضًا وعاء يحتوي على كمية من الرماد بالإضافة إلى شظايا فحم لم تحترق بالكامل، وبضعة جسيمات صغيرة من الأفيون المتفحِّم. وكان بجانب الوعاء سكين من نوع المثقب أو المخرز، ومِلقط صغير، وأظن أنه استُخدم لحمل قطع الفحم المشتعل إلى الغليون.

كان على التسريحة أنبوبان زجاجيان مكتوب عليهما «أقراص تحت الجلد: ستروفانثين بتركيز ١ / ٥٠٠ قمحة»، بالإضافة إلى هاون زجاجي صغير ومِدقَّة، وقد احتوت الأولى على بضع بلورات ولما حللتها عِلمتُ أنها ستروفانثين.

بناءً على فحص الجُثة، تبين أنه تُوفِّي منذ حوالي ١٢ ساعة. وقد خلت الجثة من أي علامات تدل على العنف أو أي حالة غير طبيعية باستثناء ثقب واحد في الفخذ الأيمن، ومن الواضح أنه ناجِمٌ عن إبرة المحقنة تحت الجلد. كان الثقب عميقًا ورأسيًّا باتجاهٍ يوحي أن الإبرة نَفَذت خلال الملابس أولًا.

حين أجريت تشريحًا للجثة، وجدت أن سبب الوفاة هو التسمُّم بمادة الستروفانثين، ويبدو أنها الجرعة التي حُقنت في الفخذ. والأنبوبان اللذان وجدتهما على التسريحة يحتويان على ٢٠ قرصًا — في حالة الملء — ويبلغ تركيز كل قرص ١ / ٥٠٠ قمحة من مادة الستروفانثين. وإذا افترضنا أن الكمية كلها قد حُقِنت، فبذلك تساوي أربعين إلى خمسمائة، أو حوالي واحد إلى عشرين بمقياس القمحة. والجرعة الطبية الطبيعية من الستروفانثين تساوي ١ / ٥٠٠ قمحة.

وجدت أيضًا أن الجثة تحتوي على آثار مورفين بمقدار كبير — وهي المادة شبه القلوية الأساسية من الأفيون — وقد استنتجت من ذلك أن المتوفَّى كان مُدخنًا شرِهًا للأفيون. ويدعم هذا الاستنتاج الحالة العامة للجسم؛ إذ بدا عليه سوء التغذية والهزال، ويوجد به كل المظاهر التي عادةً ما تظهر في أجساد المدمنين على تعاطي الأفيون.»

كانت هذه إفادة الجراح. استُدعي الجرَّاح فيما بعد كما سنرى، ولكن في الوقت الحالي، أرى أنك ستتفق معي في أن الوقائع التي أفاد بها لا تفسر التغيير في عادات جيفري — عُزلته ونمط حياته السِّرِّي — فحسب، بل تفسر أيضًا التغيُّر في خط يده.»

وافقه ثورندايك: «أجل، يبدو أن الأمر كما ذكرت. على أي حال، ما مقدار التغيُّر في خط اليد؟»

أجاب مارشمونت: «ضئيل للغاية. ولا يكاد يُلاحظ. مجرد فقدان بسيط في الدقة والوضوح؛ مجرد تغير طفيف يمكن توقعه في خط إنسان يتعاطى الخمور أو المخدرات، أو أي شيء من شأنه أن يُضعف ثبات يده. أنا نفسي لم ألاحظه، ولكن بالطبع الموظفون في البنك خبراء؛ حيث إنهم لا يبرحون يدققون التوقيعات بعين ناقدة للغاية.»

سأل ثورندايك: «هل ثمة إفادات أخرى لها علاقة بالقضية؟»

سلمه مارشمونت حزمة من الأوراق وابتسم له ابتسامةً كدِرة.

قال: «عزيزي ثورندايك، لا توجد إفادةٌ تحمل أدنى صلة بالقضية. فكلها لا تحمل أي صلة بالوصية. ولكني أعلم اهتماماتك الفريدة، وكما ترى، فإني أستوعبها على أكمل وجه. الإفادة التالية هي إفادة البوَّاب الأساسي، وهو شخص جدير بالاحترام ولبيب، اسمه وُوكَر. وهذا ما أفاد به، بعد المقدمات المعتادة.

«رأيت الجثة محل هذا الاستجواب. إنها جثة السيد جيفري بلاكمور، مستأجِر الشقة بالطابق الثاني في المبنى رقم ٣١ بمجمع نيو إن. أعرف المتوفَّى منذ ستة أشهر تقريبًا، وقد رأيته في هذه المدة وتحدَّثت معه كثيرًا. استأجر المتوفَّى الشقة في الطابق الثاني في نهاية شهر أكتوبر، وسكن فيها من فَوره. ومن شروط الإيجار في مجمع نيو إن توفُّر خِطابَي توصية. والخطابان اللذان قدَّمهما المتوفَّى كانا من أحد موظفي البنك وأخيه السيد جون بلاكمور. بوسعي أن أقول إني كنت على معرفةٍ جيدةٍ بالمتوفَّى. فقد كان رجلًا هادئًا وطيب الأخلاق، واعتاد أن يُعرِّج على غرفتي بين الفَينة والأخرى، ويتجاذب معي أطراف الحديث. دخلت معه إلى شقته مرة أو مرتين لقضاء بعض الأعمال، ولاحظت أن الطاولة دائمًا يكون عليها عددٌ من الكتب والصحف. وفهمت منه أنه يقضي معظم وقته في الشقة منشغلًا بالقراءة والكتابة. لكن ليس عندي معرفةٌ كبيرة بأسلوب حياته. ليس عنده خادمةٌ كي تعتني بشقته، وعلى حد ظني، فإنه كان يعتني بأعمال الشقة والطهو بنفسه، ولكنه أخبرني أنه يتناول معظم وجباته بالخارج، إما في المطاعم وإما في النادي.

أثَّرَت فيَّ ملامح الحزن والبؤس التي لمحتها في هذا الرجل. وقد انزعج كثيرًا بسبب نظره، وذكر هذه المسألة لي عدة مرات في حديثنا. أخبرني أنه فقدَ بصره بالفعل في إحدى عينَيه، والأخرى آخذة في فَقْد بصرها بسرعة. كما أنه أعرب عن حزنِه البالغ؛ لأنه لا يجد

مُتعةً إلا في قراءة الكتب، وأنه لا خير في العيش إن حُرم هذه المتعة. وفي إحدى المرات، قال إن «الأعمى لا يرجو قيمة من الحياة.»

في الثاني عشر من نوفمبر الماضي، أتى إلى غرفتي وفي يده ورقة يقول إنها وصيته» ...» وقال مارشمونت وهو يطوي ورقة: «لكن لا حاجة إلى قراءة هذه الورقة؛ حيث إنني أخبرتك ملابسات التوقيع والإشهاد على الوصية. سننتقل إلى يوم وفاة جيفري المسكين.

يقول البواب: «في الرابع عشر من مارس، وفي حوالي الساعة السادسة والنصف مساءً، أتى المتوفَّى إلى شقته في عربة أجرة ذات أربع عجلات. وفي هذه الليلة، جثم الضباب على المدينة. لم أتبيَّن إن كان أحدٌ آخر مع المتوفَّى في عربة الأجرة، ولكن لا أظن ذلك؛ لأنه أتى إلى الغرفة قبل الساعة الثامنة وتحدَّث معي. وقال إن الضباب قهره ولم يستطع الرؤية بتاتًا. فقد أعماه الضباب، واضطُرَّ إلى أن يطلب من غريبٍ أن يُوقِف له سيارة أجرة؛ لأنه لا يستطيع الاهتداء إلى طريقه بين الشوارع. ثم أعطاني شيكًا بالأجرة. ذكَّرته أن موعد الدفع لم يأتِ بعد؛ حيث إنه في الخامس والعشرين من الشهر، ولكنه أعرب عن رغبته في الدفع الآن. وأعطاني كذلك بعض الأموال كي أسدَّ بعض الفواتير المستحقَّة عليه لبعض التجار؛ مثل بائع اللبن والخباز والقرطاسي.

استغربت هذا الفعل منه كثيرًا لأنه دائمًا ما يقضي حاجياته ويدفع فواتير التجار بنفسه. أخبرني أن الضباب أهاج عينه فلا يكاد يستطيع القراءة، ويخشى أن يُكَف بصره قريبًا. لقد كان مغتمًّا إلى حدٍّ جعلني أقلق عليه. وحين غادر الغرفة، عاد إلى الباحة وكأنه عائدٌ إلى شقته. لم تكن ثمة بوابةٌ مفتوحة باستثناء البوابة الرئيسية التي توجد عندها الغرفة. وكانت هذه آخر مرة أرى فيها المتوفَّى قبل وفاته.»»

وضع السيد مارشمونت الأوراق على الطاولة. «هذه إفادة البواب. الأقوال الأخرى أدلى بها أحد النبلاء والبوَّاب الليلي وجون بلاكمور وصديقنا السيد ستيفن. لم يكن عند البواب الليلي معلوماتٌ كثيرةٌ كي يُدلي بها. وسأقُص عليك جوهر ما أفاد به:

«نظرت إلى جثة المتوفَّى وعلمت أنها جثة السيد جيفري بلاكمور. أنا أعرف المتوفَّى شكلًا، وكنت أتبادل معه أطراف الحديث بين الفينة والأخرى. ولا أعلم شيئًا عن عاداتِه سوى أنه اعتاد السهر حتى وقتٍ متأخر. ومن واجباتي أن أطوف في طرقات مجمع نيو إن ليلًا، وأعلن عن الساعات حتى الواحدة صباحًا. وحين أُعلن عن دخول الساعة الواحدة، غالبًا ما أجد النور مضاءً في غرفة الجلوس بشقة المتوفَّى. وفي الليلة الرابعة عشرة، ظل

النور مضاءً بعد الواحدة صباحًا، ولكن في غرفة النوم. وقد انطفأ النور في غرفة الجلوس بحلول الساعة العاشرة مساءً.»

أقصُّ عليك الآن ما أفاد به جون بلاكمور. يقول:

«نظرت إلى جثة المتوفى وعلمت أنها جثة أخي جيفري. آخر مرة رأيته قبل الوفاة كانت في الثالث والعشرين من فبراير حين أتيت لزيارته. كان في حالة جزعٍ بالغ، وأخبرني أن بصره يضعف بسرعة. أعلم أنه يدخِّن الأفيون من حين إلى آخر، ولكن لم أعلم أنها عادة راسخة عنده. رجوته أكثر من مرة أن يُقلع عن هذه العادة. ليس عندي أسبابٌ تجعلني أظن أنه مر بضائقةٍ مالية أو كانت لديه أيُّ أسباب تجعله يُنهي حياته غير ضعف بصره، ولكن بالنظر إلى حالته العقلية في آخر مرةٍ رأيته فيها، لم أُفاجأ بما حدث.»

هذا جوهر ما أفاد به جون بلاكمور، وبالنسبة إلى السيد ستيفن، فلم يقُل غير أنه تعرَّف على الجثة وعلم أنها جثة عمه جيفري. والآن، أظن أن لديك كل الوقائع. هل ثمة أسئلة تحب أن تسألني إياها قبل أن أغادر، فأنا يجب أن أرحل الآن؟»

قال ثورندايك: «أحبُّ أن أعرف المزيد عن الأطراف المعنية في هذه القضية. ولكن أحسب أن السيد ستيفن يمكن أن يعطيني تلك المعلومات.»

قال مارشمونت: «أظنه كذلك أيضًا، فهو أعلم بهم مني على أي حال، سأغادر الآن.» أردف وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة: «إن حدث وتوصلت إلى أي طريقةٍ للطعن في هذه الوصية، أرجُ أن تخبرني ولن أدَّخر وقتًا في تقديم إنذار. مع السلامة! لا حاجة إلى أن توصلني إلى الخارج.»

بمجرد أن خرج، التفت ثورندايك إلى ستيفن بلاكمور.

قال: «سأطرح عليك بعض الأسئلة التي قد تراها تافهة، ولكن يجب أن تعلم أن أساليب التحقيق التي أتبعها تتعلق بالأشخاص والأشياء في حد ذاتها، ولا تتعلق بالمستندات. على سبيل المثال، لم أفهم طباع عمك جيفري فهمًا تامًّا. فهلَّا تخبرني المزيد عنه؟»

سأل ستيفن وفي صوته نبرة تنُم عن ارتباكه: «ماذا تريد أن تعرف؟»

«لنبدأ بمظهره الشخصي.»

قال ستيفن: «هذا صعب عليَّ. ولكنه كان رجلًا متوسط الحجم يبلغ طوله نحو خمس أقدام وسبع بوصات، شعره أشقر شارف على الشيب، حليق الذقن، يميل جسمه إلى النحافة وخفة الوزن، عيناه رماديتان، يستعمل نظارة، فيه حَدَب حين يمشي. كان

هادئًا ولطيفًا في أسلوبه، شخصيته مترددة ومُذعِنة إلى حدٍّ ما، كما أنه لم يكن قوي البِنية على الرغم من أنه لم يُعانِ أمراضًا أو أسقامًا غير ضعف بصره. وأحسب أنه بلغ الخامسة والخمسين من عمره.»

سأل ثورندايك: «كيف تقاعد من وظيفة مدنية وهو في الخامسة والخمسين؟»

«أوه، هذه الواقعة كانت نتاجًا لحادثة. فقد سقط من فوق ظهر حصان، ولأنه عصبي، تعرض لصدمة حادة. ومكث فترة في حالة اضطراب تام بعد هذه الوقعة. ولكن فقدان بصره هو السبب الفعلي لتقاعُده. يبدو أن الوقعة أضرت ببصره بشكل أو بآخر؛ فمنذ هذه الوقعة، فقد البصر في إحدى عينيه، وهي اليمنى، وبما أنها كانت العين السليمة، فقد ضعف بصره كثيرًا. ومن ثَم مُنح إجازة مرضية في البداية، ثم سُمح له بالتقاعد.»

دوَّن ثورندايك هذه المعلومات ثم قال:

«ذُكر أكثر من مرة أن عمك كان مطالعًا نهِمًا. فهل هذا يعني أنه كان مهتمًّا بضرب من العلوم على وجه التحديد؟»

«نعم. كان متحمسًا لدراسة الحضارات الشرقية. فقد ذهبت به تكليفات عمله ذات مرة إلى يوكوهاما وطوكيو، ومرة أخرى إلى بغداد، وحين كان في هذه الأماكن، أولى لغاتِ هذه البلدانِ وأدبَها وفنونَها قدرًا كبيرًا من اهتمامه. كذلك أولى آثارَ الحضارتَين البابلية والآشورية اهتمامًا كبيرًا، وأظنه ساعد في وقتٍ ما في أعمال التنقيب في مدينة بيرس نمرود.»

قال ثورندايك: «صحيح! عجيب. لم أكن أعلم أنه رجل صاحب إنجازات كبيرة. فالمعلومات التي ذكرها السيد مارشمونت لا تكاد تدفع المرء إلى التفكير بهذا الشكل؛ بمعنى أن يراه عالِمًا له سيرة طيبة.»

قال ستيفن: «لا أعلم إن كان السيد مارشمونت يعلم هذه المعلومة، أو أنه يعدُّها ذات أهميةٍ في القضية. ولا أنا أيضًا حسبت ذلك. ولكن بالطبع ليست عندي خبرة في المسائل القانونية.»

قال ثورندايك: «لا يدري المرء مُطلقًا أي معلومة قد يكون لها ثقل في القضية؛ ولذا الأفضل أن يجمع ما يستطيع جمعه من المعلومات. على أي حال، هل كنت تعلم أن عمك يدخن الأفيون؟»

«لا، لم أكن أعلم. نما إلى علمي أنه يمتلك غليونَ أفيون جلبه معه حين أتى من اليابان، ولكني ظننت أنه مجرد تحفة. أذكر أنه قال لي ذات مرة إنه جرب التدخين من

غليون الأفيون ووجده ممتعًا، ولكنه تسبَّب له في صداع. لكن في الحقيقة لم يكن عندي فكرة أنه اعتاد التدخين، ويسعني القول إنني دُهشت كثيرًا حين ذُكِرَت هذه المعلومة في التحقيقات.»

دوَّن ثورندايك هذه الإجابة أيضًا، ثم قال:

«أعتقد أن هذا كل ما أردت أن أعرفه عن عمك جيفري. لنأتِ الآن إلى السيد جون بلاكمور. هلَّا تخبرني عنه قليلًا؟»

«لا أحسبني أعرف عنه الكثير. لم أرَه منذ أن كنت صبيًّا، إلى أن رأيته في التحقيقات. ولكنه مختلف تمامًا عن عمي جيفري؛ مختلف في المظهر ومختلف في الطباع.»

«إذن، هل تقول إن الأخوين لا يتشابهان جسديًّا؟»

قال ستيفن: «لست على يقين تام من هذا. ربما أبالغ في الفرق بينهما. فأنا أتذكر هيئة عمي جيفري حين رأيته آخر مرة وعمي جون حين رأيته في التحقيق. لم أرَ شبهًا بينهما حينذاك. فجيفري نحيل وشاحب وحليق الذقن، ويستعمل نظارة، ويظهر عنده حدب حين يمشي. أما جون فهو أطول قليلًا، وشعره فيه شيب أكثر، وبصره جيد، وبشرته متوردة وتبدو عليها النضارة والصحة، وقامته منتصبة وتدب فيها الحيوية، كما أنه قوي البنية، وله لحية وشارب شعرهما أسود ولا يتخللهما الشيب إلا قليلًا. وفي نظري، فهما لا يتشابهان على الرغم من أن الملامح متشابهة إلى حد كبير؛ وفي الحقيقة، سمعت أنهما كانا متشابهين لما كانا صغيرين، وأن كليهما يشبه والدتهما. ولكن لا شك عندي في اختلاف طباع أحدهما عن الآخر. فكان جيفري هادئًا وجادًّا ومثابرًا، أما جون فقد كان يميل إلى ما يقال عنه الحياة السريعة؛ فقد اعتاد أن يحضر المسابقات كثيرًا، وأظنه قد راهن في عدد كبير منها.»

«ما مهنته؟»

«هذا صعب تحديده؛ فقد كان يعمل في مهن كثيرة؛ حيث إنه متنوع المهارات. وعلى حد علمي، فقد بدأ حياته مُتدرِّبًا في مصنع جعة كبير، ولكن سرعان ما تركه وعمل في المسرح. وعلى ما يبدو أنه ظل في مهنة التمثيل بضع سنوات، وأخذ يتجوَّل في ربوع هذه البلاد ويزور أمريكا بين الفينة والأخرى. إخال أن نمط الحياة هذا يناسبه، وأحسبه كان ممثلًا ناجحًا. ولكنه ترك المسرح فجأة، ثم عُرف أنه شريك في مكتب مضاربات وهمي في لندن.»

«وماذا يعمل الآن؟»

«قال في المحضر إنه يعمل وسيطَ أسهم؛ ومن ثَم أظنه لا يزال شريكًا في مكتب المضاربات الوهمي ذاك.»

نهض ثورندايك، وأخذ من فوق أرفف المراجع قائمةً بأسماء المكاتب المقيدة في البورصة، وقلب صفحاتها.

قال وهو يعيد المجلَّد: «أنت محق، لا بد أنه وسيط خارجي. فاسمه ليس مقيدًا ضمن الأعضاء المقيدين في البورصة. وعلى حسب ما أخبرتَني به، يُفهم أن المودة بين الأخوَين لم تكن قوية، ولا أريد افتراض وجود أي نوعٍ من الكراهية بينهما. وببساطة لم تكن بينهما اهتماماتٌ مشتركة. هل تعرف شيئًا آخر؟»

«لا. فلم أسمع قط أن نشب بينهما عِراك أو خلاف. وأظن أن انطباعي بتوتر العلاقات بينهما راجعٌ إلى البنود التي تنُص عليها الوصية، لا سيما الوصية الأولى. ومن المؤكَّد أنه لم يسعَ أحدهما إلى صحبة الآخر.»

قال ثورندايك: «هذا الاستنتاج ليس قاطعًا. أما فيما يتعلق بالوصية، فإن الرجل الحريص لا يميل عادةً إلى أن يورِّث أمواله إلى رجل قد يستخدمها في رهانات متهوِّرة في المسابقات، أو في سوق البورصة. ثم أنت موجود، وأنت الوارث الأحق بالتركة؛ حيث إنك ما زلت تستقبل الحياة. لكن هذا مجرد تخمين، والمسألة ليست ذات أهمية كبيرة على حد ما نرى. والآن، أخبِرني عن علاقة جون بلاكمور بالسيدة ويلسون. فعلى حد ما فهمت، هي أوصت بتركتها إلى أخيها الأصغر جيفري. هل هذا صحيح؟»

«نعم. لم توصِ بشيء لجون. والحقيقة أن القطيعة قد دخلت بينهما. وإخال أن جون كان يعاملها معاملة سيئة، أو على الأقل هي ترى ذلك. زوجها الراحل السيد ويلسون خسر بعض الأموال في استثمار له علاقة بمكتب المضاربات الوهمي الذي تحدثت عنه، وأظنها شكَّت في أن جون قد ضلل زوجها. ربما تكون مخطئة، ولكنك تعلم حين تستقر فكرة في عقل النساء.»

«هل تعرف عمتك جيدًا؟»

«لا، لا أعرف الكثير عنها. فقد عاشت في ديفونشَير ولم تزُر أيًّا منَّا إلا قليلًا. وكانت قليلة الكلام وعنيدة، على غير عادة أخوَيها. يبدو أنها كانت تشبه عائلة والدها.»

«من فضلك، أعطني اسمها بالكامل.»

«جوليا إليزابيث ويلسون. واسم زوجها إدموند ويلسون.»

«شكرًا لك. نقطة أخيرة. ما الذي حدث لشقة عمِّك في مجمع نيو إن منذ وفاته؟»

«إنها مغلقة منذ ذلك الحين. وبما أنني ورثت كل ممتلكاته، فقد نُبْتُ عنه في الإيجار في الوقت الحالي كي لا يُعبث بها. فكرت في أن أُبقيها وأستخدمها لأغراضي الشخصية، ولكن لا أحسبني أطيق المكوث فيها بعد ما شاهدته.»

«إذن، هل فتشتها؟»

«أجل، ألقيت نظرة سريعة على ما بداخلها. فقد كنت هناك في يوم التحقيق.»

«قل لي، حين ألقيت نظرة سريعة على الشقة، ما الانطباع الذي تركته فيك بشأن عادات عمك ونمط حياته؟»

ارتسمت ابتسامة اعتذار على شفتَي ستيفن. قال: «إخالها لم تترك أي انطباعٍ خاصٍّ في هذا الصدد. نظرت في غرفة الجلوس ورأيت فيها كل متعلقاته الشخصية المعتادة، ثم دخلت إلى غرفة النوم، ورأيت الأثر الذي تركته الجثة في موضعها على الفراش، وحينئذٍ أحسست بالرعب لدرجة أني خرجت من فوري.»

حاجَّه ثورندايك: «ولكن لا بد أن مظهر الشقة قد ترك شيئًا في عقلك.»

«لا أظن ذلك. فكما تعلم، ليست عندي عينُك الناقدة. ولكن، هل تحب أن تنظر فيها بنفسك؟ وإذا كنت تحبُّ ذلك، أرجو أن تفعل. إنها شقتي الآن.»

رد ثورندايك: «أحسب أنه ينبغي أن أُلقي نظرة على الشقة من الداخل.»

قال ستيفن: «جميل جدًّا. سأعطيك بطاقتي الآن، وسأُعرِّج على غرفة البوَّاب الآن، وأُخبره أن يعطيَك المفتاح متى أردت أن تُلقي نظرة.»

أخرج بطاقة من حقيبته وكتب عليها بضعة سطور وأعطاها لثورندايك.

قال: «إني أقدِّر لك كل جهودك. وكما هي الحال مع السيد مارشمونت، لا أتوقع أن تُفضي جهودك إلى أي نتائج، ولكني ممتنٌّ لك من أعماقي على الدراسة الشاملة للقضية. ولكن إذا سمحت لي، هل ترى أي ثغرة يمكن أن ننفذ منها للطعن في الوصية؟»

رد ثورندايك: «في الوقت الحالي، لا أرى. ولكن حتى أدرس كل واقعةٍ مرتبطة بالقضية بعناية، سواء كان لها علاقة واضحة أم لا، فلن أعربَ عن أي آراء أو أفكر فيها بأي حال من الأحوال.»

حينئذٍ غادَرَ ستيفن بلاكمور، ولما جمع ثورندايك قصاصات الورق التي دوَّن عليها ملاحظاته، نظمها وثقبها بثقبين وأدخلها في ملف صغير ثم وضع الملف في جيبه.

قال: «هذه نواة البيانات التي يجب أن تُبنى عليها تحقيقاتنا، وإني أخشى ألَّا نصل إلى أي معلوماتٍ إضافيةٍ مهمة. ما رأيك في هذه القضية يا جيرفيس؟»

أجبته: «ما رأيتُ قضيةً ميئوسًا منها مثل هذه القضية.»

قال: «وهذا ما أراه؛ ولذلك فأنا حريص كل الحرص أن أحرز تقدمًا فيها. والأمل عندي ليس أكثر مما عند مارشمونت، ولكني سأستنفد كل الفرص الممكنة قبل أن أتخلى عنها. ما الذي ستفعله؟ فأنا ينبغي أن أحضر اجتماعًا لمجلس إدارة مكتب جريفين لايف.»

«هل آتي معك؟»

«يسرني عرضك يا جيرفيس، ولكن أرى أن أذهب وحدي. أريد أن أدرس هذه الملاحظات وأنظِّم وقائع القضية في ذهني. وحين أنتهي من ذلك، سأكون مستعدًّا لاستيعاب معلومات أخرى. فلا فائدة تُرجى من المعلومات إذا لم يستوعبها ذهنك استيعابًا فعليًّا، بحيث يستطيع استرجاعها في الحال. لذا، حريٌّ بك أن تأخذ كتابًا تقرأ فيه، وتدخن غليونك، وتقضي ساعة هادئة بالقرب من المِدفأة، ريثما أستوعب هذه المعلومات المتنوعة التي وصلت إلينا. ويمكنك أن تدخل في نوبة تأمُّل.»

حينئذٍ، غادر ثورندايك، وقد أخذت بنصيحته وسحبت كرسيًّا بالقرب من المدفأة وملأت غليوني. ولكني لم أجد في نفسي أي ميل إلى القراءة. إن الوقائع الغريبة التي سمعتها للتَّو، وإصرار ثورندايك الواضح على توضيحها أكثر جعلاني أميل إلى التأمُّل. وبصفتي مرءوسًا له، فمن شأني أن أشغل نفسي بأموره. ومن ثَم حين أشعلت المدفأة وأشعلت غليوني أيضًا، انغمست في التفكير مجددًا بشأن الوقائع المتعلِّقة بوصية جيفري بلاكمور.

الفصل السابع

النقش المسماري

أرى أن المفاجأة التي عادةً ما تُسببها قضايا ثورندايك، خاصة للمحامين، ترجع في المقام الأول إلى عادة صديقي في رؤية الأحداث من وجهة نظر غير عادية. إنه يختلف عن الآخرين في نظرتهم إلى الأشياء. كذلك لم تصبه آفة التحيُّزات ولا تقيده الأعراف. فحين يبالغ الآخرون في ثقتهم، فإن ثورندايك يساورُه الشك. وحين يقنطون، فإنه لا يقطع الرجاء، وكثيرًا ما قبل قضايا رفضها محامون مخضرمون ازدراءً، والأدهى أنه كسبها.

لم يسبق أن عمِلت معه في قضية من هذا القبيل إلا في قضية واحدة، وقد أُطلق عليها قضية «بصمة الإبهام الحمراء». قُدمت له هذه القضية وهي مستحيلة الحل في ظاهرها، ولكنه عكف على دراستها دراسةً مُتأنِّية. ومن ثَم نقلها من فئة الاستحالة إلى الاحتمال، ومن الاحتمال إلى الرُّجحان، ومن الرُّجحان إلى التأكيد، وفي النهاية حقق فيها نصرًا مُؤزَّرًا.

هل من الممكن أن يفعل شيئًا في القضية التي بين أيدينا؟ فهو لم يرفضها على أي حال. لا شك أنه قبِلها وربما يعكف على دراستها الآن. لكن لم يسبق أن رأيت قضية صعبة كتلك القضية. فالقضية تدور حول رجل صاغ وصيته، وربما كتبها بنفسه، ويأتي بها طواعيةً إلى مكان مُعيَّن ويوقِّع عليها في حضور شاهدَي عدل. وليس ثمة ما يقول إن أحدًا أكرَهَه أو أثَّر في قراره أو أقنعه. ويشهد الناس للموصي بأنه كان في كامل قواه العقلية، وإذا لم تتسق الوصية مع رغباته — على الرغم من عدم إمكانية إثبات ذلك — فالسبب يرجع إلى عدم اكتراثه في صياغة الوصية، ولا يرجع إلى ظروف غير عادية. والمشكلة التي يبدو أن ثورندايك عاكف على دراستها هي البحث عن ثغرة للطعن في تلك الوصية.

أعدتُ التفكير في الإفادات التي سمعتُها، وقلبتها كثيرًا في ذهني ولم أخرج بنتيجة غير التي خرج بها السيد مارشمونت. ومن الوقائع التي انتبه إليها ذهني بقدر من

الفضول هي رغبة ثورندايك الواضحة في تفتيش شقة جيفري بلاكمور. صحيح أنه لم يُظهر رغبته في ذلك، ولكني لمست رغبته تلك حين طرح الأسئلة على ستيفن؛ لأنه لم يسعَ إلى الحصول على معلوماتٍ واضحة، بل أراد خَلْق فرصة كي يُفتِّش الشقة بنفسه.

وبينما أفكر في الموضوع، عاد زميلي ومن ورائه بولتون اليقظ حاملًا صينية شاي، وقد انهلت عليه بالأسئلة من فوري.

قلت: «حسنًا يا ثورندايك، عكفت على التفكير في قضية بلاكمور حين كنتَ بالخارج.»

«وهل أعتبر أنك وجدت حلًّا للمشكلة؟»

«قطعًا لا. لا يمكنني التوصل إلى حل.»

«إذن، حالي ليس أفضل من حالك.»

«لكن إذا لم يكن بإمكانك التوصُّل إلى حل، فلماذا قبلتها؟»

قال ثورندايك: «أنا لم أقبل سوى التفكير في القضية. وأنا لا أرفض قضية رفضًا قاطعًا إلا إذا كانت الريبة فيها جليَّة. والعجيب أنك ترى الصعوبات وحتى المستحيلات تتبخَّر إذا نظرت إلى الأمور بنظرة مُتفحِّصة. وقد علمتني التجارب أنه حتى القضايا غير المحتملة الحل تستحق التفكير فيها على الأقل.»

«على أي حال، لماذا تريد البحث في شقة جيفري؟ ما الذي تتوقع أن تعثر عليه فيها؟»

«لا أتوقع شيئًا على الإطلاق. إنني ببساطة أبحث عن الوقائع الشاردة.»

«وكل هذه الأسئلة التي سألتها لستيفن بلاكمور، ألم يكن في ذهنك شيء ما … ألم يكن في بالك غرضٌ محدَّد؟»

«لم يكن في بالي أي غرض سوى معرفة أكبر قدر ممكن من الحقائق.»

تعجبت: «ولكن هل تعني أنك ستُفتِّش هذه الشقة من دون أي غرض محدَّد على الإطلاق؟»

رد ثورندايك: «لم أقصد ذلك. فهذه قضية قانونية. سأضرب لك مثالًا بحالة طِبيَّة كي أُقرب لك الصورة. هب مريضًا جاءك يشكو نُقصانًا مُطَّردًا في الوزن. هذا المريض قد لا يعطيك تفسيرًا. فهو لا يشكو ألمًا ولا انزعاجًا ولا أعراضًا من أي نوع؛ باختصار، يشعر المريض أن صحته جيدة في كل الجوانب؛ لكنه لا يبرح يفقد الوزن. ما الذي ستفعله حينئذٍ؟»

أجبت: «سأفحصه فحصًا شاملًا.»

«لماذا؟ ما الذي تتوقَّع أن تجده؟»

«لا يسعني القول إنني سأبدأ بطرح توقعات مُعيَّنة. بل إنني سأفحص كل عضو في جسمه وكل وظيفة، وإذا لم أكتشف أي شيء غير عادي، فسأتوقف عن الفحص.»

قال ثورندايك: «بالضبط. وهكذا سيكون موقفي ونهجي. فنحن أمام قضية عادية تمامًا ومباشرة إلا في جانب واحد. فالقضية لا تنطوي على جوانب غريبة إلا جانبًا واحدًا. وهذا الجانب الغريب ليس له تفسير.

حرر جيفري بلاكمور وصية. وهذه الوصية صيغت صياغة جيدة ومن الواضح أنها اتَّسقت مع نواياه. ثم ألغى هذه الوصية وحرر وصية أخرى. ولم يطرأ تغيُّر في ظروفه أو في نواياه. وقد ظن أن بنود الوصية الجديدة مطابقة لبنود الوصية القديمة. ولا تختلف الوصية الجديدة عن الوصية القديمة إلا في خلل واحد في الصياغة خلت منه الوصية الأولى، ولا بد أنه لم يعِ ذلك العيب. والآن، لماذا ألغى الوصية الأولى وحرر مكانها وصية جديدة، وفي ظنه أن البنود متطابقة في كلتيهما؟ لا توجد إجابة عن هذا السؤال. وهذه سمة غريبة في القضية. لا بد أن هناك تفسيرًا لهذه الحالة الغريبة، ومهمتي هي أن أضع يدي على هذا التفسير. ولكن الوقائع التي بلغتني لا تؤدي إلى هذا التفسير. ولذا فأنا أهدف إلى البحث عن وقائع جديدةٍ يمكن أن تعطيني نقطة انطلاق لفتح تحقيق جديد.»

هذا التصريح من ثورندايك بشأن خطته في التعامل مع القضية لم يُقنعني كثيرًا، على الرغم من أنه منطقي. ولم أجِدْني أعود إلى موقف مارشمونت وأرى أن القضية ليس فيها شيءٌ يمكن التنازع عليه. ولكن استحوذَت مواضيع أخرى على تركيزنا في تلك اللحظة، ولم يعد زميلي إلى الحديث عن تلك القضية إلا بعد العشاء.

سأل: «هل تود أن نأخذ جولة صغيرة في مجمع نيو إن هذا المساء؟»

قلت: «أحسب أن الأفضل لنا أن نذهب في وضح النهار. فهذه المساكن القديمة عادةً ما تكون سيئة الإضاءة.»

قال ثورندايك: «تفكير جيد. إذن، حريٌّ بنا أن نأخذ مصباحًا معنا. اسمح لي أن أصعد إلى المختبر وأجلب واحدًا من بولتون.»

قلت: «لا حاجة إلى ذلك؛ فالكشاف الذي أعطيتني إياه لا يزال في جيب معطفي. وقد وضعته في الجيب كي أعيده لك.»

سأل: «وهل استخدمته؟»

«نعم. فقد زُرت المنزل الغامض مرة أخرى ونفذت خطتك. وسأقصها عليك لاحقًا.»

«بل قُصَّها الآن. فإني حريصٌ كل الحرص على أن أسمع عن مغامراتك. هل مقدار الطاقة المتبقي كبير؟»

«أوه نعم. فأنا لم أستخدمه إلا لمدة ساعة تقريبًا.»

قال ثورندايك: «لننطلق إذن»، وبناءً على ذلك انطلقنا إلى هدفنا، ولما ذهبنا، فكرت مرة أخرى في الغموض الواضح الذي يكتنف إجراءاتنا. ومن ثَم أعدتُ فتح الموضوع مع ثورندايك.

قلت: «لا أتصور أنك لا ترى تفسيرًا يلوح في الأفق. ولا أتصور أنك ستذهب إلى هذا المكان من دون أن يكون لك هدف محدَّد.»

رد ثورندايك: «لم أقُل ذلك بالضبط. بل قلت إنني لا أبحث عن شيء أو واقعة بعينها. إني ذاهب لعلِّي أرصد شيئًا يبدأ سلسلة جديدة من الفَرضيات. ولكن هذا ليس كل شيء. فأنت تعلم أن التحقيق يتتبع مسارًا منطقيًّا محدَّدًا. يبدأ التحقيق بتدوين الوقائع الواضحة. وقد أتممنا تلك الخطوة. وهذه الوقائع قد قدمها مارشمونت. الخطوة الثانية هي طرح فرضيةٍ أو تفسيرٍ مؤقت أو أكثر. وقد أتممنا هذه الخطوة أيضًا، أو على الأقل أنا أتممتُها، وأظن أنك أيضًا أتممتها.»

قلت: «لم أفعل، فها هي وصية جيفري، ولكني لا أفهم البتة لماذا أدخل هذا التغيير. ولكني أود سماع نظرياتك المؤقتة حول هذه القضية.»

«لم يحِن وقت سماعها بعد. فهي مجرد تخمينات لا تقف على أرض صلبة. لكن لنعُد إلى حديثنا؛ ما الخطوة التالية؟»

«أن نذهب إلى مجمع نيو إن ونواصل الحديث عن شقق الرجل المتوفَّى.»

تجاهل ثورندايك إجابتي مبتسمًا وأردف …

«ندرس كل التفسيرات واحدًا تلو الآخر ونرى ما يترتب عليها؛ بمعنى هل تتَّسق مع الوقائع وتؤدي إلى اكتشاف وقائع جديدة، أم أنها — على الجانب الآخر — تختلف معها وتُفضي بنا إلى نتيجة غير معقولة. سأضرب لك مثالًا بسيطًا.

هَبْنا وجدنا عددًا من الكُتل الحجرية الكبيرة نوعًا ما منثورةً في حقل، وهذه الحجارة مختلفة في خصائصها عن الحجارة الموجودة في المنطقة. السؤال هنا، كيف وصلت هذه

الحجارة إلى الحقل؟ أمامنا ثلاثة تفسيرات. الأول: هذه الحجارة ناتجة عن نشاط بُركاني سابق؛ الثاني: البشر أحضروها من مسافة بعيدة؛ الثالث: جبال جليدية حملتها من دولة نائية إلى ذلك المكان. كل تفسير من هذه التفسيرات ينطوي على تبِعات معينة. إذا كانت الصخور بُركانية، فقد مرَّت بحالة انصهار. ولكننا نكتشف أنها حجارة كلسية غير متحولة وتحتوي على حَفريات. إذن، فهي غير بُركانية. وإذا أتت مُحمَّلة في جبال جليدية، فقد سبق أن دخلت في تكوين كتلة جليدية، وربما يظهر في بعضها أسطح ملساء ذات كشوط متوازية توجد في الحجارة التي تحملها الكتل الجليدية. ثم فحصناها ووجدنا خاصية الأسطح المكشوطة. إذن، ربما أتت بها الجبال الجليدية إلى هذا المكان. ولكن هذا لا يستبعِد القوة البشرية؛ لأنه ربما أحضرها رجال إلى هذا المكان من مكان آخر، حيث رسَّبتها الجبال الجليدية. ومن ثَم سنحتاج إلى المزيد من المقارنات مع وقائع أخرى.

وهكذا نشرع في تحليل القضايا التي تشبه القضية الحالية. وبناءً على الوقائع التي نعرفها، نصوغ تفسيرات معينة. ومن كل تفسير، نستنتج التبِعات، وإذا اتفقت هذه التبِعات مع وقائع جديدة، فإنها تؤكد التفسير، وإذا لم تتفق، فعادةً ما تدحَض التفسير. ولكن، ها نحن قد وصلنا وجهتنا.»

خرجنا من شارع ويتش، وسِرنا في ممرٍّ مسقوف يؤدي إلى مجمع نيو إن، وتوقفنا عند الباب الهولندي لغرفة البواب، ورأينا رجلًا قوي البنية، وجهه مشرب بالحُمرة يربض عند المدفأة ويَسعل بقوة. رفع يده للإشارة إلى أنه لا يستطيع الرد في هذه اللحظة، وبناءً على ذلك انتظرنا حتى تهدأ نوبة السُّعال. وفي النهاية، التفت إلينا وهو يمسح عينيه وسألنا عما نريد.

قال ثورندايك: «أعطانا السيد ستيفن بلاكمور الإذن كي نُفتِّش شقته. وقال إنه سيترك لك خبرًا.»

قال البواب: «لقد أعلمَني يا سيدي، ولكنه أخذ المفتاح بنفسه كي يذهب إلى الشقة. وإذا عبرت مجمع نيو إن، فستجده هناك، يقع المبنى في الطرف الآخر، رقم واحد وثلاثين، الطابق الثاني.»

شققنا طريقنا إلى المبنى المشار إليه، وقد شُغل الطابق الأرضي منه بمكاتب محامين، وميَّزَته لوحة نحاسية كبيرة الحجم. وعلى الرغم من حلول الظلام منذ مدة، وعدم وجود مصابيح تُنير السلالم في الطابق الأرضي، قابلنا رجلًا عند بسطة الطابق الأول، وقد أضاء مصباحًا لتوِّه. توقَّف ثورندايك كي يحادثَه.

«من فضلك، من الساكن في الشقة في الطابق الثالث؟»

رد الرجل: «الطابق الثالث فارغ منذ نحو ثلاثة أشهر.»

قال ثورندايك: «إننا سنُلقي نظرة على الشقة في الطابق الثاني. فهل الأجواء هادئة كثيرًا؟»

تعجَّب الرجل: «ما أهدأَها! المكان، أعزَّكم الله، أشبه بمقبرة للصُّم والبُكم. يشغل محامون الطابق الأرضي ويشغل مهندسون مِعماريُّون الطابق الأول. وكلهم يغادرون المبنى في حوالي الساعة السادسة، وعندما يرحلون، يصبح المكان فارغًا وكأنه طلَل. لا عجب من أن السيد بلاكمور المسكين قد أنهى حياته بنفسه. فقد عاش وحيدًا، ولا بد أنه كان مثل روبنسون كروزو، ولكن من دون أن يرافقه صديقه فرايداي ولا حتى عنزة حيَّة يتحدث معها. ما أهدأه من مكان! إنه هادئ للغاية إن كان هذا ما تريد. إني لا أفضل هذا المكان على الإطلاق.»

بهزة من رأسه تنُم عن الازدراء، التفت ونزل على درجات السُّلم، ولما تلاشت أصداء خطواته تابعنا صعودنا.

علَّق ثورندايك: «إذن، يبدو أن المنزل كان فارغًا حين أتى السيد جيفري بلاكمور في آخر ليلة له.»

حين وصلنا إلى الطابق الثاني، وقفنا أمام باب قوي، وعلى عتبته العُلوية مكتوب اسم المتوفَّى بحروف بيضاء لا تزال جديدة. طرق ثورندايك الباب؛ ومن ثَم فتحه ستيفن بلاكمور على الفور.

قال زميلي حين دخلنا: «كما ترى، لم أُضيِّع أي وقت كي أستغل الإذن الذي منحتني إياه.»

قال ستيفن: «في الحقيقة لم تُضيِّع أي وقت، فأنت حريص على مواعيدك. ولكني كنت أتساءل ما المعلومات التي يمكن أن تجمعها من تفتيش هذه الشقة.»

ارتسمت ابتسامة لطيفة على شفتَي ثورندايك، ولا شك أنه استمتع بتشابه تعليقات ستيفن مع تعليقاتي التي انتقدها منذ قليل.

قال: «العالِم يا سيد بلاكمور لا يتوقع شيئًا. بل إنه يجمع الوقائع ويُبقي عقله يقِظًا. وبالنسبة لي، فأنا مجرد داهية في القانون، أقتنص المعلومات الصغيرة التي يُغفَل عنها في الإفادات. وحين أُجمِّع بضع وقائع، فإني أنظمها، وأُقارن بينها، وأفكر فيها. تُفضي

المقارنة أحيانًا إلى مادةٍ جديدةٍ وأحيانًا لا تُفضي، ولكن على أي حال، صدقني أن الخطأ الأكبر هو أن نحدد مسبقًا البيانات التي نريد السعي وراءها.»

قال ستيفن: «أجل، أحسبُك على حق، ولكن يُخيَّل إليَّ أن السيد مارشمونت على حق؛ أي أنه لا توجد قضية للتحقيق فيها.»

ضحك ثورندايك: «ينبغي أن يكون هذا رأيك، ولكن قبل أن تطلب مشورتي. وفي الوقت الحالي، فأنا ملتزم بدراسة القضية وسأدرسها، وكما قلت، سأُبقي عقلي يقِظًا إلى أن تصير كل الوقائع في حَوزتي.»

نظر في غرفة الجلوس بعد أن دخلناها وأردف قائلًا:

«هذه شقة قديمة جميلة وفخمة. ولا يليق أن نَطمِس جمال هذه الألواح البلُّوطية وهذه الكرانيش المنقوشة ورف الموقد بالطلاء. تخيل كيف سيكون شكل الشقة لو ظهرت هذه الأنماط الجميلة في الخشب.»

علَّق ستيفن: «ستنخفض الإضاءة.»

وافقه ثورندايك: «أجل، وأحسب أننا نهتم بالإضاءة على حساب الجمال أكثر مما فعل أسلافنا. والآن أخبرني، بالنظر في هذه الشقة، هل تترك فيك انطباعًا مُماثلًا للانطباع الذي تركته فيك الشقة القديمة؟ هل لها الطابع العام نفسه؟»

«ليس تمامًا، في رأيي. بالطبع الشقة في شارع جيرمين لها تصميم مختلف، ولكن بصرف النظر عن ذلك، فإنني أرى أن هناك فارقًا مُعَينًا، وهذا الفارق غريب نوعًا ما؛ حيث إن الأثاث لم يختلف. لكن الشقة القديمة مُريحة ومألوفة أكثر. إنني أرى شيئًا صارخًا وكئيبًا، بل يكاد يكون قذِرًا، في شكل هذه الشقة.»

قال ثورندايك: «هذا ما توقعته. فإن إدمان الأفيون يُغير شخصية الرجل تغييرًا عميقًا، وبصرف النظر عن الأثاث وحده، فإن المسكن يُبرز شخصية ساكنه إلى حدٍّ ما، ولكن بشكلٍ واضح، لا سيما إذا كان ساكنه يعيش مُنعزِلًا. هل ترى أي أدلةٍ على الأنشطة التي اعتاد عمُّك أن يمارسها؟»

رد ستيفن: «ليس كثيرًا. ولكن قد لا يكون المكان مثلما تركه تمامًا. فقد وجدت كتابًا أو كتابَين على الطاولة وأعدتهما إلى الرف، ولكني لم أجد مخطوطات أو ملاحظات مثل التي كان يكتبها. ولاحظت أيضًا أن لوح الحبر الخاص به، الذي كان يحافظ عليه نظيفًا تمامًا، مُغطًّى بلطخات جافة، وأن قلم الحبر قد تشقَّق في النهاية، وكأنه لم يستخدمه منذ شهور. يبدو أن هذه الملاحظة تشير إلى تغيُّر كبير في عاداته.»

سأل ثورندايك: «ما الذي اعتاد أن يفعله بالحبر الصيني؟»

«كان يراسل بعض أصدقائه اليابانيين، وقد اعتاد أن يكتب لهم باللغة اليابانية، حتى وإن كانوا يعرفون اللغة الإنجليزية. وكانت هذه المراسلات هي الغرض الأساسي لاستخدام الحبر الصيني. ولكنه أيضًا اعتاد نَسْخ النقوش من هذه الأشياء.» وهنا، أخذ ستيفن شيئًا من فوق رف الموقد وكأنه كعكة أُحفورية، ولكنه كان في الواقع لوحًا طينيًّا مُغطًّى بكتابات دقيقة منقوشة.

«كان عمُّك يعرف قراءة الحروف المسمارية إذن؟»

«أجل، كان خبيرًا بها. وأظن أن هذه الألواح عقود إيجار ووثائق قانونية أخرى من مدينة إريدو وغيرها من المدن البابلية. وقد اعتاد أن ينقل هذه النقوش بالكتابة المسمارية ثم يترجمها إلى اللغة الإنجليزية. لكني لن أستطيع المكوث هنا أكثر من ذلك لأن عندي موعدًا هذا المساء. وقد أتيت إلى هنا فقط كي آخُذ هذَين المجلَّدَين بعنوان «تاريخ بابل لثورنتون»، فقد نصحني أن أقرأهما. هل أُعطيك المفتاح؟ الأفضل أن تأخذه ثم تعطيه للبواب حينما تخرج.»

تصافحنا وخرجنا معه إلى بسطة السُّلم وراقبناه وهو ينزل السلم. حين نظرت إلى ثورندايك في ضوء مصباح الغاز على بسطة السلم، أحسبُني اكتشفت تغيُّرًا لا يُدرَك في تعبيرات وجهه الجامدة، وقد سبق أن أشرت إلى أن هذه التعبيرات تنُم عن المتعة أو الرضا.

علقت: «أراك مُبتهِجًا بنفسك.»

رد بهدوء: «أنا لست مُستاءً. فقد جمع الداهية بضع قصاصات معلومات، قصاصات صغيرة للغاية، ولكنها تبقى قصاصات. لا شك أن مُساعِده المثقَّف قد جمع بضع قصاصات أيضًا، أليس كذلك؟»

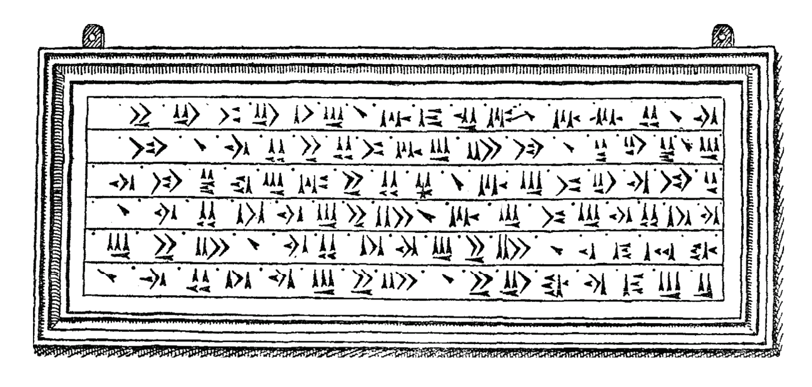
هززت رأسي، وفي داخلي شككت أني غبي.

قلت: «لم ألاحظ أي شيء مهم على الإطلاق فيما أَخبرَك به ستيفن. لقد كان الأمر كله مثيرًا للاهتمام، ولكن لا يبدو أن له أي تأثير في وصية عمِّه.»

«لم أُشِر فقط إلى ما أخبرنا به ستيفن، على الرغم من أنه مثير للاهتمام كما قلت. فبينما كان يتحدث، كنت أنظر في الغرفة وقد رأيت شيئًا غريبًا. اسمح لي أن أُريك إياه.»

شبك ذراعه في ذراعي وعاد بي إلى الغرفة، ووقف أمام المدفأة.

قال: «انظر هناك. إنه أكثر شيء لافت للنظر.»



النقش المقلوب.

نظرت في الاتجاه الذي ينظر فيه، ووقعت عيني على إطارٍ مستطيلٍ يحيط بصورةٍ كبيرةٍ لنقش مكتوب بحروف غريبة وغامضة على شكل رءوس أسهم. نظرت إليها صامتًا لبضع ثوانٍ ثم أصابني الإحباط، علَّقت:

«في ظل هذه الظروف، لا أرى في اللوحة أي شيء لافت للنظر. وأعترف أنه يمكن أن توجد لوحة كهذه في أي غرفة عادية، ولكن أخبرَنا ستيفن لتوه أن عمَّه كان خبيرًا في الكتابة المسمارية.»

قال ثورندايك: «بالضبط. هذا ما أرمي إليه. هذا ما يجعل تلك اللوحة لافتة للنظر.»

قلت: «أنا لا أفهمك على الإطلاق. رجل علَّق على حائط في بيته صورة لنقش يفهمه هو، ولا أرى أي غرابة في ذلك. بل الأغرب أن يعلق صورة لنقش لا يستطيع أن يقرأه.»

رد ثورندايك: «لا شك. ولكن ستتفق معي أن الأغرب أن يعلق رجل على حائط في منزله صورة لنقش يستطيع قراءته، ولكن يُعلقها مقلوبة.»

حدقت في ذهول إلى ثورندايك.

سألت مُتعجبًا: «هل تقصد أن تُخبرني أن الصورة مقلوبة حقًّا؟»

رد: «أجل.»

«ولكن كيف علمت؟ هل معَنا هنا عالم آخر في الحضارات الشرقية؟»

أخفى ثورندايك ضحكه. رد: «يُقال إن قِلة المعرفة خطر. وربما تكون كذلك حين تُقارَن بكثرة المعرفة، ولكنها أفضل بكثير من عدم المعرفة. ونحن في موقف مُشابه. فقد قرأت باهتمام بالغ التاريخ الرائع لفك طلاسم الكتابة المسمارية، وتصادف أني تذكرت

حقيقة أو حقيقتين أراهما يستحقَّان التذكُّر. هذا النقش بالتحديد مكتوبٌ بالكتابة المسمارية الفارسية، وهو شكلٌ أبسط وأسهل من النقوش البابلية أو الآشورية، وفي الواقع، أظن أن هذا هو النقش الشهير الموجود على بوابة برسبوليس، وهو أول نقش فُكَّت طلاسمُه، وهذا قد يفسر سبب وجوده هنا في إطار. يتكوَّن هذا النقش — كما ترى — من نوعَين من الحروف: الحروف الصغيرة المصمَتَة المدبَّبة، وتُعرف باسم الأسافين، وحروف أخرى أكبر ومنفرِجة أكثر، تشبه السهام العريضة التي تتخذها حكومتنا، وتُسمَّى رءوس السهام. بالطبع أسماء الحروف غير موفَّقة؛ حيث إن كِلا النوعَين من الحروف يُشبه الأسافين ويشبه رءوس السهام. يُقرأ النص من اليسار إلى اليمين مثل اللغة الإنجليزية، وهذه الطريقة تخالف الشعوب السامية والحضارات الإغريقية البدائية، وتتمثَّل قاعدةُ وضع الحروف في أن تُوجَّه «الأسافين» جهة اليمين أو إلى الأسفل، وتوجَّه الجهة المنفرجة من رءوس السهام جهة اليمين. لكن حين تنظر إلى الصورة، سترى أن كل الأسافين موجَّهة إلى الأعلى جهة اليسار، وأن كل حروف رءوس السهام موجَّهة جهة اليسار. وهذا يبين أن الصورة مقلوبة.»

تعجبت: «ولكن هذا غامض حقًّا. فما تفسيرك لهذا الأمر؟»

رد ثورندايك: «أظن أنه ربما نجد معلومة على ظهر الإطار. لنرى ذلك.»

فك الإطار من المسمارَين المُعلَّق عليهما، وقلبه ونظر في ظهره، ثم أعطاني إياه كي أنظره. رأيتُ مُلصَقًا على الظهر يحمل الكلمات «جيه بادج، صانع إطارات وفني طلاء، ١٦ شارع جريت آن، المنطقة الغربية الوسطى.»

حين قرأت الملصَق ولم أتوصل منه إلى أي معلومة جديدة، قلت: «وماذا بعد؟»

«تلاحظ أن الملصَق في الاتجاه الصحيح لتعليق الإطار على الحائط.»

رددت سريعًا، وأنا منزعج قليلًا من أنني لم أرصد هذه الحقيقة الواضحة بسرعة: «أجل. لقد فهمتك الآن. هل تعني أن صانع الإطار قلب الصورة وجيفري لم يلاحظ هذا الخطأ؟»

قال ثورندايك: «تفسير سليم. ولكن أرى أن هناك شيئًا آخر. ستلاحظ أن الملصَق قديم؛ ولا بد أنه مر عليه بضع سنوات، وهذا واضح من مظهره الرث، وفي الوقت نفسه أرى أن الحمَّالتين المعدِنيَّتين جديدتان نوعًا ما. ولكن يمكننا قريبًا أن نختبر هذا الأمر؛ لأنه من الواضح أن الملصَق لُصق عندما كان الإطار جديدًا، وإذا ثُبتت الحمَّالتان في وقت لصق الملصَق، فإن الخشب الذي يُغطِّيانه سيكون نظيفًا وجديد المظهر.»

أخرج من جيبه سكينًا «متعدِّد الاستخدامات»، ومن بينها نَصْلٌ لفك البراغي، وقد استخدمه بحرص كي يفك البراغي من إحدى الحمالتين النحاسيتَين التي يُعلَّق منها الإطار في المسامير.

وحين أزال الحمالة وقرَّب الصورة من شعلة الغاز، قال: «ترى أن الخشب المغطَّى باللوح مُتَّسخ، وترك الزمن أثره فيه مثل باقي الإطار. وهذا يعني أن الحمالتَين وُضِعَتا منذ فترةٍ قصيرة.»

«وما الذي نستنتجه من ذلك؟»

«بما أنه لا توجد علامات على وجود حمَّالات أخرى أو حلقات في الإطار، فيمكننا أن نستنتج أن الصورة لم تُعلَّق إلى أن أُحضرت إلى هذه الشقة.»

«أجل، أظن أن هذا محتمل. ولكن ماذا بعد؟ ما الذي يؤدي إليه هذا الاستنتاج؟»

فكر ثورندايك بضع دقائق، أما أنا فأردفت:

«واضحٌ أنك ترى فرضيات في هذه الصورة أكثر مما أرى. وأحب أن أسمع توضيحك لأهميتها في القضية، إن كان لها أي أهمية.»

أجاب ثورندايك: «سواء كان لها أهمية في القضية أم لا، فلا يمكنني أن أعرف ذلك في المرحلة الحالية. قلت لك إنني اقترحت في نفسي بضع فرضيات لتفسير وصية جيفري بلاكمور وتوضيحها، ويسعني القول إن وضع الصورة في غير محلها يتَّسق مع أكثر من فرضية من تلك الفرضيات. لن أقول أكثر من هذا؛ لأنني أرى أن الأصلح لك في هذه القضية أن تفك عُقدها بمفردك. فأنت عندك كل الوقائع التي عندي، وسأعطيك نسخة من الملاحظات التي دونتها من كلام مارشمونت عن القضية. وبتوفُّر هذه المادة لديك، حرِيٌّ بك أن تتمكن من التوصل إلى بعض الاستنتاجات. بالطبع قد لا يتمكَّن أحدنا من فك عُقد القضية؛ حيث إنها لا تحمل أي أملٍ في الوقت الراهن، ولكن بغَض النظر عما يحدث، يمكننا تبادل الملاحظات فيما بعد، وستكتسب خبرةً أكبر في التحقيقات الفعلية. ولكن سأعطيك تلميحًا تبدأ منه، وهو: يبدو أنك ومارشمونت لا تُقدِّران الوقائع التي أُخبِرنا بها حق تقديرها.»

«أرى أن مارشمونت يدرك تمامًا أن هذه الوصية غريبة كثيرًا.»

وافقني ثورندايك: «أجل، إنه يدرك. ولكن ليس هذا ما أقصده. بل أعني أنه حين تؤخذ مجموعة الملابسات جُملةً بعضها بجانب بعض، وتُربط إحداها بالأخرى، فإنها تُذهلني وتلفت نظري، ومن أجل ذلك أُولي قدرًا كبيرًا من الاهتمام للقضية التي تبدو

للوهلة الأولى غير مُبَشِرة. انسخ الملاحظات التي دوَّنتها يا جيرفيس، وادرس الوقائع بعين ناقدة. وأظنُّك سترى ما أرمي إليه. لنبدأ في عملنا الآن.»

أعاد الحمَّالة النحاسية في مكانها وربط البراغي مرة أخرى، ثم علق الإطار، وشرع في تفتيش الغرفة ببطء، يتوقَّف بين الفَينة والأخرى كي يتفحص لوحات ملوَّنة يابانية وصُورًا موضوعة في إطارات لبعض الأبنية، وغيرها من الأشياء الأثرية التي لم أرَها سوى محاولاتٍ لتزيين الجدار. وقد لفت انتباهي إلى إحدى هذه اللوحات.

علَّق: «هذه اللوحات لها قيمة. فهذه اللوحة رسمها أتامارو؛ حيث إن الدائرة الصغيرة التي عليها علامة تحمل توقيعه، وتلاحظ أن الورق بدأ يُرقَّط في بعض الأماكن بالعَفَن الفُطري. الحقيقة جديرة بالملاحظة في أكثر من جانب.»

وبناءً على ذلك، دوَّنت ملاحظةً في ذهني واستمرَّ التجوُّل في الغرفة.

«ترى أن جيفري استخدم موقد غازٍ بدلًا من الفحم، لا شك أن غرضه توفير الجهد، ولكن ربما كانت له مآربُ أخرى. ربما استخدم الغاز في الطهو أيضًا، هيا بنا نرَ.»

دخلنا إلى مطبخ صغير وكأنه خِزانة ونظرنا إلى ما فيه. لم يكن في المطبخ سوى شُعلةٍ دائريةٍ على رف وغلَّاية ومِقلاة وبعض الأواني الفخارية. من الواضح أن البوَّاب أصاب في إفادته بشأن عادات جيفري.

لما عدنا إلى غرفة الجلوس، استأنف ثورندايك تفتيشه؛ إذ فتح أدراج الطاولة ونظر في الخزائن نظرة فضول، وألقى نظرة عابرة على كل قطعة من القطع القليلة نسبيًّا في الغرفة غير المريحة.

في النهاية علق قائلًا: «لم أرَ شقة عديمة الملامح مثل هذه. إنها تخلو من كل شيء يشير إلى نوعية الأنشطة التي اعتاد قاطنها على ممارستها. لنُلقِ نظرة على غرفة النوم.»

دخلنا إلى الغرفة التي كانت مسرحًا للذكريات المؤلمة، وحين أشعل ثورندايك مصباح الغاز، وقفنا بعض الوقت ننظر من حولنا صامتَيْن. الغرفة ليس فيها أثاث كثير، ولا تبعث على الراحة، كما أنها قذِرة ومهمَلة ووَسِخة. يبدو أن الفراش لم يُعَدْ ترتيبه منذ وقوع تلك الفاجعة؛ فالانبعاج لا يزال أثره موجودًا في المكان الذي كانت فيه الجثة، وحتى كمية مسحوق الرماد الصغيرة لا تزال تُرى على اللحاف الرَّث. لقد رأيتها غرفة نوم تليق بمدخن أفيون.

في النهاية قال ثورندايك: «حسنًا، وكأن هذه الغرفة توحي ببعض الملامح. جيفري بلاكمور ممن يُحبون حياة الكفاف. فالمرء يصعب عليه أن يتخيل غرفة نوم يُولَى فيها قدر ضئيل من الاهتمام لراحة قاطنها.»

نظر حوله باهتمام ثم أردف: «أرى أن المحقَنة وأدوات القتل والمواد قد أُخذت من هنا. ربما جهة التحليل لم تُعِدها بعد. لكن لا يزال هنا أنبوب الأفيون والجرَّة ووعاء الرماد، وأحسب أن هذه الملابس هي التي نزعها متعهِّدو الدفن عن الجثة. فهل نفتشها؟»

أخذ الملابس التي طُويت دون اكتراث على الكرسي ورفعها قطعة قطعة.

قال وهو يفردها على الفراش: «يبدو أن هذه القطعة هي السروال. توجد بقعة بيضاء في منتصف الفخذ، وكأنها بقعةٌ من بلوراتٍ صغيرةٍ سقطت من المحلول. أشعِل المصباح يا جيرفيس، حتى أفحصها بالعدسة.»

أشعلت المصباح، وعندما فحصنا البقعة بدقة واستقر الرأي على أنها كتلة من البلورات الدقيقة، سأل ثورندايك:

«ما الذي تستنتجه من هذه التجاعيد؟ ترى أنه توجد واحدة في كل ساق.»

«يُخيَّل إليَّ أن ساق السروال قد شُمِّرت. ولكن إن كانت شُمرت، فلا بد أنها شُمرت بمقدار سبع بوصات. لم يُولِ جيفري البائس اهتمامًا كبيرًا لمظهره؛ حيث إن الساقَين شُمرتا إلى ما فوق الجورب. ولكن ربما أُحدثت هذه التجاعيد عند نزع الملابس عن الجثة.»

قال ثورندايك: «هذا محتمل. على الرغم من أنني لم أرَ كيف شُمر عن ساقَيه. وأرى أن الجيوب قد أُفرغت ... لا، انتظر؛ يوجد شيء في جيب الصَّدرية.»

أخرج حافظة بطاقات رثَّة من جلد الخنزير وعقب قلم رصاص، ويبدو لي أنه نظر إلى القلم الرصاص باهتمام أكثر مما يستحقه شيء عادي كهذا.

قال: «كما ترى، هذه البطاقات مطبوعة بطريقة التنضيد وليس باستخدام لوح الطباعة. وهذه المعلومة تستحق ألَّا تُنسَى. أخبرني ما الذي تستنتجه من ذلك.»

أعطاني القلم الرصاص، وقد تفحصته باهتمام مركَّز، واستعنت حتى بالمصباح وعدسة جيبي. ولكن حتى مع هذه الوسائل المساعدة، لم أكتشف شيئًا غير عادي في مظهره. شاهَدَني ثورندايك وعلى وجهه ابتسامة خبيثة، وحين انتهيت، سألني:

«ما استنتاجك؟»

صحت: «اللعنة! إنه قلم رصاص. وأي أحمق سيرى هذا، وهذا الأحمق على وجه التحديد لا يرى أي شيء. إنه عقب قلم رصاص رديء، ومَبري بطريقة بالغة السوء يصعب بها استخدامه. لونه الخارجي أحمر داكن ومطبوع عليه اسم يبدأ بالحرفين C, O، ربما تعني كوبريتيف ستورز.»

حاجَّني ثورندايك: «عزيزي جيرفيس، لا تبدأ بخلط التخمينات بالحقيقة. الحروف المتبقية هي الحرفان C, O. لاحظ هذه الحقيقة واكتشف نوعية الأقلام الرصاص التي تحمل نقوشًا تبدأ بهذين الحرفين. أنا لن أساعدك لأنه يسهل عليك اكتشاف ذلك. وسيكون هذا تدريبًا جيدًا، حتى وإن تبيَّن عدم أهمية هذه المعلومة.»

في هذه اللحظة، رجع إلى الخلف فجأة ونظر إلى الأرض وقال:

«أعطني المصباح يا جيرفيس، فقد وطئت شيئًا يشبه الزجاج.»

أتيت بالمصباح إلى المكان الذي يقف فيه، وكان قريبًا من الفراش، وانحنى كلانا على الأرض وقربنا ضوء المصباح من الألواح غير المفروشة والمتربة. وتحت الفراش، وعلى مسافةٍ تقع تحت قدم شخص يقف بجانب الفراش، وجدنا بقعة صغيرة فيها شظايا زجاج. أخرج ثورندايك قصاصة ورق من جيبه وجمع الشظايا الصغيرة عليها بعناية، وقال:

«يوحي شكل هذه الشظايا إلى أنني لست أول شخصٍ يطؤها، بصرف النظر عن ماهيتها. من فضلك، أمسك المصباح ريثما أفحص البقايا.»

أخذت المصباح وأمسكته فوق الورقة، ريثما يفحص كومة الزجاج الصغيرة باستخدام العدسة.

سألت: «ما الذي وجدته؟»

أجاب: «هذا ما أسأله لنفسي. وعلى حد ما أرى من شكل هذه الشظايا، فيبدو أنها قطع من زجاجة ساعة صغيرة. ليت قطعًا أكبر كانت هناك.»

قلت: «ربما تُوجَد قطع أكبر. لننظر إلى الأرض تحت الفراش.»

استأنفنا تحسُّسنا للأرض المتَّسِخة، نلقي ضوء المصباح على بقعة تلو الأخرى. وبينما ننقل المصباح من بقعة إلى أخرى، وقع الضوء على خَرَزة زجاجية صغيرة، والتقطتُها من فوري وعرضتها على ثورندايك.

سألت: «هل ترى أهمية في هذه الخرزة؟»

أخذ ثورندايك الخرزة وفحصها باهتمام.

قال: «بالتأكيد، شيء غريب أن يوجد في غرفة عجوز أعزب مثل جيفري، لا سيما أننا نعلم أنه لم يوظِّف امرأةً كي تعتني بشقته. ولكن لا يُستبعَد أنها ربما وقعت من المستأجر الذي قبله. لنرى إن كان هناك المزيد.»

أعدنا البحث ونحن نَحْبو تحت الفراش ونُلقي ضوء المصباح في كل الاتجاهات على الأرض. وأسفر البحث عن ثلاث خَرَزات أخرى، وخرزة زجاجية سليمة، وبقايا خرزة

زجاجية أخرى محطَّمة، ويبدو أن أحدًا وطئها. وضع ثورندايك كل هذه الأشياء، بما في ذلك شظايا الخرزة الزجاجية المحطَّمة، بعناية على ورقة، ثم وضع الورقة على التسريحة؛ كي يفحص هذه الاكتشافات فحصًا ملائمًا أكثر.

قال: «أعتذر لعدم وجود مزيد من شظايا زجاجة ساعة اليد، أو أيًّا ما كانت الزجاجة. فمن الواضح أن القِطع المكسورة قد أُخذت، باستثناء القطعة التي دُستها، ويبدو أنهم لم ينتبهوا إلى هذه الشظية. وبالنسبة إلى حبات الخرز؛ فبالنظر إلى عددها والموضع الذي وجدنا بعضها فيه، مثل الخرزة الزجاجية المحطَّمة، لا بد أنها سقطت في فترة استئجار جيفري، وربما لم يمُرَّ عليها وقت طويل.»

سألت: «في رأيك، ما نوع الملابس التي سقطت منه؟»

«ربما كانت جزءًا من حجاب مُطرَّز أو زركشة فستان، ولكن تنظيمها يوحي لي أنها قصاصة من هُدبة مطرَّزة. فاللون غريب نوعًا ما.»

«أعتقد أن لونها أسود.»

«هكذا تُرى في هذا الضوء، ولكن أظن أنه في ضوء النهار سنراها بلون بُنِّي داكن أو مائل إلى الأحمر. يمكنك رؤيةُ اللون الآن إذا نظرت إلى الشظايا الصغيرة للخرزة المحطَّمة.»

أعطاني العدَسة وحين تحقَّقتُ من كلامه، أخرج من جيبه علبةً صغيرة من القصدير ذات غطاء محكم، ووضع فيها الورقة بعد أن طواها إلى حزمةٍ صغيرة.

قال: «سنضع القلم الرصاص أيضًا»، وحين أعاد العلبة إلى جيبه، أردف: «حريٌّ بك أن تحصل على علبة صغيرة كهذه من بولتون. فغالبًا سيفيدك أن يكون لديك وعاءٌ آمِن للمواد الصغيرة والسهلة الكسر.»

طوى ملابس المتوفَّى وأعادها إلى المكان الذي وجدناها فيه. ثم حين رأى حذاءً بجانب الجدار، أخذه وتفحَّصه بعناية وأولى اهتمامًا خاصًّا بالجزء الخلفي من النعل والجزء الأمامي للكعب.

قال: «أظن أنه يمكننا أخذ هذا الحذاء، إنه الحذاء الذي ارتداه جيفري البائس ليلة موته. على أي حال، لا أحسب أن عنده أحذية أخرى. يبدو أنه كان يتجنَّب السير في الأماكن المتَّسخة. فالطرق كانت متسخة بدرجة كبيرة في تلك الليلة، أنا أتذكر جيدًا. هل ترى أي نعل؟ فأنا لا أرى.»

فتح خزانة ونظر فيها، ووجد مِعطفًا تعلوه قُبعة من اللبود معلَّقة في خطَّاف، وكأنها شخص نحيل مشنوق، ثم نظر في كل الجوانب وفي غرفة الجلوس، ولكنه لم يرَ أي نعال.

علَّق ثورندايك: «يبدو أن صديقنا أولى اهتمامًا ضئيلًا للغاية لوسائل راحته. ويُخيَّل إليَّ أنه كان يقضي ليالي الشتاء مرتديًا نعالًا رطبة وجالسًا بجانب شعلة الغاز!»

قلت: «ربما كان يكافئ نفسه بغليون الأفيون، أو ربما كان يُخلِد إلى النوم مبكرًا.»

«لكنه لم يكن يُخلِد إلى النوم مبكرًا. فقد اعتاد البواب في النوبة الليلية أن يرى نور شقته مضاءً في الساعة الواحدة صباحًا. ولعلك تتذكر، في غرفة الجلوس. ولكن يبدو أنه اعتاد القراءة على الفراش … أو ربما التدخين … فها هنا شمعدان به بقايا مجموعة كاملة من الشموع. وبما أن الغرفة بها مصباح غاز، فإنه لم يحتَج إلى الشمع كي يخلع ملابسه. كما أنه كان يستخدم شمع ستيراين، ولم يستخدم النوع العادي المصنوع من البارافين. وإني أتعجب من كم هذه المصروفات.»

اقترحت: «ربما كانت رائحة شمع البارافين تُفسد نكهة الأفيون»، ولكن لم يردَّ ثورندايك، بل استمر في تفتيش الغرفة، حيث سحب درج حوض غسل الوجه ولم يجد فيه سوى فرشاة أظافر بالية، حتى إنه أخذ قطعة صابون جافة ومحطَّمة في الصَّبانة وفحصها.

قال ثورندايك وهو يبحث في الخزانة ذات الأدراج: «يبدو أنه كان عنده كمية كبيرة نوعًا ما من الملابس، وعلى الرغم من ذلك، فإنه بالنظر إليها يبدو أنه لم يُغير منها كثيرًا، كما أن القمصان لونها مصفَرٌّ وباهت. إني أعجب كيف كان يتدبر غسل ملابسه. عجبًا، يوجد هنا نعلان في الدرج مع الملابس! وها هو مخزون الشمع. إنه صندوقٌ كبيرٌ للغاية من شمع الستيراين، على الرغم من أنه يكاد يكون فارغًا، ويزن كل ستٍّ منها رطلًا.»

أغلق الدرج وجال ببصره مرة أخرى في الغرفة متفحصًا.

قال: «أرى أننا رأينا كل شيء الآن يا جيرفيس، فهل ثمة مكان آخر تريد أن تنظر فيه؟»

أجبته: «لا. فقد رأيت كل ما أريد أن أراه، بل أكثر مما يمكنني فهمه. ولذا يمكننا الذهاب.»

أطفأتُ المصباح ووضعته في جيب معطفي، وحين أطفأنا مصابيح الغاز في الغرفتين، غادرنا الشقة.

حين اقتربنا من غرفة البواب، وجدنا صاحبنا القوي يهمُّ بإنهاء نوبته كي يتسلم منه البواب الليلي. سلمه ثورندايك مفاتيح الشقة، وبعد عدة أسئلة ودية عن صحته، ومن الواضح أنها لم تكن من باب الاهتمام بصحته، سأله ثورندايك:

«على حد ما أتذكر، فأنت أحد الشاهدَين على وصية السيد بلاكمور، فهل هذا صحيح؟»

أجاب البواب: «أجل يا سيدي.»

«وهل اطَّلعت على الوثيقة جيدًا قبل أن تشهد على توقيعها؟»

«أجل يا سيدي.»

«هل قرأتها بصوت عالٍ؟»

«كيف بصوت عالٍ يا سيدي؟ بارك الله فيك، لا يا سيدي! وما الذي يجعلني أقرؤها بصوتٍ عالٍ؟ لكن الشاهد الثاني قرأها، وبالطبع السيد بلاكمور يعلم ما فيها، وعلى حد ما رأيت فقد كتبها بخط يده. فلماذا أحتاج إلى قراءتها بصوت عالٍ؟»

«بالطبع لم تكن بحاجة إلى قراءتها بصوت عالٍ. على أي حال، كنت أتساءل كيف كان السيد بلاكمور يتدبر غسل ملابسه.»

من الواضح أن البوَّاب استاء من السؤال؛ حيث إنه لم يرُد إلا بنخرة استفهامية. وفي الواقع، كان سؤالًا غريبًا.

تابع ثورندايك: «هل كنت تتولى هذا الأمر مكانه؟»

«لا، بالتأكيد لا يا سيدي. فقد كان يتولاه بنفسه. وقد اعتاد أصحاب المغسلة أن يوصلوا السلَّة إلى الغرفة هنا، واعتاد السيد بلاكمور أن يأخذها بنفسه حين يمر من هنا.»

«إذن، لم تكن تُوصل إلى شقته؟»

«كلا يا سيدي. فالسيد بلاكمور كان انطوائيًّا بدرجة كبيرة، ولم يكن يُحب أن يزعجه أحد. ومن الطبيعي ألَّا يحب الانطوائي أن يزعجه أحد.»

اتفق ثورندايك مُتحمِّسًا لهذه الآراء السليمة وفي النهاية تمنَّى للبواب «ليلة سعيدة». عبرنا من البوابة إلى شارع ويتش، والتففنا تجاه الشرق إلى منطقة تيمبل، وانطلقنا صامتَيْن وكلانا منشغل بأفكاره. لم أعرف فيمَ كان يفكر ثورندايك، على الرغم من أنني متأكِّد من انشغاله في تجميع كل ما رأى وسمع، ويفكر في العلاقة المحتمَلة لكل ذلك بالقضية التي بين أيدينا.

أما أنا، فقد دخل عقلي في دوَّامة من الحيرة. فقد بدا لي كل هذا البحث والتمحيص وكأنه مجرد نفخ في قربة مثقوبة. ومن الواضح أن الوصية سليمة تمامًا وليس فيها شيءٌ

غريب، وهنا تنتهي المسألة. على الأقل، هذا ما أراه. ولكن واضح أن ثورندايك له رأي آخر. بالتأكيد لم تكن تحقيقاته بلا هدف، وحينما كنت بجانبه، حاولت أن أفهم ما ترمي إليه أفعاله، ولكن لم يزدني الأمر إلا حيرةً حين أفكر في أفعاله واحدًا تلو الآخر، وربما أكثر ما حيَّرني هو الأسئلة المبهمة التي سمعته للتو يطرحها على البواب الذي لم يقِلَّ حيرة عني.

الفصل الثامن

خريطة المسار

حين وصلت أنا وثورندايك إلى البوابة الرئيسية لمنطقة تيمبل، وانعطف هو إلى حارة ضيقة، أدركت فجأة أني لم أُرتِّب مكانًا لمبيتي. فقد تعاقبت الأحداث بسرعة حتى استحوذ كل حدث على تفكيري؛ لدرجة أني نسيت أن أنظر فيما يمكن أن أُسمِّيه شئون معيشتي.

بادرت بالتعليق: «أظن أننا نعمَدُ إلى المسكن يا ثورندايك. أعلم أن الوقت متأخر، ولكني لم أُرتِّب ولو مكانًا لمبيتي.»

رد: «صديقي العزيز، ستَبيت في غرفة نومك؛ حيث إنها جاهزة وتنتظرك منذ غادرتها. فقد دخلها بولتون فور وصولك ونظر إن كانت بحاجة إلى شيء. وأرجو أن تعتبر نفسك في منزلك إلى أن يحين الوقت وتنضم إلى قائمة المتزوجين وتُكوِّن أُسرتك.»

قلت: «هذا كرم كبير منك. لكنك لم تذكر لي أن الوظيفة التي تعرضها عليَّ تُوفر سَكنًا لصاحبها.»

قال ثورندايك: «إنها توفر لك المسكن والطعام»؛ وحين حاولتُ الاحتجاج أنه ينبغي أن أشارك في تكاليف المعيشة، سرعان ما رفض هذا الاقتراح. ظللنا نتجادل في هذه المسألة حتى وصلنا سكننا — وسأطلق عليه سكننا من الآن — ثم تغيَّر مجرى الحديث حين أخرجتُ المصباح من جيبي، ووضعته على الطاولة.

قال صديقي: «آه، هذا مجرد تذكير. ستضع المصباح على رف الموقد، وسيأخذه بولتون، وستَسرُد لي كل ما حدث في مغامراتك في كينينجتون. إنها مسألة غريبة. وما برحتُ أتساءل: كيف انتهى الأمر؟»

سحب كرسيَّين بذراعين كي يُقربهما إلى المدفأة، ووضع المزيد من الفحم، وكذلك وضع جَرَّة التَّبغ على الطاولة في المنتصف بين الكرسيَّين، ثم جلس متطلعًا إلى أن يقضي أُمسِية ممتعة.

ملأت غليوني وبدأت أسرد القصة من حيث توقفت المرة الأخيرة، وشرعت أحكي تجاربي الأخيرة. لكنه أوقفني.

«لا توجز يا جيرفيس. فالإيجاز يعني الغموض. اذكر التفاصيل يا صديقي، التفاصيل هي رُوح الاستقراء. اسرُد لي كل الوقائع. ويمكننا فرزها فيما بعد.»

بدأت من جديد، ولكن هذه المرة ذكرت أدقَّ التفاصيل. وقد تعمدت أن أُطيل القصة بحشوِ أدقِّ التفاصيل التي يمكن أن تستخرجها الذاكرة المحتفِظة بها من الماضي شِبه المنسي. ومن ثم أجهدت عقلي في تذكُّر أحداثٍ لا علاقة لها بالموضوع. حتى إنني ذكرت أدقَّ التفاصيل التي ليست لها أهمية تُذكَر. فقد وصفت العَرَبة من الداخل والخارج بوضوح تام، ورسمت صورة كأنها حقيقية للحِصان، حتى إنني ذكرت تفاصيل اللجام، لدرجة أني فوجئتُ من أنني لاحظت هذه التفاصيل. وكذلك وصفت الأثاث في غرفة الطعام وأنسجة العنكبوت التي تتدلى من السقف، ووصفت أيضًا مُلصَق المزاد على الخِزانة ذات الأدراج، والطاولة المتهالكة والكراسي ذات المنظر الكئيب. ذكرت كذلك عدد أنفاس المريض في الدقيقة الواحدة، وقَدْر القهوة التي احتساها بالضبط، وذكرت أوصافًا دقيقة للفنجان الذي شرب منه القهوة، ولم أَغفَل عن ذكر أي تفاصيل شخصية، بدايةً من أظافر المريض وحتى البُقع الحمراء في أنف السيد فايس.

تكتيكاتي في تعمُّد الإسهاب لم تنجح البتَّة. ومحاولتي لإعياء ثورندايك من الإفراط في سرد التفاصيل تشبه محاولة ملء أفواه البَجَع بأسماك صغيرة. فقد تشرَّب كل التفاصيل بسرور هادئ، بل إنه طلب المزيد؛ وحين أحسستُ أخيرًا أني أضجرته قليلًا، فاجأني بقراءة ملاحظاته، وبدأ يُجري استجوابًا سريعًا للحصول على وقائع جديدة! ولكن ما أدهشني أكثر هو أنني حين انتهيت من القصة، خِلتُ أنني أعرف عن هذه القضية أكثر مما كنت أعرف من قبل.

وحين انتهى الاستجواب، أحسست وكأني تفاحة معصورة خرجَت للتو من تحت مكبَس هيدروليكي، وعلَّق قائلًا: «إنها مسألة لافتة للنظر كثيرًا. إنها تثير الشكوك، ولا أحسب أنها انتهت على خير. وأظن أنني لن أتفق مع ضابط الشرطة الذي ذهبتَ إليه. ولا أحسب أن أحدًا ممن أعرفهم في شرطة سكوتلاند يارد سيتفق معه.»

سألت وأنا لا أشعر بارتياح: «هل ترى أنه كان عليَّ أن أتخذ أي إجراءات أخرى؟»

«لا، لا أحسب أنك ادَّخرت جهدًا. فقد فعلت كل ما يمكن فعله في ظل الظروف حينذاك. فقد أدليتَ بما لديك من معلومات، وهذا كل ما يمكن أن يفعله أي شخص، لا

سيما إذا كان ممارسًا عامًّا مضغوطًا في العمل. ولكن، الجريمة الفعلية مسألة تهم كل مواطن صالح. وأرى أنه ينبغي لنا أن نتَّخذ إجراءً ما.»

«إذن، هل تظن أنه ارتُكِبت جريمة بالفعل؟»

«وما الذي يمكن أن يفكر فيه المرء غير ذلك؟ وماذا ترى أنت؟»

«لا أحب أن أفكر في المسألة برُمَّتها. فما تزال صورة ذلك الرجل الأشبه بالجثة، المطروح في تلك الغرفة المظلمة، تطاردني منذ أن تركت المنزل. ما الذي تفترض أنه حدث؟»

ظل ثورندايك صامتًا بضع ثوانٍ. وفي النهاية قال أسِفًا:

«ما أخشاه يا جيرفيس أن الإجابة عن هذا السؤال يمكن أن تتلخص في كلمة واحدة.»

سألت وقد سَرَت في جسدي قشعريرة طفيفة: «القتل؟»

أومأ ثورندايك، ومكثنا صامِتَين للحظات.

بعد الصمت، أردف: «أرى أن احتمال بقاء السيد جريفز على قيد الحياة في هذه اللحظة ضئيل للغاية. فقد كان واضحًا أن مؤامرةً تُحاك ضده، والطريقة المتعمَّدة والمستمرة التي لوحِق بها هذا الهدف تشير إلى دافع قوي ومحدَّد للغاية. ثم إن التكتيكات التي اتُّبعت تشير إلى قدر كبير من التروِّي والعزم. فهذه التكتيكات لا يتخذها أحمق أو جاهل. ربما ننتقد العَرَبة المغلقة باعتبارها خطأً تكتيكيًّا؛ حيث إنها أثارت الشكوك، ولكن لا مَنَاص من ترجيحها حين نوازن بينها وبين الإجراء البديل.»

«وما ذلك البديل؟»

«حسنًا، لنفكر في الملابسات. هَب فايس استدعاك بالطريقة المعتادة. حينئذٍ ستكتشف استخدام السُّم. ولكنك حينئذٍ ستكون قد تعرَّفت المكان وأجريت استفسارات عنه في المنطقة. وربما أبلغت الشرطة؛ ومن ثم لا بد أنها ستتخذ بعض الإجراءات؛ حيث ستتوفَّر لديها الوسائل التي تحدد بها أطراف القضية. وعاقبة ذلك ستؤدي بفايس إلى الموت. صحيح أن العربة المغلقة أثارت الشكوك، ولكنها كانت إجراءً وقائيًّا عظيمًا. وفي النهاية، لا يمكن القول إن الاحتياطات التي اتخذها فايس غير منطقية. إنه رجل حذِر، ولكنه داهية ومُثابر. ويمكن أن يكون جريئًا في بعض الأحيان. فاستخدام العربة المعتمة إجراء جريء بلا ريب. ولا يسعني إلا أن أعده مُقامِرًا من النوع المتحفِّظ الشجاع الواسع الحيلة.»

«كل ما ذكرته يشير إلى احتمال أنه ما فتئ يسعى لتحقيق مخططه حتى نجح.»

«وهذا ما أخشاه. ولكن ... هل معك الملاحظات التي دوَّنتها بشأن اتجاهات البوصلة؟»

«الدفتر في جيب مِعطَفي مع اللوحة. سأُحضرهما.»

دخلت إلى المكتب، حيث علقنا معطفينا، وأحضرت الدفتر واللوح؛ إذ لا يزال مُرفقًا به بشريط مطاطي. أخذهما ثورندايك مني، وفتح الدفتر ومرر عينيه على الصفحات سريعًا صفحة تلو الأخرى. وفجأة، نظر إلى الساعة.

قال: «تأخرنا في البدء نوعًا ما، ولكن هذه الملاحظات تثير اهتمامي كثيرًا. وأنا أميل إلى رسم خريطة لها على الفور. وبالنظر إليها، فإني أرى أنها ستُمكِّننا من تحديد موقع المنزل من دون عناءٍ كبير. ولكن لا تأتِ معي إن كنتَ مُتعَبًا. فيمكنني أن أُنجز المهمة بمفردي.»

اعترضت عليه: «لن أتركك تفعلها بمفردك. فأنا حريص على رسم الخريطة إلى المنزل مثلك تمامًا، كما أنني أريد أن أرى كيف تُرسَم. وأرى أنها مهارة مفيدة.»

قال ثورندايك: «إنها مفيدة. ففي عملنا غالبًا ما تكون القدرةُ على تخطيط رسمٍ تقريبي يمكن الاعتماد عليه؛ مهارةً ذات قيمةٍ كبيرة. هل اطَّلعت على هذه الملاحظات من قبل؟»

«لا. فقد أبعدتُ الدفتر عن يدي منذ أن وصلت ولم أنظر فيه منذ ذلك الحين.»

«إنه مستنَد عجيب. يبدو أن هذه الأنحاء مليئة بجسور السكك الحديدية، وبالتأكيد لم يكن الطريق مباشرًا البتة، كما لاحظتَ حينذاك. ولكن سنرسم الخريطة ونرى ملامح الطريق بالضبط وإلى أي مكان يأخذنا.»

ذهب إلى المختَبَر وعاد بمسطرة حرف T، ومِنقَلَة عسكرية، وفرجار، ولوح رسم كبير مثبت عليه ورقة سميكة.

حين جلس على الطاولة ووضع اللوح أمامه، قال: «والآن، نأتي إلى الطريقة. بدأتَ من موقع معلوم ووصلت إلى مكانٍ موقعه مجهول في الوقت الحالي. وسنحدد موقع ذلك المكان بتطبيق عاملَين؛ وهما: المسافة التي قطعتها والاتجاهات التي سِرت فيها. أما الاتجاهات، فقد حدَّدَتها البوصلة، وبما أن الحِصان ظل محتفظًا بسرعة واحدة إلى حد كبير على ما يبدو، فيمكننا اعتبار أن المدة تُعبِّر عن المسافة. يبدو أنه سِير بك بسرعة ثمانية أميال في الساعة، وهذا يساوي تقريبًا سُبع ميلٍ في الدقيقة. وبناءً على خريطتنا، إذا اعتبرنا أن البوصة تُعبِّر عن دقيقة، فسنرسم الخريطة بمقياس يساوي، تقريبًا، سبع بوصات في الميل.»

حاجَجْته: «يخيَّل إليَّ أن هذا المقياس لا يُعبِّر عن المسافة تعبيرًا دقيقًا.»

«هذا صحيح. ولكن هذه النقطة ليست ذات أهمية كبيرة. فلدينا معالمُ محددة، مثل جسور السكك الحديدية التي لاحظتها، وبها يمكن تسوية مسألة المسافة بعد رسم الطريق. والأفضل أن تقرأ القيود بصوت عالٍ، وقبالة كل قيد اكتب رقمًا مرجعيًّا حتى لا نطمس معالم الخريطة بكتابة التفاصيل عليها. سأبدأ الرسم من مكان قريب من منتصف اللوح؛ حيث إنه يبدو أنه لا أنت ولا أنا لدينا أدنى فكرة عن الاتجاهات العامة التي سِيرَ بك فيها.»

فتحت الدفتر أمامي وقرأت القيد الأول بصوت عالٍ:

«الساعة الثامنة و٥٨ دقيقة. الاتجاه غربًا ثم جنوبًا. البداية من المنزل. ١٣ خطوة من ساقَي الحصان الأماميتَين.»

قال ثورندايك: «أفهم أنك استدرت للاتجاه المعاكس من فَورِك؛ ولذا لن نرسم خطًّا في ذلك الاتجاه. القيد الثاني هو ...؟»

«الساعة الثامنة و٥٨ دقيقة و٣٠ ثانية، الاتجاه شرقًا ثم شمالًا، والقيد التالي هو الساعة الثامنة و٥٩ دقيقة، الشمال الشرقي.»

«إذن، سِرت جهة الشرق ثم إلى الشمال بمسافة نصف ميل تقريبًا، وسنُعبر عنه بنصف بوصة على الخريطة. ثم انعطفت جهة الشمال الشرقي. كم المدة التي استغرقها هذا الاتجاه؟»

«دقيقة بالضبط. القيد التالي هو الساعة التاسعة. الاتجاه غربًا ثم الشمال الغربي.»

«إذن، سِرت حوالي سُبع ميل جهة الشمال الشرقي، وبذلك نرسم خطًّا بطول بوصة وبزاوية ٤٥ درجة جهة اليمين من خط تمثيل الشمال والجنوب. ومن نهاية هذا الخط، نرسم خطًّا بزاوية ٥٦ درجة وربع جهة اليسار من خط تمثيل الشمال والجنوب، وهكذا. ترى أن الطريقة بسيطة للغاية.»

«إنها بسيطة كثيرًا، وأحسبُني أفهمها الآن.»

رجعت إلى كُرسيِّي لقراءة القيود من الدفتر، وأخذ ثورندايك يرسم خطوط الاتجاهات باستخدام المِنْقلة، ويُدوِّن المسافات باستخدام الفرجار، حسب مقياس رسمٍ ذي أجزاءٍ متساوية على ظهر الأداة. وبين الفَينة والأخرى، ومع التقدُّم في الرسم، كنت أرى ابتسامةً تعبِّر عن ابتهاجٍ هادئ ترتسم على وجه زميلي الحريص والمنتبِه، وعند كل إشارةٍ جديدةٍ لجسر سكك حديدية، يُخفي ضحكة هادئة.

ضحك وأنا أسجل عبور الجسر الخامس أو السادس، وقال: «ماذا، جسر آخر؟! كأنها لعبة كروكيه. استمر. ما التالي؟»

استمررتُ في قراءة الملاحظات حتى وصلت القيدَ الأخير:

«التاسعة و٢٤ دقيقة. الجنوب الشرقي. الدخول في طريق مسقوف. توقفت العَرَبة. أُغلقت بوابة خشبية.»

رسم ثورندايك الخط الأخير، وعلَّق: «إذن، يقع الطريق المسقوف في الجانب الجنوبي من شارع يتجه نحو الشمال الشرقي. وبذلك تكتمل الخريطة. انظر إلى طريقك يا جيرفيس.»

رفع اللوح وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، وحدقت مُنذهِلًا في الخريطة. تعرَّج الخط الفردي الذي يمثل مسار العربة تعرُّجًا مُذهلًا؛ حيث تكرر أن انعطَف واستدار وقطع نفسه أكثر من مرة، ومن الواضح أنه مر على الطرق نفسها أكثر من مرة، وانتهى بعد مسافةٍ قصيرةٍ نسبيًّا من نقطة البداية.

تعجَّبت: «غريب! لا بد أن الوغد عاش في مكان قريب من منزل ستيلبري!»

استخدم ثورندايك الفرجار كي يقيس المسافة بين نقطتَي البداية والنهاية للطريق، ويحدد المسافة حسب المقياس.

قال: «المسافة تقريبًا خمسة أثمان ميل. وربما كنت قطعتها في أقل من ١٠ دقائق. والآن، لنُخرجْ خريطة هيئة المساحة، ونرَ ما إذا كان بإمكاننا أن نطابق كل خطٍّ من هذه الخطوط الكثيرة التعرُّج، مع المناطق المحلية وأسمائها.»

بسط الخريطة على الطاولة ووضع الخريطة التي رسمناها بجانبها.

قال: «أظن أنك بدأت من شارع لووار كينينجتون لين؟»

أجبته: «أجل، من هذه النقطة»، وأشرت إلى البقعة بقلم رصاص.

قال ثورندايك: «إذن، إذا لففنا خريطتنا بمقدار ٢٠ درجة لتصحيح انحراف البوصلة، فسنتمكن من مطابقتها مع خريطة هيئة المساحة.»

بدأ بوضع المِنْقلة بزاوية ٢٠ درجة من خط تمثيل الشمال والجنوب وأدار الخريطة بهذا المقدار. بعد دراسة خريطة هيئة المساحة والخريطة المرسومة عن كَثَب ومطابقة إحداهما بالأخرى، قال:

«بمجرد النظر، يبدو أننا لن نجد صعوبة في تحديد الطرق التي تتطابق مع الخطوط على الخريطة. خذ الجزء القريب من وجهتك. في الساعة التاسعة و٢١ دقيقة، عَبَرت من تحت جسر مُتَّجِهًا نحو الغرب. يبدو أن هذا الاتجاه هو شارع جلاسهاوس. ثم انعطفت جهة الجنوب، والظاهر أن هذا جهة ألبرت إمبانكمينت، حيث سمعتَ صافرة زورق

القطر. ثم من جهة يسارك، سمعتَ قطار ركاب يبدأ في التحرك، ويُخيَّل إليَّ أنها محطة فوكسهول. بعد ذلك، استدرتَ جهة الشرق ومررت من تحت جسر كبير للسكك الحديدية، وأحسبه الجسر الذي يؤدي إلى المحطة من فوق شارع أَبَر كينينجتون لين. وإذا صح هذا الوصف، فلا بد أن المنزل يقع في الطرف الجنوبي من شارع أَبَر كينينجتون لين، على مسافة ٣٠٠ ياردة تقريبًا من الجسر. لكن يُمكننا اختبار استنتاجنا بقياس أو اثنين.»

«وكيف تفعل ذلك إذا كنت لا تعرف المقياس الحقيقي للخريطة المرسومة؟»

قال ثورندايك: «سأُريك. سنحدِّد المقياس الصحيح، وهذا سيشكِّل جزءًا من الدليل.»

سرعان ما أنشأ رسمًا تخطيطيًّا تقريبيًّا على الجزء الفارغ من الورقة، وقد اشتمل الرسم على خطَّين يقطعهما خطٌّ واحد.

شرح: «هذا الخط الطويل هو المسافة من منزل ستيلبري إلى جسر السكك الحديدية في فوكسهول، كما يبدو في الخريطة المرسومة، وخط التقاطع الأقصر هو المسافة نفسها المأخوذة من خريطة هيئة المساحة. وإذا صح استنتاجنا ورُسمت الخريطة بدقَّةٍ مقبولة، ستُبيِّن كل المسافات الأخرى نِسَبًا مماثلة. لنجرب مسافة منها. خذ المسافة من جسر فوكسهول إلى الجسر في شارع جلاسهاوس.»

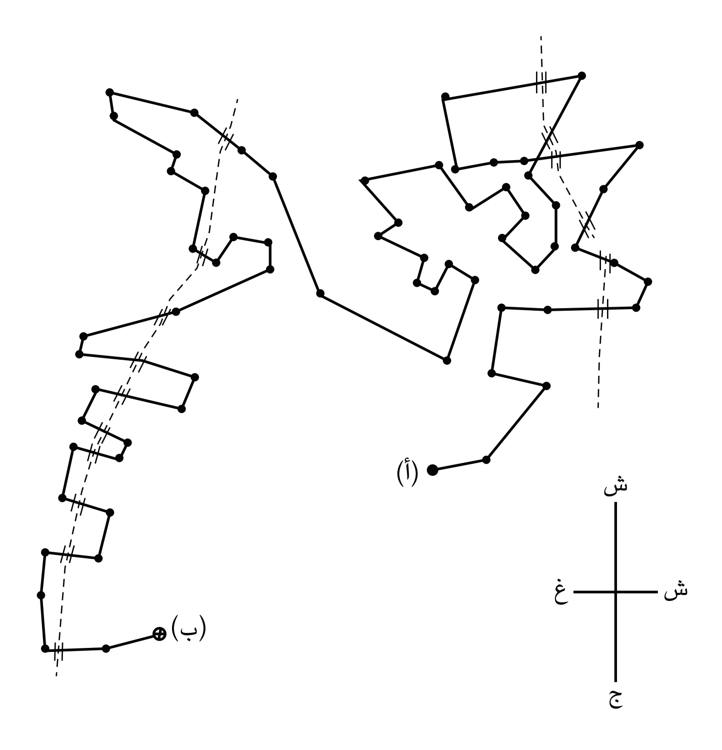
أجرى القياسَين بعناية، وحين نزل سن الفرجار في المكان الصحيح على الرسم التوضيحي بدقة، نظر إليَّ.

«بالنظر إلى الطريقة التقريبية التي رُسمَت بها الخريطة، أعتقد أن النتيجة تكاد تكون محسومة، على الرغم من أنه إذا نظرت إلى الجسور المختلفة التي مررت من تحتها، ورأيت إلى أي مدًى تتسق مع موقع خط السكك الحديدية الجنوبي الغربي، فلا أحسب أنك تحتاج إلى دليل آخر. ولكن سآخذ المزيد من القياسات التقريبية بهدف إثبات الحالة بالطرق العِلمية، قبل أن نشرع في التحقُّق من النتائج عن طريق زيارة المكان.»

بناءً على ذلك، حسب مسافة أو مسافتين أُخرَيين، وعندما طابقَهما مع المسافات النِّسبية على خريطة هيئة المساحة، يجد أنها صحيحة بالمقدار المتوقَّع.

قال ثورندايك وهو يضع الفرجار: «أجل، أعتقد أننا ضيَّقنا مساحة البقعة التي يقع فيها منزل السيد فايس إلى بضع ياردات في شارع معلوم. وما سيُساعدنا أكثر هو ملاحظة «الساعة التاسعة و٣٢ دقيقة»؛ حيث إنها تسجل طُرقة من الحَصْباء الممدودة حديثًا حتى المنزل.»

حاججته: «ربما صارت الحصباء ناعمة الآن.»



خريطة المسار الذي سلكته عربة فايس
(أ) نقطة البداية في شارع لُووَار كينينجتون لين.
(ب) موقع منزل السيد فايس. تشير الخطوط المنقَّطة التي توصل الجسور إلى خطوط السكك الحديدية المحتملة.

رد ثورندايك: «لن تكون ناعمة تمامًا. فلم يمر سوى شهر وبضعة أيام، ولم تُمطر كثيرًا في هذه المدة. ربما صارت ناعمة، ولكن سيَسهُل تمييزها عن القديمة.»

«هل أفهم من ذلك أنك تقترح الذهاب إلى المنطقة واستكشافها؟»

«بلا شكٍّ أقترح ذلك. وهذا يعني أنني أنوي تحديد العنوان الدقيق للمنزل، بدلًا من مجرد اسم المنطقة، وأرى أن المسألة باتَت أسهل بكثيرٍ الآن، ما لم يكن حظُّنا سيئًا، ونعثر على أكثر من طريقٍ مُغطًّى بالحصباء. لكن حتى في هذه الحالة، لن نواجه صعوبة كبيرة.»

«ومتى تنوي التحقق من المكان الذي يعيش فيه السيد فايس؟ وماذا بعد ذلك؟»

«هذا سيعتمد على الظروف. وأظن أنه ربما نتصل بشرطة سكوتلاند يارد، ونتحدث قليلًا مع صديقنا السيد الحكمدار ميلر، هذا إذا لم يطرأ أي سبب يجعل من الأفضل أن نبحث في القضية بأنفسنا.»

«متى سنبدأ هذه الرحلة الاستكشافية؟»

فكَّر ثورندايك في السؤال وأخرج دفترًا من جيبه ونظر في جدول المواعيد.

قال: «أرى أن أعمال الغد قليلة. ويمكننا أن نذهب في الصباح من دون أن نُغفِل الأعمال الأخرى. والرأي عندي أن ننطلق من بعد الإفطار مباشرةً. إلى أي مدًى يناسب هذا صديقي المتعلِّم؟»

رددت: «وقتي مِلكٌ لك، وإذا أردت أن تُنفِقه في أمور لا تعنيك، فأنت وما تريد.»

«إذن، لنتَّفق على أن ننطلق في صباح الغد، أو بالأحرى صباح اليوم، حيث إن الساعة تجاوزت الثانية عشرة الآن.»

عند هذا الحد، جمع ثورندايك الخريطة والأدوات وذهب كلٌّ منا إلى مخدعه.

الفصل التاسع

منزل اللغز

في الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي، كانت العربة تسير بنا في شارع أَلِبرت إمبانكمينت، ونحن تُبهِجنا صلصلة الجرس المعلَّق في الحِصان. عانَقَت معنويات ثورندايك عنان السماء حينذاك، على الرغم من أن الاستمتاع بتدخين غليونه الصباحي عطَّله عن الحديث بانسيابية. ومن باب الاحتياط، وضع دفتري في جيبه قبل أن نبدأ رحلتنا، وأخرجه مرةً أو مرتَين لتصفُّح صفحاته، ولكنه لم يُشِر إلى موضوع رحلتنا البحثية، وتشير التعليقات القليلة التي تفوَّه بها إلى أن فكره مشغولٌ بمسائل أخرى.

حين وصلنا إلى محطة فوكسهول، ترجَّلنا من العربة واتخذنا طريقنا إلى الجسر الذي يمتدُّ على شارع أَبَر كينينجتون لين بالقرب من تقاطُعه مع طريق هارليفورد.

قال ثورندايك: «البداية من هنا. تبلغ المسافة إلى المنزل من هنا نحو ٣٠٠ ياردة — أي نحو ٤٢٠ خطوة — وبعد نحو ٢٠٠ خطوة، من المفترض أن نصل إلى الطريق المفروش بالحصباء. فهل أنت جاهز؟ وإذا حافظنا على وتيرة خطواتنا، فسيكون تقدير متوسط المسافة دقيقًا.»

بدأنا سَيرنا بوتيرة متوسطة السرعة وخُطًى ثابتة، وأخذنا نعُد الخطوات بصوتٍ عالٍ. حين بلغنا الخطوة ١٩٤، لاحظت أن ثورندايك يومئ برأسه إلى الأمام نحو طريق تفصلنا عنه مسافة قصيرة، وبينما نقترب من الطريق، بدأ ينظر إليه مُنتبِهًا، ولم تكن ثمة صعوبةٌ في أن يُنبئنا استواء السطح واللون الفاتح أن الطريق أُعيد فرشه بالحصباء منذ فترة قصيرة.

وحين بلغنا الخطوة ٤٢٠، توقفنا، والتفت إليَّ ثورندايك وعلى وجهه ابتسامة النصر.

قال: «لم يخِب تقديري يا جيرفيس. هذا هو المنزل المنشود إن لم أخطئ التقدير كثيرًا. كما أنه لا توجد إسطبلاتٌ أو طرقٌ خاصة أخرى في الأُفُق.»

أشار إلى مُنعطَف ضيق على مسافةٍ منا تبلغ نحو ١٠ ياردات، ومن الواضح أنه المدخل إلى الإسطبلات أو الفناء، تُغلَق عليه بوابةٌ خشبية ضخمة.

أجبته: «أجل، لا شك أنه المكان المنشود، ولكن، يا إلهي!» أردفت حين اقتربنا أكثر: «المنزل خالٍ من ساكنيه. هل ترى؟»

أشرتُ إلى ورقة إعلان مُلصَقة على البوابة مكتوب عليها — على حد ما رأيت من هذه المسافة — كلمة «للإيجار».

حين وقفنا ننظر في الإعلان، وجدناه ينصُّ على أن المنزل والإسطبلات والوِرَش معروضة للإيجار أو البيع، ومن يُرِد الاستفسار يتواصل مع السادة شركة ريبودي برادرز — الوكيل العقاري والمثمِّن — الكائنة في شارع أَبَر كينينجتون لين، قال ثورندايك: «تغيُّر جديد ومفاجئ في الأحداث، وإن كان مُتوقَّعًا. والسؤال الذي يطرح نفسه حاليًّا هو: هل نطرح بعض الاستفسارات على الوكيل، أم الأفضل أن نحصل على المفاتيح وننظر ما بداخل المنزل؟ وأنا أميل إلى الاثنين على أن نبدأ بالأخير، ولكن هذا مرهون بأن يَعهَد إلينا السادة شركة ريبودي برادرز بالمفاتيح.»

شقَقنا طريقنا صوب العنوان المذكور، وحين دخلنا المكتب وقدَّم ثورندايك طلبًا للحصول على المفاتيح، ظهرت ملامح المفاجأة على العامل؛ حيث إن مظهر ثورندايك لا يُوحي بأنه شخصٌ له علاقة بالإسطبلات والوِرَش. ولكننا لم نجد صعوبةً في الحصول على المفتاح، وحين أخرجه العامل من مجموعة مفاتيح مُعلَّقة في خطَّاف، علَّق قائلًا:

«أتوقع أن تجدا المكان مُتَّسخًا ومُهمَلًا إلى حدٍّ ما. فالمنزل لم يُنظَّف بعدُ؛ إنه على حاله منذ أن أخذ الوسطاء الأثاثَ.»

سأل ثورندايك: «إذن، هل اضطر المستأجر الأخير إلى بيع أثاثه؟»

«أوه، لا. بل اضطر إلى أن يغادر فجأة من أجل بعض أعماله في ألمانيا.»

قال ثورندايك: «أرجو أن يكون قد دفع الأجرة.»

«أوه، نعم. اطمئنَّ من هذه الناحية. ولكن حريٌّ بي أن أذكر أنَّ السيد فايس — ذاك اسمه — كان رجلًا فاحش الثراء. فالظاهر أن معه مالًا كثيرًا، على الرغم من أنه كان دائمًا ما يدفع بالأوراق النقدية. وأنا لا أظنُّه يمتلك حسابًا بنكيًّا هنا. فهو لم يمكث هنا أكثر من ستة أو سبعة أشهر، ويُخيَّل إليَّ أنه لا يعرف أُناسًا كثيرين في إنجلترا؛ حيث إنه أودع مبلغًا نقديًّا عِوَضًا عن الأشخاص المرجعيين حين أتى أول مرة.»

«يُخيَّل إليَّ أنك قلت إن اسمه فايس. فهل يمكن أن يكون هو إتش فايس؟»

«أحسبه كذلك. ولكن اسمح لي أن أتأكد لك.» فتح درجًا وتصفَّح دفترًا يشبه نماذج الإيصالات. «أجل؛ إتش فايس. هل تعرفه يا سيدي؟»

«تعرفت على رجل اسمه السيد إتش فايس منذ بضع سنوات. أذكر أنه من برِيمِن.»

علَّق العامل: «لكن السيد فايس الذي أقصده عاد إلى هامبورج.»

قال ثورندايك: «آه، يبدو أننا نتحدث عن شخصَين مختلفَين. فالسيد فايس الذي أعرفه رجل أبيض البشرة، وله لحية، وأنفه فيه حُمرة، ويستعمل نظارات.»

قال العامل الذي من الواضح أنه قنع بسهولةٍ بالتفاصيل المعطاة: «إنه هو. لقد وصفتَه وصفًا دقيقًا.»

قال ثورندايك: «يا إلهي، ما أصغر هذا العالم! هل دوَّنت عنوانه في مدينة هامبورج؟»

أجاب العامل: «لم أفعل. فأنت ترى أن عقد الإيجار انتهى، وقد حصلنا على الأجرة، على الرغم من أن المنزل لم يُسلَّم بعد. فمُدبِّرة شئون منزل السيد فايس لا يزال معها مفتاح الباب الرئيسي. فهي لن ترحل إلى هامبورج قبل أسبوعٍ آخر أو نحو ذلك، وفي هذه المدة، هي تحتفظ بالمفاتيح وتزور المنزل كل يوم كي ترى إن كان هناك أي خطابات.»

قال ثورندايك: «هكذا إذن. لا أعرف إن كان لديه مدبرة شئون المنزل نفسها.»

رد العامل: «هذه السيدة ألمانية، واسمها صعب النطق. أظنه شاليبانج.»

«بل شاليبام. إنها هي. امرأة بيضاء البشرة وحاجباها دقيقان للغاية، وتُعاني حَوَلًا ملحوظًا في عينها اليُسرى.»

قال العامل: «هذا غريب للغاية يا سيدي. إنه الاسم نفسه، وأتذكر أنها امرأة بيضاء البشرة وحاجباها دقيقان للغاية كما ذكرتَ الآن. ولكن لا يمكن أن تكون هي المرأة نفسها. أنا لم أرَها سوى مراتٍ قليلة، والمرة تستغرق دقيقةً أو نحو ذلك، ولكنني على يقين من أنها لا تعاني حَوَلًا في عينها. لذا، تعلم يا سيدي أنه لا يمكن أن تكون هي المرأة نفسها. فإنه يمكن صبغ الشعر، أو استعارته، أو وضع مساحيق التجميل، ولكن الحول لا تُخطئه العين. وكذلك لا يمكن تصنُّع الحوَل.»

ضحك ثورندايك ضحكة هادئة. «وأنا لا أحسب ذلك، إلا لو اخترع أحدٌ ما عينًا زجاجيةً قابلةً للتعديل. هل هذه المفاتيح؟»

«نعم يا سيدي. المفتاح الكبير للبوابة الصغيرة الملحقة بالبوابة الأمامية. والمفتاح الآخر هو مفتاح المزلاج في الباب الجانبي. والسيدة شاليبانج معها مفتاح الباب الرئيسي.»

قال ثورندايك: «شكرًا لك.» أخذنا المفاتيح المعلَّق فيها ميدالية خشبية، وانطلقنا عائدَين صوب منزل اللغز، وتناقشنا في كلام العامل ونحن في الطريق.

علَّق ثورندايك: «شاب ودود للغاية. وقد بدا سعيدًا بالتخلُّص من رتابة العمل المكتبي بالدخول في محادثة قصيرة. وبالتأكيد سعِدتُ بإقحامه في المحادثة.»

قلت: «على أي حال، ليس عنده الكثير.»

نظر إليَّ ثورندايك متفاجئًا. «لا أدري ما الذي تتوقعه يا جيرفيس، وكأنك تنتظر من غرباء أن يُقدِّموا لك مجموعةً كاملةً من الأدلة مصنَّفة بالكامل، وتتضمن كل الاستنتاجات والآثار المترتبة المذكورة. وأنا أرى أن الشاب قد أفادنا بكلامه كثيرًا.»

سألته: «وماذا أفدتَ منه؟»

حاججني: «آه، لا تقُل هذا يا جيرفيس، هل هذا سؤال منطقي في ظل الترتيب الحالي؟ لكني سأذكر لك بضع نقاط. علمنا منه أنه منذ نحو ستة أو سبعة أشهر أتى السيد فايس إلى كينينجتون لين، وأنه غادرها الآن. وهذه معلومة مفيدة. ثم علمنا أن السيدة شاليبام بقيت في إنجلترا، ولولا النتيجة اللازمة المهمة التي تقترحها هذه المعلومة، لقُلنا إنها ليست ذات أهمية كبيرة.»

«وما تلك النتيجة؟»

«لا بد أن أدَعَك تفكر في الوقائع على راحتك، ولكن ستعرف السبب الظاهري وراء عدم سفرها. إنها منشغلةٌ في تصحيح خطأ فادح في خطتهم. فأحدهم أعطى هذا العنوان لمراسلٍ ما من دون أن ينتبه؛ وربما مراسل من خارج البلاد. والآن، بما أن رغبتهم واضحة بأنهم لا يريدون أن يخلِّفوا أثرًا وراءهم، فهم من جانبٍ لا يستطيعون ترك عنوانهم الجديد لدى مكتب البريد كي يعيد توجيه الخطابات عليه، وعلى الجانب الآخر، فإن ترك خطاب في الصندوق قد يكشف عن رابطٍ يُمكِّن من تتبُّع أثرهم. إضافة إلى ذلك، قد يكون الخطاب من الخطابات التي لا يرغبون في أن تقع في أيدٍ خاطئة. وما كانوا ليعطوا هذا العنوان لأحد إلا في ظل ظروف معينة.»

«لا، لا أظنهم يعطون العنوان لأحد إن كانوا استأجروا هذا المنزل، وقد بيَّتوا النية صراحةً على ارتكاب جريمة فيه.»

«بالضبط. وهناك واقعة أخرى ربما فهمتَها من كلام صديقنا الشاب.»

«وما هي؟»

«الحَوَل الذي يمكن التحكم فيه ملَكة لها قيمة كبيرة لشخص لا يريد أن يتعرف عليه أحد.»

«أجل، لقد لاحظتُ ذلك. ويبدو أن الشاب يجزم بأن تلك الصفة قاطعة في تحديد هوية الشخص.»

«وكذلك معظم الناس؛ لا سيما في حالة الحوَل الذي من هذا النوع. يُمكننا جميعًا أن تحولَّ أعينُنا تجاه أنوفنا، ولكن لا يوجد شخص عادي يمكن أن يدير إحدى عينَيه بعيدة عن الأخرى. وانطباعي أن الإصابة بالحوَل إلى الخارج أو عدم الإصابة به — أيًّا ما كانت الحالة — من شأنها أن تُقبَل على أنها من الصفات المطلَقة التي يمكن التعرف بها على هُوية شخص ما. ولكن ها نحن نتعرض لذلك الموقف.»

أدخل المفتاح وفتح البوابة الصغيرة الملحَقة بالبوابة الرئيسية، وحين أصبحت قدمانا على الطريق المغطَّى بالحصى، أقفل البوابة من الداخل.

عندما لاحظت أن البوابة بها مزلاج، سألته: «لماذا أقفلتَ علينا؟»

أجاب: «لأنه إذا سمِعْنا الآن أي شخص يفتح كي يدخل المنزل، فنحن نعرف مَن يكون. فلا أحد غيرنا معه مفتاح سوى شخص واحد.»

أصابتني إجابته بقدر من الحيرة. ومن ثَم وقفت ونظرت إليه.

«هذا موقف غريب يا ثورندايك. إنه لم يخطر على بالي. ما الذي سيأتي بها إلى المنزل ونحن هنا؛ بل ربما تكون بداخل المنزل في هذه اللحظة.»

قال: «أرجو ألَّا تكون هنا. وعلى وجه التحديد، لا نريد أن يأخذ السيد فايس حذره، فعلى حد فهمي، إنه رجل يقِظ على أي حال. وإن أتت، فالأفضل أن نختفي عن أنظارها. وأظن أننا سنفتش المنزل أولًا. فهذا أكثر شيء يهمنا الآن. فإن أتت المرأة ونحن هنا، فقد تمكث كي تُريَنا المنزل وتُبقي عينها علينا. ولذا سنترك الإسطبلات ونفتشها في النهاية.»

قطعنا المدخل إلى الباب الجانبي الذي أدخلتني منه السيدة شاليبام، حين أتيتُ في زياراتي السابقة. أدخل ثورندايك مفتاح المزلاج، وبمجرد أن صرنا بالداخل، أغلق الباب وأسرع كي يدخل الصالة؛ ومن ثم تبعتُه. عمد إلى الباب الأمامي مباشرةً، وبمجرد أن رفع مزلاج القفل، بدأ يتفحص صندوق الخطابات بانتباه بالغ. كان صندوقًا خشبيًّا كبيرًا إلى حدٍّ ما، ومؤمَّنٌ بقفل ذي نوعية جيدة، ومزوَّد بشبكة سلكية يمكن للمرء أن يرى ما بداخل الصندوق من خلالها.

علَّق ثورندايك: «إننا محظوظان يا جيرفيس. لقد أتَت زيارتنا في الوقت المناسب. ها هو خطاب في الصندوق.»

قلت: «ولكن لا يسعنا إخراجه؛ وإن فعلنا، فلا أرى مسوِّغًا لذلك.»

رد: «لا أحسبني مُستعدًّا للموافقة على إخراجه، ولكني أُفضِّل ألَّا أعبث بخطابات شخص آخر، حتى وإن كان يُحتَمَل أن هذا الشخص قاتل. ولربما نحصل على المعلومات التي نريدها من على الظرف.»

أخرج من جيبه كشافًا كهربيًّا صغيرًا مزودًا بعدسة لتكثيف الضوء؛ وحين ضغط على الزِّر، سلَّط ضوء الشعاع على ما بداخل الصندوق من خلال الشبكة. كان الخطاب قابعًا في أرضية الصندوق ووجهه إلى الأعلى؛ ومن ثَم يمكن قراءة العنوان بسهولة.

قرأ ثورندايك بصوت عالٍ: «عناية الدكتور إتش فايس. طابع ألماني، ويبدو أن طابع البريد من مدينة دارمشتات. تلاحظ أن عبارة «عناية الدكتور» مطبوعة وباقي الكلام مكتوب بخط اليد. ماذا تستنتج من ذلك؟»

«لا أعلم البتة. هل تظن أنه طبيب بالفعل؟»

«ربما الأجدر بنا أن نُنهي التفتيش قبل أن يأتينا أحد، ثم نتناقش فيما تنطوي عليه هذه الوقائع فيما بعد. ولعلي أجد اسم المُرسل في الجهة الأخرى من المظروف. وإن لم أجِدْه، فسأفتح القفل عَنوةً وأُخرج الخطاب. هل معك مِسبار؟»

«نعم، فقد اعتدت حمل علبة أدوات صغيرة في جيبي.»

أخرجت علبة الأدوات من جيبي، وأخرجت منها مسبارًا مفصليًّا مصنوعًا من سلك فضي سميك إلى حد ما، ووصلت النصفَين أحدهما بالآخر وأعطيت ثورندايك المسبار كاملًا؛ ومن ثم مرَّر قضيبًا رفيعًا من خلال الشبكة وقلب الخطاب ببراعة.

حين سقط الضوء على الجانب الآخر من المظروف، أطلق صيحة رضًا: «أها! أُنقِذنا من الاضطرار إلى السرقة، أو بالأحرى من اقتراض غير مأذون فيه، «يوهان شنيتسلر، دارمشتات». هذا كل ما نريد بالفعل. وبإمكان الشرطة الألمانية أن تفعل الباقي إن لزم الأمر.»

أعاد لي المسبار ووضع المصباح في جيبه، وأفلت مزلاج القفل كي يغلق الباب، وعاد يتمشى في الصالة المظلمة ذات الرائحة الكريهة.

سأل: «هل ذُكر أمامك اسم يوهان شنيتسلر؟»

قلت إني لا أتذكر، حتى، أني قد سمعت الاسم من قبل.

قال: «ولا أنا، ولكن أرى أنه ربما نُكوِّن تخمينًا صائبًا بشأن مِهنته. فكما ترى، عبارة «عناية الدكتور» كانت مطبوعةً على المظروف، وتُرك باقي العنوان كي يُكتب بخط اليد. والاستنتاج الجلي أنه شخصٌ من عادته أن يُرسِل خطاباتٍ إلى أطباء، وبما أن المظروف والحروف — المطبوعة وليست المنقوشة — لهما نمط تجاري، فيمكننا افتراض أنه يعمل في حِرفة ما. ولكن، ما تكون هذه الحرفة؟»

«ربما كان جهة تصنيع أجهزة طبية أو أدوية، والأخرى هي الأرجح عندي، حيث إن صناعة الأدوية والمواد الكيميائية رائجة في ألمانيا، كما أن السيد فايس يبدو أنه بحاجةٍ إلى الأدوية أكثر من الأجهزة الطبية.»

«نعم، أحسبك على حق، ولكن سنتقصَّى عنه حين نصل إلى المنزل. والأَولى بنا الآن أن نُلقي نظرةً على غرفة النوم؛ هذا إن كنت تتذكَّر أي غرفةٍ هي.»

قلت: «إنها في الطابق الأول، والباب الذي دخلت منه على رأس السلم مباشرةً.»

صعدنا درجات السلم وحين وصلنا البسطة، توقفت.

قلت: «هذا هو الباب»، وكدت أن أُدير المقبض لولا أن ثورندايك أمسك ذراعي.

قال: «لحظة يا جيرفيس. ما الذي تستنتجه من هذا؟»

أشار إلى بُقعةٍ بالقرب من حافة الباب السفلية، وحين أمعنَّا النظر، علمنا أنها أربعة ثقوب براغي ذات حجمٍ كبير نوعًا ما. لقد مُلِئت بمهارةٍ باستخدام المعجون وغُطيَت بالطلاء، وكان اللون قريبًا للغاية من لون الباب المصنفَر والمصقول، لدرجة أنها لا تكاد تُرى.

أجبته: «واضحٌ أن ثمة بُرغِيًّا ثُبت في هذا الموضع، على الرغم من أنه يبدو موضعًا غريبًا لتثبيت براغي.»

قال ثورندايك: «على العكس من ذلك تمامًا. إذا نظرت إلى أعلى، فسترى أنه ثُبت بُرغيٌّ آخر في الجزء العلوي من الباب، وبما أن القفل في المنتصف، فلا بد أن هذه البَراغيَّ كانت فعالةً كثيرًا في إحكام الباب. لكن هناك بعض الجوانب الأخرى التي تلفت الانتباه. أولًا: تلاحظ أن البراغي ثُبتت منذ فترة وجيزة؛ حيث إن الطلاء الذي تحتها هو نفسه اللون المتَّسخ في باقي الباب. ثانيًا: خُلعت البراغي، وبما أنها لا تستحق عناء خلعها، فإن هذا يشير إلى أن الشخص الذي ثبتها فكَّر في أن وجودها قد يلفت النظر؛ ومن ثم فإن ثقوب البراغي ستكون أقلَّ وضوحًا إذا ما مُلئت بالمعجون وغُطيت بالطلاء بمهارة فائقة.»

«ثم إنها في الجانب الخارجي من الباب، وهذا غير معهودٍ في براغي أبواب غرفة النوم، كما أنها ذات حجم كبير. فقد كانت البراغي طويلةً وسميكة.»

«بناءً على موضع ثقوب البراغي، أرى أنها كانت طويلة، ولكن كيف علمتَ أنها كانت سميكة؟»

«من حجم الثقوب المواجهة في عضادة الباب. مُلئت هذه الثقوب بعنايةٍ باستخدام سداداتٍ خشبيةٍ مغطاةٍ بالطلاء، ولكن يمكن اكتشاف قُطرها، وهو قُطر هذه البراغي،

ومن المؤكَّد أنه لا يتماشى مع ما يتطلَّبه باب غرفة نوم عادي. سألقي عليه الضوء كي ترى.»

سلَّط ضوء المصباح على الركن المظلم، وحينئذٍ رأيت وميَّزت الثقوب الواسعة للغاية التي ثُبتت فيها البراغي، ولاحظتُ الدقة التي سُدت بها.

قلت: «أذكر أنه كان يوجد باب آخر. هيا نرَ إن كانت قد اتُّخذت وسائل التأمين نفسها.»

عبرنا الغرفة الفارغة، وتردَّدَت فيها أصداء مُوحِشة من خطواتنا على الأرض الخشبية العارية، وفتحنا الباب الآخر. وفي الجزأين العلوي والسفلي، بيَّنت مجموعات ثقوب البراغي أن هذا الباب أيضًا اتُّخذت له وسائل تأمين، وأن البراغي في هذا الباب من النوعية والحجم أنفسهما للبراغي التي استُخدمت في الباب الأول.

ابتعد ثورندايك عن الباب وقد قطب جبينه قليلًا.

قال: «إن ساوَرَنا أيُّ شكوك بشأن ما جرى داخل هذا المنزل، فإن هذه المثبتات الكبيرة كفيلةٌ بأن تحوِّل هذا الشك إلى يقين.»

اقترحت: «ربما أُحدثَت هذه الثقوب من قَبل أن يستأجر فايس المنزل. فهو لم يستأجره إلا منذ نحو سبعة شهور، ولا يوجد تاريخٌ على ثقوب البراغي.»

«هذا صحيح تمامًا. ولكن بناءً على أن هذه البراغي قد ثُبتت منذ فترةٍ قصيرة، وحين تدمج الوقائع بأنها قد أزيلت، وأنه اتُّخذت إجراءاتٌ حثيثة كي تُطمس آثار وجودها، وأنه كان لا بد من اتخاذ تلك الاحتياطات؛ من أجل ارتكاب جريمة نكاد نكون على يقين من ارتكابها هنا، فأرى أن محاولة إيجاد تفسيرات أخرى ما هي إلا إفراط في الحذر.»

قلت معترضًا: «ولكن إذا كان الرجل جريفز حُبس بالفعل، ألم يكن بوسعه تحطيمُ النافذة وطلبُ المساعدة؟»

«النافذة تطل على الفناء كما ترى، ولكن أتوقَّع أنه اتُّخذت لها هي الأخرى وسائل تأمين.»

فتح المصاريع الثقيلة ذات الطراز القديم ثم أغلقها.

«أجل، ها هي الآثار.» أشار إلى أربع مجموعات من ثقوب البراغي في أركان المصاريع، وأخرج مصباحه مرة أخرى، وتفحَّص الأجزاء الداخلية من التجاويف التي تُطوى المصاريع فيها فحصًا دقيقًا.

قال: «طبيعة التأمين واضحة تمامًا. يمر قضيب حديدي من أعلى النافذة حتى أسفلها وقد ثُبِّت برزَّة وقفل. وإذا نظرت، فسترى أثر القضيب في التجاويف حين تُطوى المصاريع. وحين ثُبتت هذه القضبان وأُحكم عليها القفل ورُبطت البراغي، صارت هذه الغرفة سجنًا مؤمَّنًا لسجينٍ لم تتوفَّر له أي أدوات، وكأنها زنزانة في سجن نيوجيت.»

نظر أحدنا إلى الآخر لفترةٍ من دون أن يتفوه أحد؛ وأتخيل أنه لو رأى السيد إتش فايس وجهَينا، فلربما رأى أن الأفضل له أن يبحث عن ملاذٍ أبعد من هامبورج.

في النهاية، قال ثورندايك بنبرةٍ هادئةٍ متشائمة ولطيفة أيضًا: «إنه تفكير شياطين يا جيرفيس. إنها جريمة دنيئة وشنعاء ارتُكبت بدم بارد، إنها من الجرائم التي لا تُغتفر البتة ولا تخفَّف فيها العقوبة. بالطبع ربما لم تُرتَكب. وربما السيد جريفز على قيد الحياة الآن. وسآخذ على عاتقي أن أسعى كي أتأكد إن كان في بطن الأرض أم على ظهرها. وإن لم يكن على ظهرها، فسأعتبر إلقاء القبض على قاتله واجبًا مقدسًا عليَّ.»

نظرت إلى ثورندايك وفي نفسي شيء من الرهبة. ففي نبرة صوته الهادئة وغير العاطفية، وفي أسلوبه غير الغاضب وتعبيرات وجهه الهادئة الجامدة؛ رأيت شيئًا مؤثرًا وحاسمًا أكثر مما أراه في أعنف التهديدات أو في أقذع الإدانات. لمست في هذه الكلمات الملفوظة بهدوءٍ أنه حكم على المجرم الفارِّ بالموت.

ابتعد عن النافذة وجال ببصره في الغرفة الفارغة. وكأن اكتشاف وسائل تأمين الغرفة هو كل المعلومات التي يمكن أن تُوفرها الغرفة.

قلت: «من المؤسف أننا لم نتمكن من التفتيش قبل أن يرفعوا الأثاث. فلربما توصلنا حينئذٍ إلى أطراف خيوط توصلنا إلى هُويَّة المجرم.»

رد ثورندايك: «نعم، أخشى ألَّا نجد معلومات كثيرة يمكننا جمعها من هنا. وأرى أنهم نظفوا الأرض حتى من المخلفات الصغيرة، ووضعوها تحت شبكة المدفأة كي تحترق. سننظر تحت هذه الشبكة؛ حيث إنني لا أرى مكانًا آخر نفتِّشه هنا غيرها، ثم سنبحث في بقية الغرف.»

مشَّط كومة القمامة الصغيرة بعصاه ونثرها في الموقد. بدت المحاولة غير مبشرة البتة؛ حيث إنها ليست سوى كومة قمامة كأي كومة تُترك في غرفة غير منظمة عند الانتقال من المسكن. لكن ثورندايك بدأ يُمعن النظر فيها بطريقة منهجية؛ حيث إنه بدأ يفحص كل عنصر مهتمًّا، حتى إنه تفحص فواتير التجار المحليين والأكياس الورقية الفارغة قبل أن يضعها جانبًا. تمشيطة أخرى من عصاه بعثر بها كُتَلًا كبيرة من الورق

المكوَّم، وأظهر شيئًا التقطه بقدر من اللهفة. إنه جزء من نظارة، ويبدو أن أحدًا كان يستعملها؛ لأن ذراعَيها منحنِيتان ومطويتان، وزجاج العدسة مهشَّم إلى شظايا.

قال: «ينبغي أن تعطينا هذه النظارة بعض التلميحات. وربما نكتشف أنها كانت تخُص فايس أو جريفز؛ حيث إن الواضح أن السيدة شاليبام لا تستعمل نظارة. لنكمل حتى نرى هل سنعثر على باقي النظارة أم لا.»

اعتنينا كلانا ونحن نتحسَّس ما في كومة القمامة بعصوينا؛ حيث نثرناه في الموقد وأزلنا العديد من الورق المكوَّم. أسفر بحثنا عن اكتشاف العدسة الثانية للنظارة، وكان زجاجها محطمًا لكنه لم يكن مهشَّمًا مثل زجاج العدسة الأولى. كذلك التقطت عُودين صغيرين وقد نظر إليهما ثورندايك باهتمام بالغ قبل أن يضعهما على رف الموقد.

قال: «سننظر فيهما بعد قليل. لننتهِ من النظارة أولًا. ترى أن عدسة العين اليسرى أسطوانية ومقعَّرة. وربما نتوصل إلى هذا القدر من المعلومات من بقايا الشظايا، ويمكننا قياس التقعر حين نبلغ المنزل، ولكن ستسهُل المهمة أكثر إذا جمعنا المزيد من الشظايا وجمعناها مع بعضها. عدسة العين اليمنى من الزجاج المسطح، ولا لبس في وضوح هذا. وأرى أن هذه النظارة تخص مريضك يا جيرفيس. وأحسبك قلت إن عينه اليمنى هي المصابة بالقزحية الرعاشة، أليس كذلك؟»

أجبته: «بلى. لا شك في أن هذه نظارته.»

أردف: «هذا الإطار مميز. لو أنه صُنع في بلدنا هذا، لربما نتمكن من معرفة صانعه. ولكن يجب أن نجمع أكبر قدر ممكن من الشظايا.»

بحثنا في كومة القمامة مرة أخرى، وفي نهاية المطاف، نجحنا في العثور على سبع أو ثماني شظايا أخرى من عدسات النظارة المكسورة، وقد وضعها ثورندايك على رف الموقد بجانب العودين الصغيرين.

قلت وأنا آخذ العودين كي أتفحصهما مرة أخرى: «بالمناسبة يا ثورندايك، ما هذان العودان؟ هل يمكن أن تخرج منهما بمعلومات؟»

نظر إليهما مفكرًا بضع لحظات، ثم أجابني:

«لا أظنني سأخبرك ما هما. عليك أن تكتشف هذا بنفسك، والأمر يستحق أن تُنفق فيه وقتك حتى تعرف. إنهما شيئان يحملان قدرًا من المعلومات في ظل هذه الظروف. ولكن اهتم وأنت ترصد سماتهما الخاصة. فكلاهما جزءان من ذراع ناعمة وقوية. فهذا عود رفيع وطويل — نحو ست بوصات — وقطعة أكثر سُمكًا بطول ثلاث بوصات

فقط. ويعلق في طرف القطعة الأطول قصاصة ورق حمراء صغيرة، ويبدو أنها جزء من ملصق من نوعٍ ما له إطار مزخرف. أما الطرف الآخر فقد تعرَّض للكسر. ثم وُسِّع التجويف في منتصف القطعة الأقصر والأقوى صناعيًّا؛ بحيث يتناسب مع القطعة الأخرى، ويكون لها غطاء أو غمد. دوِّن هاتَين المعلومتَين وحاول أن تفكر في الاحتمالات التي تنطويان عليها، وما هو الاستخدام الأرجح لشيء من هذا النوع. وحين تقف على جليَّة أمرهما، ستعرف معلومة جديدة عن القضية. والآن، لنستأنف بحثنا. ها هو شيء قد يحمل معلومات كثيرة.» التقط زجاجة صغيرة ذات فوهة كبيرة، ورفعها كي أنظرَ إليها متفحصًا، ثم أردف: «لاحظ الذبابة الملتصقة بالداخل والاسم على الملصق «فوكس، شارع راسل، كوفينت جاردن».»

«لا أعرف السيد فوكس.»

«إذن، سأخبرك أنه تاجر في مواد «التجميل» الخاصة بالمسارح أو ما شابه، وسأتركك تفكر في علاقة هذه الزجاجة في التحقيق الذي نجريه حاليًّا. ويبدو أنه لا يوجد شيء جديد يلفت الانتباه في هذه المغارة باستثناء ذلك البرغي؛ إذ تلاحظ أن حجمه يساوي تقريبًا حجم البراغي التي ثُبتت في الأبواب. ثم إنني لا أرى فائدةً من نزع المعجون من أي ثقب وفحصه، فلن نتوصَّل إلى معلوماتٍ جديدة.»

نهض، وبعد أن أعاد القمامة المهمَلة إلى مكانها خلف الشبكة، جمع الأشياء التي التقطها من فوق رف الموقد، ووضع النظارة وشظايا الزجاج التي جمعها في صندوقٍ من القصدير يبدو أنه لا يبرح جيبه، ولف القطع الكبرى في منديل.

حين أدخل الصندوق والمنديل في جيبه، قال: «هذه المجموعة مخيبة للآمال، ولكن ليس بالقدر الذي خشيته. لكن ربما إذا درسنا هذه الأشياء الصغيرة المهمَلة بقدر من الدقة، ربما تكشف لنا عن شيء ذي قيمة في نهاية الأمر. هيا بنا سندخل الغرفة الأخرى.»

صعدنا إلى البسطة ودخلنا إلى الغرفة الأمامية، وفيها عمدنا إلى المدفأة مباشرةً، بناءً على تجربتنا في الغرفة السابقة. ولكن كومة القمامة في تلك الغرفة لم تحتوِ على شيء يمكن أن يلفت انتباه عين ثورندايك الناقدة. تجولنا في أرجاء الغرفة مُكتئبَيْن، وأخذنا ننظر في الخزانات الفارغة ونتفحص الأرضية والأركان عند جدران الغرفة، ولكننا لم نكتشف شيئًا أو بقايا خلَّفها شاغلوها السابقون. وبينما أتجول، توقفتُ عند النافذة وأخذت أنظر في الشارع، وحينئذٍ نادى ثورندايك بصوتٍ عالٍ:

«ابتعد عن النافذة يا جيرفيس! هل نسِيتَ أن السيدة شاليبام ربما تكون في المنطقة في هذه اللحظة؟»

في الحقيقة، لقد نسيتُ هذه المسألة تمامًا، ولم يخطر ببالي حينئذٍ سوى أن وجودها من أبعد الاحتمالات. ومن ثم أجبته بناءً على ما اختلج بعقلي.

أردف ثورندايك: «أنا لا أتفق معك. فقد سمعنا أنها تأتي إلى هنا من أجل الخطابات. وربما تأتي كل يوم أو حتى أكثر من مرة في اليوم. وتذكَّر أنهم عُرضة لخسارة الكثير، وأنه لا يسعهم الشعور بالأمان كما يريدون. لا بد أن فايس قد أدرك رأيك في الحالة، ولا بد أنه مر بأوقاتٍ أعياه التفكير فيها فيما يمكن أن تفعله. وفي الحقيقة، يمكن أن نعتبر خروجه من المنطقة مدفوعًا بالخوف منك، وأنهم حريصون كل الحرص على أن يحصلوا على ذلك الخطاب كي يقطعوا أي صلةٍ تربطهم بهذا المنزل.»

وافقته: «أظن أن الأمر كذلك، وإذا تصادف ومرَّت السيدة من هذا الطريق ورأتني في النافذة وتعرَّفت عليَّ، فبالتأكيد ستشك في الأمر.»

تعجب ثورندايك: «ستشك أيما شك! بل إنها ستتيقن، وحينئذٍ سيتخذ السيد إتش فايس حذره أكثر من ذي قبل. هيا نُلقِ نظرةً على الغرف الأخرى، فلا شيء هنا.»

صعدنا إلى الطابق التالي، ولم نعثر على آثارٍ تدل على إقامة أحدهم منذ فترة وجيزة إلا في غرفة واحدة. واضح أن العليَّات لم تُستخدم، ولم يوجد في المطبخ وغرف الطابق الأرضي شيءٌ يراه ثورندايك ذا قيمةٍ عنده. عندئذٍ خرجنا من الباب الجانبي وسلكنا الطريق المغطَّى بالحصى إلى الفناء الخلفي. وجدنا الوِرَش مُقفَلةً بأقفالٍ صَدِئةٍ يوحي مظهرها أنها لم تُمسَّ منذ شهور. كانت الإسطبلات فارغة، وقد نُظفت على عجل، وكان مبيت العَرَبة شاغرًا، ولم نعثر على أي آثار تدل على أنه استُخدم في الآونة الأخيرة، باستثناء فرشاة سلكية متهالكة. عدنا أدراجنا عبر الطريق المغطَّى بالحصى، وكدتُ أُغلق الباب الجانبي الذي تركه ثورندايك مواربًا، ولكنه أوقفني.

قال: «سنلقي نظرةً أخرى على الصالة قبل أن نغادر»، ومشى الهوينى أمامي، وشق طريقه إلى الباب الأمامي، وأخرج المصباح من جيبه وسلط شعاعه داخل صندوق الخطابات.

سألته: «هل ثمة خطابات جديدة؟»

كرر متعجبًا: «ثمة خطابات جديدة! انظر بنفسك.»

انحنيت ونظرت من خلال الشبكة في داخل الصندوق المضاء، وحينئذٍ انطلقت صيحة مني.

الصندوق فارغ.

نظر إليَّ ثورندايك وعلى شفتيه ابتسامة كدِرة. قال: «يُخيَّل إليَّ أننا أُخِذنا على حين غرة يا جيرفيس.»

رددت: «هذا غريب. فأنا لم أسمع أي صوت لفتح الباب أو إغلاقه؛ فهل سمعتَ أنت؟»

«لا، لم أسمع أيَّ صوت؛ ولذا أشكُّ في أنها من أخذت الخطاب. والأرجح أنها سمعتنا نتحدث وربما تراقبنا عن كثبٍ الآن. لا أعرف إن كانت رأتكَ عند النافذة. لكن سواء رأتك أم لم ترَكَ، فلا بد أن نتوخى الحذر في خطواتنا. ويجب ألَّا يعود أحدٌ منا إلى منطقة تيمبل مباشرةً، والأفضل أن نفترق حين نُرجِع المفاتيح، وأنا سأراقبك حتى تختفي عن الأنظار وأرى إن كان أحدٌ في عقِبك. ما الذي ستفعله؟»

«إذا لم تكن بحاجة إليَّ، فإنني أنوي الذهاب إلى كينينجتون وأتناول الغداء مع عائلة هورنبي. فقد قلت لهم إني سأُلبِّي الدعوة بمجرد أن أفرغ لمدة ساعة أو نحو ذلك.»

«حسن جدًّا. افعل ذلك؛ ولكن احذر فلربما تكون مراقَبًا. ينبغي أن أذهب إلى جيلفورد بعد ظهر اليوم. وبسبب هذه الظروف، فلا ينبغي لي أن أعود إلى المنزل، بل سأرسل برقية إلى بولتون وأستقل القطار من فوكسهول، وأغيِّر مكاني في محطة صغيرة بحيث يمكنني مراقبة الرصيف. كن حذرًا قدر المستطاع. وتذكر أن ما ينبغي أن تتحاشاه هو أن يتتبعك أحد إلى مكان تكون معروفًا فيه، والأهم من ذلك، ينبغي ألَّا تكشف علاقتك بالرقم ٥أ، شارع كينجس بينش ووك.»

بعد التفكير في تحركاتنا الفورية، خرجنا معًا من البوابة الصغيرة وأغلقناها خلفنا، وحثثنا الخُطى إلى مقر الوكيل العقاري، حيث استلم العامل المفاتيح من دون أن يعلِّق. ولما خرجنا من المكتب، وقفت مُتمَلمِلًا ونظر كلانا في الشارع جهة اليمين واليسار.

قال ثورندايك: «لا يوجد شخص مظهره مريب الآن»، ثم سأل: «ما الطريق الذي ستذهب فيه؟»

أجبته: «يبدو لي أن أفضل خطة أن أستقل سيارة أجرة أو حافلة؛ حتى أخرج من المنطقة بأسرع ما يمكن. وإذا سلكت شارع رافنسدين كي أبلغ طريق كينينجتون بارك، يمكنني أن أستقلَّ حافلةً من هناك كي توصلني إلى مانشن هاوس، حيث يمكنني أن أستقل وسيلة نقل أخرى إلى كينينجتون. وسأجلس في الطابق العلوي بحيث يمكنني أن أرى إن كانت هناك حافلة أو سيارة أجرة آتية في عقبي.»

قال ثورندايك: «نعم، أرى أن خطتك جيدة. سأمشي معك كي أطمئن إلى أن الرحلة ستبدأ كما نرجو.»

أسرعنا ونحن نقطع الممر وشارع رافنسدين إلى طريق كينينجتون بارك. وجدنا حافلة عامة تقترب منا من الجهة الجنوبية بسرعة ثابتة، ووقفنا عند الناصية ننتظرها. مر بنا كثير من الناس في اتجاهات مختلفة، ولكن لم نرَ أحدًا يُعيرنا كبير اهتمام، على الرغم من أننا كنا نحدق فيهم النظر، لا سيما النساء. ثم تباطأت الحافلة. عندئذٍ دخلت الحافلة وقفزت إلى الطابق العلوي للحافلة، حيث جلست وألقيت نظرة على مرمى بصري من خلف الحافلة. لم يركب أحد آخر الحافلة — التي لم تتوقف — ولم أرَ سيارة أجرة أو مركبة أخرى على مرمى بصري. ظللت أراقب ثورندايك وهو واقف كأنه حارس عند الناصية، ولم تقع عيني على أحد يحاول اللحاق بالحافلة. عندئذٍ لوَّح صديقي بيده إليَّ وتوجه صوب فوكسهول، ولما تحققت مرة أخرى من عدم وجود سيارة أجرة تلاحقنا أو راكب يسرع في اللحاق بنا، علمتُ أن الاحتياطات التي اتخذناها لم تكن ضرورية وجلست في مكان أكثر راحة.

الفصل العاشر

عندما يصير الصياد فريسة

اتَّسمت حافلات الركاب في تلك الأيام ببطء السرعة. كان إيقاع سيرها المعتاد مثل هرولةٍ متثاقلة، وتتباطأ هذه السرعة أكثر في الطرق المكتظة بالمارة بسبب الوقوف المتكرر. بأخذ هذه الحقائق في الاعتبار، نظرت خلفي بين الفينة والأخرى ونحن نتجه شَمالًا، على الرغم من أن انتباهي بدأ يتحول تدريجيًّا من احتمالية التعقُّب من بعيد، إلى الأحداث التي جرَتْ في عملية الاستكشاف الأخيرة.

لم يكن من الصعب رؤية انبلاج أسارير ثورندايك بنتائج البحث، ولكن باستثناء الخطاب، الذي لا شك أنه سيوسع دائرة التحريات والمتَّهمين المحتملين، لم أستطع أن أدرك السر في ابتهاج ثورندايك بأيٍّ من الآثار التي عثرنا عليها. فقد عثرنا على نظارة على سبيل المثال. والأرجح أنها النظارة التي كان يرتديها السيد جريفز. ولكن ماذا بعد؟ ولا يُحتمل البتة أن نتمكن من معرفة جهة تصنيع النظارة، وإن عرفناها، فما يزال من غير المحتمل أن تعطينا أي معلومات يمكن أن تفيدنا. فجهات تصنيع النظارات عادةً لا تكون على علاقات وطيدة بعملائها.

وأما الأشياء الأخرى، فلم أتمكن من التوصل إلى أي نتيجة بشأنها. من الواضح أن العودين الصغيرين كان لهما استخدام يعلمه ثورندايك، ويكشفان عن معلومات — عبر الاستدلال — عن فايس أو جريفز أو السيدة شاليبام. ولكني لم أرَ عيدانًا بهذا الشكل قط، ولم أستدل منهما على شيء. ثم تلك الزجاجة التي اهتم ثورندايك لأمرها كثيرًا، فإني لم أرَ فيها أي فائدة. وفي الحقيقة، هي تشير إلى أن أحد أفراد المنزل له علاقة بالمسرح، ولكن لم تحدد من يكون ذاك الشخص. بالتأكيد ليس هو السيد فايس؛ حيث إن مظهره بعيد كل البعد عن مظهر الممثلين. وعلى أي حال، لم أستدلَّ من الزجاجة والملصَق الذي

عليها على معلومةٍ مفيدةٍ سوى أنه يمكن استدعاء السيد فوكس واستجوابه، ولكن بداخلي إحساس يؤكد لي أن هذا ليس هو الذي جال في خاطر ثورندايك بشأنهما.

شغلت هذه الأفكار عقلي حتى اتجهت الحافلة — بعدما عبرت جسر لندن وشارع كينج ويليام — إلى شارع مانشن هاوس المكتظ بالحركة المرورية. وهنا، نزلتُ وتحوَّلت إلى حافلة ذاهبة إلى شارع كينزنتون؛ وفيه سرت جهة الغرب والسعادة تغمرني، وأخذت أنظر إلى الشوارع المزدحمة، وأقضي وقتي أتأمَّل في فترة ما بعد الظهيرة التي خططتُ لها، كما أني تفكرت كيف أن ترتيبي الجديد مع ثورندايك سيربطني ببعض الالتزامات الشخصية المثيرة للاهتمام كثيرًا.

تعذَّر معرفة الأحداث التي ربما حدثت في ظل الظروف الأخرى، ولم تكن ثمة فائدة من التكهُّن، والحقيقة أن رحلتي انتهت بحالة من الإحباط. فبعد أن وصلت متلهفًا إلى المنزل القريب إلى قلبي في إندسلي جاردنز، أخبرتني خادمة متعاطفة أن العائلة قد خرجت، وأن السيدة هورنبي قد ذهبت إلى الريف ولن تعود إلى المنزل إلا في الليل، وأن ابنة أختها الآنسة جولييت جيبسون — وهذه أكثر ما يهمني — قد رافَقَتْها.

لا يحق لرجل أتى إلى الغداء من دون موعد أو إعلان عن نيته مسبقًا كي يتأكد من نوايا أصدقائه؛ أن يمتعض إذا قُدِّر له ألَّا يجد أحدًا في المنزل. وبهذه الأفكار الفلسفية، ابتعدت عن المنزل في حالة استياء عميق، وأتساءل عن الذي دفع السيدة هورنبي إلى أن تختار أول يوم إجازة لي كي تذهب في نزهة إلى الريف، والأهم من ذلك، لماذا احتاجت أن تأخذ معها حبيبتي جولييت الجميلة؟ إنه حظ عاثر (لو كانت السيدة الكبيرة وحدها هي الغائبة، لاستطعت أن أتدبر أمري جيدًا)، وبما أنني لن أستطيع العودة إلى تيمبل من فوري، فقد هِمتُ على وجهي في الطرقات.

بدافع الغريزة التي تتجلَّى عندي بعد الساعة الواحدة ظهرًا على وجه الخصوص، وجدت نفسي متجهًا إلى طريق برومبتون، وفي النهاية وجدتني جالسًا على طاولة في مطعم كبير، من الواضح أنه مصمَّم لتلبية احتياجات السيدات اللاتي أتَيْنَ من مسافاتٍ بعيدة كي يمارسْنَ الرياضة النسائية؛ ألَا وهي التسوق. وبينما أنتظر إحضار وجبة الغداء، جلست من دون حَراكٍ أقلِّب صفحات الجريدة الصباحية، وأتساءل عن الذي سأفعله في باقي اليوم، ولم يمرَّ وقتٌ طويل حتى وقعَت عيني على إعلانٍ عن حفل مسائي في المسرح الكائن في ميدان سلون. لم أحضر مسرحًا منذ وقت طويل، وبما أن المسرحية من الكوميديا الخفيفة، فقد رأيت أنها تُرضي ذوقي غير النقدي؛ ولذا قررت أن أخصِّص فترة ما بعد

الظهيرة لتجديد صلتي بالدراما. ومن ثم بمجرد أن فرغت من وجبة غدائي، قطعت طريق برومبتون واستقللت حافلةً أوصلَتْني عند باب المسرح مباشرةً. وبعد دقيقتَين، وجدت نفسي جالسًا في مقعدٍ ممتازٍ في الصف الثاني داخل صالة العرض، وقد نسيت خيبة أملي الأخيرة وتحذيرات ثورندايك.

أنا لست من هواة المسرح المتحمسين. وبالنسبة إلى العروض الدرامية، فأنا أميل إلى عدم إيلائها وظيفة أكثر من كونها مصدر ترفيه لي. فأنا لا أذهب إلى المسرح بدافع التوجيه أو الارتقاء بالنظرة الأخلاقية. بل أذهب بدافع المكافأة، فإرضائي ليس بالأمر الصعب. إنني أقدِّر المسرحيات البسيطة التي تتفق مع ذوقي غير المعقَّد، ويمكنني أن أستمتع لأقصى حدٍّ بالعرض المسرحي؛ وفي هذا العرض، حين أُسدِل الستار الأخير ونهض الجمهور، أخذت قبعتي من مكانها غير المستقر والتفتُّ كي أخرج، وأنا يجتاحني شعور أنني استمتعت بفترة ما بعد الظهيرة أيما استمتاع.

لما خرجت من المسرح، وسرت وسط حشود الجماهير، وجدتُني أمام باب أحد المقاهي. أرشدتني الغريزة — غريزة الساعة الخامسة هذه المرة — إلى الدخول؛ حيث إننا مخلوقات تُكوِّن عادات، لا سيما عادة احتساء الشاي. وجدت طاولة فارغة في زاوية منخفضة الإضاءة وليست بعيدة عن مكتب الدفع؛ وما كادت تمر دقيقة على جلوسي حتى مرَّت بي سيدة إلى الطاولة الأبعد. ولما مرت من خلفي، لم أرمقها إلا بنظرة واحدة وهي تقترب، ولكن هذه النظرة أرتني أنها ترتدي ملابس سوداء وترتدي حجابًا وقبعة مطرزين، كما أنها تحمل كوب حليب وكعكة، وتعلق في ذراعها مظلة وسلة صغيرة من الواضح أنها تحتوي على بعض أنواع أدوات التطريز. والحق أني لم أُعِرْها اهتمامًا كبيرًا حينذاك؛ حيث إنني انخرطت في أفكاري المتململة بشأن المدة التي سأمكثها حتى تدرك النادلة أني موجود.

بناءً على الوقت في الساعة المعلقة على الحائط، مر ثلاث دقائق وربع حتى أتت شابةٌ شاحبة الوجه إلى طاولتي، ورمقَتْني بنظرةٍ متجهِّمةٍ وكأنها تسأل ماذا أريد في هذه الساعة. طلبت منها بكل تواضعٍ أن تأتيني بإبريق شاي؛ ومن ثم استدارَت على كعبها (وقد تآكل جزءٌ كبير من أحد جوانبه) ومن ثم أبلغت طلبي إلى سيدةٍ خلف منضدة تعلوها بلاطة من الرخام.

يبدو أن السيدة خلف المنضدة متساهلة، وفي أقل من أربع دقائق عادت النادلة متجهِّمة الوجه، ووضعت على الطاولة أمامي إبريقًا من الشاي وإبريقًا من حليب،

وفنجانًا وصحنًا، وإبريقًا من الماء الساخن، وقد انسكب على الطاولة قدر ضئيل من الحليب. ثم غادرت مرة أخرى في حالةٍ من الامتعاض.

وما كدت أبدأ في تقليب الشاي في الإبريق، وأصُب الفنجان الأول حتى شعرت بشخص يصطدم بكرسيِّي اصطدامًا خفيفًا، وسمعت صوت صلصلة خفيفة على الأرض. التفتُّ ورأيت السيدة — التي رأيتها وهي تدخل — منحنيةً خلف كرسيِّي مباشرةً. يبدو أنها فرغت من وجبتها المتواضعة، وهمَّت بالخروج، إلا أنها أسقطت سلتها الصغيرة التي رأيتها متدليةً في ذراعها، وسرعان ما أفرغت السلة محتوياتها بالكامل على الأرض.

والآن، لا بد أن كل فردٍ لاحظ مرونة الجمادات حين تسقط على الأرض، وكأنها أصيبت بمسٍّ شيطاني، ولا بد أنهم لاحظوا المكر الواضح وهي تكتشف أصعب الأماكن وصولًا وتتدحرج إليه. وهذا الموقف مثال على ما أقول. فقد احتوت هذه السلة على مواد لأعمال التطريز الشرقي، وما كادت تبلغ الأرض حتى أُفرغت منها محتوياتها، وكأن كل قطعة منها مسَّها شيطان يدفعها بسرعة متهورة إلى زاوية نائية يصعب الوصول إليها، بحيث تبتعد إلى أبعد مسافة ممكنة.

بما أنني الرجل الوحيد — والشخص الوحيد تقريبًا — القريب من الحادث، فقد آل إليَّ واجب الإنقاذ؛ ومن ثَم جثوت على ركبتيَّ ويديَّ ولم آبَه للسروال الذي لا يزال جديدًا، وأخذت أحبو تحت الطاولات والكراسي؛ كي تصل يدي وتمسك ما بُعثر من تلك السلة. استعدت كُرةً من الخيط السميك أو المجدول من زاويةٍ مظلمةٍ وقذرة، بعدما ارتطم رأسي بزاوية إحدى الطاولات، وجمعت كميةً كبيرةً من حبات الخرز الكبيرة التي تُنفَّذ بها هذه الصنعة المُضجِرة، وقد توجهت في كل الاتجاهات، وفي النهاية أتيت حبوًا على يديَّ وقدميَّ ومعي حفنة كبيرة من الأشياء المستعادة، وأمسيتُ على معرفة جيدة بصلابة قائم الطاولة المصنوع من حديد الزهر، حين يرتطم به رأس الإنسان.

كانت صاحبة الأغراض المستَرَدَّة في حرج بالغ بسبب الواقعة والانزعاج الذي تعرضت له، وفي الحقيقة أمست في حالة ضيق بالغ من دون داعٍ. ما استطاعت أن تخفي رجفة يدها التي تحمل السلة التي صببت فيها الأغراض المرتجعة، وحين تحرك لسانها بكلمات الشكر والاعتذار بلكنة غريبة نوعًا ما، رمقتها بنظرة علمت منها كم هو شحوب وجهها. رأيت هذا القدر من الشحوب على الرغم من الضوء الخافت في ذلك الجزء من المقهى، والحجاب المطرز الذي يغطي وجهها، وقد رأيت أنها امرأة جميلة لها شعر أسود كثيف وخشِن، وحاجبان أسودان عريضان يكادان يتقابلان فوق أنفها، ويُحدِثان تباينًا

مع بشرتها الشديدة البياض. ولكن بالطبع لم أحدق النظر فيها. وبعدما أرجعت لها أغراضها وتلقيت منها كلمات الثناء، عُدت إلى مقعدي وتركتها تذهب في سبيلها.

أمسكت مقبض إبريق الشاي مرة أخرى وحينئذٍ اكتشفت شيئًا غريبًا. وجدت مكعَّب سكر في قعر فنجان الشاي. الغالبية لن ترى ما يثير العجب في ذلك. ولربما افترضوا أنهم وضعوه في الفنجان ونسوه، وسيشرعون في صب الشاي. لكن حينذاك لم أكن أضيف السكر إلى الشاي، وهذا يعني أنني لست مَن وضع المكعَّب. ولذا افترضت أنه سقط من النادلة من دون قصد؛ ومن ثم أخرجته ووضعته على الطاولة، وملأت الفنجان وأضفت الحليب، وأخذت رشفةً أوليةً كي أختبر درجة الحرارة.

ما كدت أُنزل الفنجان من على شفتي، حتى تصادف أن نظرتُ في المرآة المواجهة لطاولتي. بالطبع المرآة تعكس الجزء الذي خلفي في المقهى، ويشمل مكتب الخزينة حيث تقف عليه صاحبة السلة كي تدفع حسابها. وبيني وبين المرأة ثريا تضيء بالغاز وتلقي بضوئها خلف ظهري، ولكنها تُلقيه على وجه المرأة، وعلى الرغم من أنها ترتدي حجابًا، فقد رأيت أنها لم تُحول نظرها عني، بل إنها تراقبني باهتمام وعلى وجهها تعبير غريب، إنه تعبير يمزج بين التوقُّع والحذر. ولكن هذا ليس كل شيء. بادلتها تلك النظرة المقصودة — ولكن من دون أن تلحظ هي؛ حيث إن وجهي المنعكس في المرآة في مكان مظلم — وفجأة أدركت أنها لا ترمقني بتلك النظرة الراسخة إلا من عينها اليمنى، وأن عينها الأخرى تنظر باتجاه كتفها الأيسر. باختصار، إنها تعاني حوَلًا تباعُديًّا في عينها اليُسرى.

وضعتُ فنجان الشاي وقد سرت في أوصالي رعشة من المفاجأة، وتسللت قشعريرة القلق والحذر فجأةً إلى جسدي. ذكَّرني التفكير للحظة أنها حين تحدثت إليَّ منذ لحظات قليلة، قد نظرت إليَّ بعينيها ولم أرَ فيهما أدنى علامة على الإصابة بالحوَل. عدت بأفكاري إلى مكعب السكر وإبريق الحليب المكشوف ورشفة الشاي التي ابتلعتها لتوِّي، ولا أكاد أتبين ما أنوي فعله، ولكني وقفت على قدميَّ والتفتُّ بحيث أكون مواجهًا لها. ولكن حين وقفت، انتزعت الباقي وخرجت من المقهى مُسرعة. ومن خلال زجاج الباب، رأيتها تقفز على مدوسة قدم في عربة مارة وتعطي السائق بعض التوجيهات. حينئذٍ رأيت الرجل يضرب الحصان بالسوط، ولما وصلتُ إلى الباب، رأيت العربة تسير بسرعة تجاه شارع سلون.

وقفت مترددًا. فأنا لم أدفع الحساب بعد، ولم أستطِع الركض خارج المقهى لئلا أُحدث جلبة، كما أن قُبَّعتي وعصايَ لا تزالان على الحامل المقابل لمقعدي. يجب أن يُقتفى

أثر المرأة، ولكني افتقرت إلى الرغبة في ذلك. وإذا كانت رشفة الشاي التي ابتلعتها غير ضارة، فلا بأس من ذلك وقد تخلصت ممن يتعقَّبني. وعلى حد ما يهمني، فقد طُويت الواقعة. ولذا عدت إلى مقعدي، وأخذت مكعب السكر الذي لا يزال قابعًا على الطاولة، ولففته ووضعته بعناية في جيبي. ولكني فقدت شهيتي إلى الشاي في تلك اللحظة. كما أنني لم أستحسن البقاء في المقهى، كي لا يأتي جاسوس آخر ويعرف كيف أتصرف. وعلى إثر ذلك، طلبت الفاتورة ودفعت حسابي على مكتب الخزينة وغادرت.

كما سيُلاحَظ، أكاد أجزم أن السيدة ذات الرداء الأسود كانت في أثري طيلة هذا الوقت، منذ أن كنت في كينزنتون حتى أتيت إلى هذا المقهى، بل إنها في حقيقة الأمر ليست سوى السيدة شاليبام. الظروف لا تشير إلى غير هذا الاستنتاج. ففي اللحظة التي لاحظت فيها حوَل العين اليسرى، بتُّ متأكدًا من هويتها. وحين وقفت أمام تلك المرأة، أثارت النظرة الخاطفة على وجهها إحساسًا غامضًا يذكرني بشيء سبق أن لاحظته وأنا شبه واعٍ، ونسيته من فوري. ولكن رؤية ذلك الحوَل المميَّز أيقظ في ذاكرتي هذا الشيء وفسَّره. فقد أمسيت متأكدًا من أن هذه السيدة ليست سوى السيدة شاليبام.

على الرغم من ذلك، بدت المسألة برمتها لغزًا محيِّرًا. وأما مظهر المرأة، فلم يكن فيه ما يثير العجب. فالشعر الخشن الأسود يمكن أن يكون شعرها أو شعرًا مستعارًا. كان الحاجبان مرسومين، وأدوات التجميل سهَّلت هذه المهمة كثيرًا، والحجاب المطرَّز سهَّلها أكثر. لكن السؤال الأهم هو ما الذي أتى بها إلى هنا؟ ولماذا تنكَّرت بهذه الطريقة في هذه اللحظة بالذات؟ والأهم من ذلك، كيف توفَّر لها مكعب سكر أشكُّ في أنه مسموم؟

طويت أحداث هذا اليوم، ولكن كلَّما تفكرت فيها، زاد تعقيد فهمها. وعلى حد علمي، لم أرَ أحدًا يتعقَّب الحافلة سواء على قدمه أو في مركبة، وقد ظللت أراقب الأمر بعناية، ليس في البداية فقط، وإنما ظللت أراقبه ردحًا من الزمن. وطيلة هذا الوقت، لا بد أن السيدة شاليبام كانَت في أثري. ولكن كيف؟ إن كانت تعلم أني أنوي ركوب الحافلة، فربما ذهبت واستقلَّتها من محطةٍ قبل محطتي. ولكن المؤكد أنها لم تعلم؛ كما أنها لم تستقلَّ الحافلة قبلي؛ حيث إننا راقبنا الحافلة وهي تقترب من مسافةٍ طويلة. خطر على بالي أنها ربما كانت مختبئة في المنزل واسترقَت السمع حين ذكرت وجهتي لثورندايك. ولكن هذا لا يحل اللغز؛ حيث إنني لم أذكر مكانًا غير كينزنتون. في الحقيقة، ذكرتُ اسم السيدة هورنبي، ولكن على افتراض أن أصدقائي معروفون بالاسم لدى السيدة شاليبام، أو حتى على افتراض أنها بحثت عن الاسم في الدليل، هذا احتمال بعيد ولا يجدر التفكير فيه.

لَمَّا لم أصل إلى تفسير مُرضٍ، كان للغوص في الأفكار نفع؛ حيث إن عقلي انشغل عن التفكير في رشفة الشاي المشئومة. كذلك لم يستمر شعوري بالقلق بعد الصدمة الأولى. فالقدر الذي ابتلعته ليس كبيرًا؛ حيث إن الشاي كان أشد حرارة مما أتحمل، ثم إنني تذكرت أنه حين أخرجت مكعب السكر، قلبت الفنجان رأسًا على عقب على الطاولة؛ ومن ثَم لن يبقى شيءٌ جامد فيه. ثم إن مكعب السكر نفسه طمأنني، لأنه لو أضيف إليه سُم لَما كانت لتستخدم سُمًّا ضعيف المفعول، بل ستستخدم سُمًّا أقوى. وبات مكعب السكر في جيبي، فقد حفظته لفحصه فيما بعد في وقت راحتي، وارتسمت ابتسامة كدرة على شفتيَّ حين فكرتُ في أنه ربما لا يحتوي على أي سُم.

حين غادرت المقهى، سرت في شارع سلون وفي نيتي فعل ما توجَّب عليَّ فعله في بداية اليوم. نويت التيقن من أنه لا أحد يمشي في أثري. ولولا ثقتي التي لم تكن في محلها، لربما تيقنت من ذلك بمنتهى السهولة قبل أن أذهب إلى إندسلي جاردنز؛ ولكن الآن، وبعدما استنار عقلي بتجربةٍ صادمة، شرعت في الأمر بحذر منهجي. لا يزال الوقت في وَضح النهار، ولا حاجة إلى إضاءة المصابيح في المقهى إلا بسبب سوء تصميم البناء، وأُفول فترة ما بعد الظهيرة، ولكن حين خرجت إلى مكانٍ مفتوح، كنت أرى لمسافةٍ بعيدةٍ تمكنني من الاطمئنان على سلامتي. وعندما وصلت إلى ناصية شارع سلون، عبرت شارع نايتسبريدج، ووقتما دخلت إلى حديقة هايد بارك، عمدت إلى بحيرة سيربنتين. سرت بطول الضفة الغربية للبحيرة، وسلكت أحد الممرَّات التي تؤدي إلى معلَم قوس الرخام، وسرت بطول ذلك الممر بسرعة تُجبر أي متقفٍّ أن يسرع كي يبقيني تحت ناظرَيه. وفي منتصف الطريق في منطقة عشبية واسعة، توقفت للحظات كي أنظر إلى الناس القليلين الآتين في طريقي. ثم التفت فجأةً جهة اليسار وعمدت مباشرةً إلى بوابة فيكتوريا، ولكن في منتصف الطريق، عرَّجت مرة أخرى على منطقة بها أشجار واختبأت خلف جذع شجرة، ونظرت مرة أخرى في المارِّين بطول الممرات. كان جميعهم على مسافةٍ بعيدة، ولم أرَ أحدًا آتيًا في الطريق الذي أسير فيه.

أمسيتُ أنتقل من خلف شجرة إلى أخرى حذِرًا، وحين عبرت المنطقة المليئة بالأشجار، قطعت جسر سيربنتين بسرعة كبيرة، وأسرعت بطول الضفة الجنوبية الواقعة يسار الحديقة وعلى مقربة من مبنى أبسلي هاوس. ومن هناك، سرت بسرعة كما أنا بطول شارع بيكاديلي مُتخفِّيًا وسط الحشود المارة، بمهارةٍ أَصقَلَتها السنون الطويلة من التجوُّل في شوارع لندن، وعبرت وسط الحشود المتجمعة عند السيرك، وعمدت إلى شارع ويندميل،

وبدأت أمشي بمسارٍ متعرِّج بين الساحات والشوارع الضيقة في سوهو. حين عبرت طريقَي سيفن دايلز ودروري لين، مررت عبر الشوارع الخلفية والأزِقَّة العديدة التي ملأت المنطقة الواقعة جنوبَيْ نُزُل لينكولن حينذاك، ثم مررت بشارع نيوكاسل وشارع هوليويل وشارع هاف مون ألي، ومنها إلى شارع ستراند؛ ومن ثَم عبرته على الفور، وفي النهاية دخلت إلى منطقة تيمبل عبر شارع ديفيرو كورت.

حتى ذلك الحين، لم أتخلَّ عن احتياطاتي. فكنتُ أتنقَّل بين الساحات مُسرعًا، وأتمشَّى في المداخل المظلمة والممرَّات غير المتوقَّعة، التي لا يعرفها سوى القلة القاطنين في منطقة تيمبل، ولم أخرج إلى منطقة منفتحة إلا في النهاية، حيث لا مهرب من المرور من شارع كينجس بينش ووك الواسع. وفي منتصف الدَّرَج، وقفت بعض الوقت في الظل أراقب القادمين من النافذة التي على السلم، وحين شعرت أني مطمئن إلى أنني اتخذت كل سبل الحذر الممكنة، فتحت الباب بالمفتاح ودخلت إلى المسكن.

وجدت ثورندايك قد سبقني إليه، وحين دخلت، نهض كي يرحِّبَ بي وقد رأيت في وجهه تعبيرات الارتياح حال رؤيتي.

قال: «تسعدني رؤيتك يا جيرفيس. لقد قلقت عليك كثيرًا.»

سألته: «ولمَ القلق؟»

«لأسباب عديدة. السبب الأول هو أنك الخطر الوحيد الذي يهدد هؤلاء الناس، على حد ما يعلمون. السبب الثاني أننا ارتكبنا خطأً فادحًا. فقد غفلنا عن حقيقة كان يجدر بنا أن نراها من فورنا. ولكن كيف سارت الأمور معك؟»

«أفضل مما توقعت. فتلك المرأة الطيبة كانت في أثري كظلي؛ أو على الأقل أحسبها فعلت ذلك.»

«لا شك عندي في أنها فعلت. فقد أُخذنا على حين غرة يا جيرفيس.»

«وكيف ذلك؟»

«سنأتي على ذكر هذا بعد قليل. ولكن أخبرني عن مغامراتك أولًا.»

أعطيته وصفًا كاملًا لتحرُّكاتي منذ وقت افتراقنا وحتى وصولي إلى المنزل، ولم أُغفِل أي حادثة تمكَّنت من تذكرها، وقلت إنني حاولت جهدي أن يكون طريق عودتي مُلتَوِيًا.

علَّق وعلى شفتيه ابتسامة عريضة: «لقد تملَّصت ببراعة كبيرة. وأظنه قد عجز أي أحد عن تعقُّبك، ولكن ربما أتعبتَ نفسك سُدًى. وربما بات من يتتبَّعك شريدًا. ولكنك أحسنت التصرُّف باتخاذ هذه الاحترازات؛ فربما تتبَّعك فايس.»

«ولكن إخاله في هامبورج، أليس كذلك؟»

«هل تظن ذلك؟ أنت شاب محل ثقةٍ كبيرةٍ بالنسبة إلى طبيبٍ شرعي ناشئ. بالطبع لا يسعُنا التأكُّد من عدم وجوده هناك، ولكنه حين أعطى هذا العنوان في الوقت الحالي، فهذا يشير بقوةٍ إلى افتراض أنه في مكان آخر. وما أرجوه ألَّا يكون قد تمكَّن من تحديد موقعك، ولكن بناءً على ما أخبرتني به عن طريقة عودتك، أظنُّك قد ضلَّلته، حتى وإن خرج في أثرك منذ أن كنتَ في المقهى.»

«أرجو ذلك أنا أيضًا. ولكن كيف تمكَّنَت هذه المرأة من أن تصاحبني كظلي هكذا؟ ما الخطأ الذي ارتكبناه؟»

ضحك ثورندايك ضحكة كدِرة. «لقد ارتكبنا خطأً لا مبرر له يا جيرفيس. فقد انطلقت في رحلتك من طريق كينينجتون بارك على متن حافلة عامة تسير على مهل، ولم يتذكر أحد منا ما الذي يوجد أسفل طريق كينينجتون بارك.»

قلت متعجبًا: «ماذا تعني بأسفله!» وكنت في حيرة تامة في هذه اللحظة. وفجأة، أدركت ما يرمي إليه، تعجبت: «بالطبع. ما أحمقني! هل تقصد خط السكك الحديدية الكهربي؟»

«نعم. هذا يفسر كل شيء. لا بد أن السيدة شاليبام راقبتنا من مكان ما ومشت في عقبنا حتى الطريق من دون أن ندري. فقد رأيت نساءً كثيراتٍ على مقربة منا وكلهن يسِرنَ في اتجاهنا. ولم يكن ثمة ما يميزها عن الأخريات ما لم يكن بينكما سابق معرفة؛ ومن ثَم لا تستطيع التعرف عليها إذا ارتدت حجابًا وبقيَت على مسافةٍ مناسبة. أو على الأقل لا أحسبك تستطيع.»

وافقته: «لا، بالتأكيد لن أستطيع. فلم أرَها إلا في غرفة شِبه مظلمة. ومع ارتداء ملابس الخروج والحجاب، لا أستطيع البتة التعرف عليها من دون نظرة فاحصة عن قرب. أضف إلى ذلك التنكُّر أو مساحيق التجميل.»

«لم تكن مُتنكِّرة حينذاك. ولا أحسبها تأتي متنكرة إلى منزلها خشية أن يوقفها أحد ويسألها عن هُويتها. وأظن أنه يمكننا التسليم بأنه لم يكن هناك تنكُّر فعلي، على الرغم من أنها ربما وضعت قُبَّعة مظلَّلة وحجابًا، وهذا ما حجب عن كِلَينا القدرة على تمييزها من بين الأخريات في الشارع.»

«وما الذي حدث بعد ذلك في رأيك؟»

«أظنها مرت بنا ببساطة — وربما كانت على الجانب الآخر من الطريق — حيث وقفنا ننتظر الحافلة، ثم انعطفت إلى طريق كينينجتون بارك. وربما خمَّنَت أننا ننتظر

الحافلة؛ ومن ثَم عبرت الطريق في الاتجاه الذي تسير فيه الحافلة. حينئذٍ، تمر الحافلة بها، ثم تصعد أنت على متن الحافلة بحيث تراك هي بوضوح وتصير أنت تراقب في الاتجاه الخطأ. بعد ذلك، تُسرع هي الخُطى قليلًا وفي غضون دقيقة أو دقيقتين تصل إلى محطة كينينجتون التابعة لسكك حديد جنوب لندن. وفي دقائق معدودة، تستقل هي قطارًا كهربيًّا يسير بسرعة أسفل الشارع الذي تحبو فوقه الحافلة. إخالها نزلت في محطة بورو، أو ربما خاطرت بفرصتها أكثر ونزلت في محطة مونيمنت، ولكنها على أي حال ستنتظر الحافلة التي تستقلها، ثم تشير إليها وتركب. هل أفترض أن الحافلة أقلَّت بعض الركاب في الطريق؟»

«يا إلهي، نعم. فكانت الحافلة تتوقف كل دقيقتين أو ثلاث كي يستقلها راكب أو ينزل آخر منها، ومعظمهم من النساء.»

«جميل، إذن يمكننا اعتبار أنه حين وصلتَ إلى مانشن هاوس، كانت السيدة شاليبام ضمن ركاب الحافلة. وأظنه موقفًا غريبًا للغاية.»

«نعم، اللعنة عليها! ما أحمقنا؛ إذ لا بد أنها ترانا كذلك!»

«لا شك. لكن هذا هو الجزء الوحيد المطَمْئن في القضية. ولا بد أنها اعتبرتنا غِرَّين. ولكن لنكمل. بالطبع سافرَت في الحافلة إلى كينزنتون، ومن المفترض أنك كنت في الحافلة في المرتين؛ ومن ثم تمكنتَ أنت من رؤية كل مَن ركب وتفحصتَ مَن بداخل الحافلة، وحينئذٍ تتبعتكَ إلى إندسلي جاردنز، وربما رأَت المنزل الذي ذهبتَ إليه. وبعد ذلك تعقَّبتكَ حتى المطعم وربما تناولت غداءها فيه.»

قلت: «هذا احتمال وارد. فقد كان في المطعم غرفتان، وأكثر مَن فيهما من النساء.»

«بعد ذلك، ظلَّت في أثرك حتى شارع سلون، وبما أنك ظلَلتَ في الجزء المكشوف من الحافلة، فربما ركبت هي بداخلها. أما بالنسبة للمسرح، فلا بد أنها رأتها فرصة وَهَبها الرب إياها؛ ترتيب أعددتَه أنت من أجل راحتها.»

«لماذا؟»

«فكِّر في المسألة يا عزيزي. فهي لا تحتاج سوى أن تقتفيَ أثرك وتطمئنَّ أنك تجلس في مقعدك، وهذا ما فعلته أنت، ثم تتركك إلى أن تحتاج إليك. حينذاك، تمكَّنَت هي من الذهاب إلى المنزل والإعداد لدورها؛ ومن ثم وضعت خطة عمل — وربما ساعدها السيد فايس — وجهَّزت نفسها بالوسائل والأدوات اللازمة، ثم ذهبت كي تكون في أثرك.»

حاججته: «هذه افتراضات كثيرة. إنك تفترض على سبيل المثال أنها تعيش على مسافة قريبة من ميدان سلون. وإلا استحال عليها أن تُعِد كل هذا.»

«بالضبط. ولهذا أضع هذا الافتراض. ولا تظن أنها معتادة على حمل مكعبات السكر في جيبها دومًا. وإذا لم تكن معتادة على ذلك، فلا بد أنها حصلت عليها من مكان ما. ثم حبات الخرز تشير إلى خطة محكمة الإعداد، وكما قلت لتوي، ربما لم تكن متنكِّرة حين قابلَتنا في كينينجتون لين. وكل هذه الملابسات تشير إلى أنها تعيش في مكان ليس ببعيد عن ميدان سلون.»

قلت: «على أي حال، كانت مخاطرة كبيرة. فلربما غادرتُ المسرح قبل أن تعود.»

وافقني ثورندايك: «كلامك صحيح. ولكن المرأة تحب المخاطَرة. ولو كان من يتتبعك رجلًا، لظل ملازمًا لك بمجرد أن يجدك غافلًا. ولكنها كانت مستعدَّة للمخاطَرة. فقد خاطرت لما استقلَّت السكك الحديدية، وقد نجحت؛ وخاطرت بمكوثك في المسرح، وقد نجحت أيضًا. وقد خمَّنت أنك ستحتسي الشاي بعد خروجك من المسرح، وقد أصاب تخمينها هذه المرة أيضًا. ثم خاطرت مرة أخرى، وما كان لها أن تخاطر، فقد افترضت أنك تحب السكر على الشاي، ولكنها أخطأت هذه المرة.»

علقت: «إننا نتحدث وكأن السكر قد أُعِد مُسبقًا.»

«نعم. تفسيرنا قائم على الافتراض بالكامل، وقد يكون كله خطأً. ولكنه مُتَّسقٌ مع الملابَسات، وإذا وجدنا أي مادة سامَّة في السكر، فسيكون من المنطق أن نفترض صحة تفسيرنا. فالسكر اختبار بالغ الأهمية. وإذا أعطيتني إياه، فسنصعد إلى المختبر ونُجري عليه اختبارًا أو اختبارَين تمهيديَّين.»

أخرجت مكعب السكر من جيبي وأعطيته إياه؛ ومن ثَم أخذه وقرَّبه من مصباح غاز، وفحصه بالعدسة في ضوء المصباح.

قال: «لا أرى أي بلورات غريبة على السطح، ولكن الأفضل أن نحوله إلى محلول ونحلله بطريقة منهجية. إذا كان يحتوي على سم، يمكننا افتراض أنه سيكون من مادةٍ شِبه قَلَوية، ولكني سأختبره بحثًا عن الزَّرنيخ أيضًا. ولكن المؤكد أن رجلًا بعقلية فايس سيستخدم سُمًّا من مادة شبه قلوية؛ لأنها أصغر وقابلة للتحلل بسرعة. وما كان ينبغي أن تحمل هذه القطعة الملفوفة في جيبك. فمن الناحية القانونية، قد يتعارض هذا الإجراء مع قيمتها باعتبارها دليلًا. فالأجسام المشكوك في أنها تحتوي على مادة سامَّة ينبغي عزلها وحفظها من التلامس، مع أي شيءٍ يمكن أن يؤديَ إلى التشكيك في التحليل. ولكن هذا لا يهمنا كثيرًا؛ حيث إننا لا نحتاج التحليل إلا لجمع معلومات لنا نحن، ويمكننا التحقُّق من حالة جيبك. ولكن لا تنسَ هذه القاعدة في المرات القادمة.»

صعدنا إلى المختَبَر، حيث شرع ثورندايك من فوره في تحليل مكعب السكر في كَمِّية محسوبة من المياه المقطَّرة، باستخدام حرارةٍ ذات درجة منخفضة.

قال: «قبل أن نضيف أي مادة حمضية أو أي مادة جديدة، سنبدأ بإجراء مبدئي بسيط لاختبار المحلول. فالسكر عامل مُشوش، ولكن بعض المواد القلوية ومعظم السموم المعدنية، باستثناء الزرنيخ، لها مذاق مميَّز للغاية.»

غمس قضيبًا زجاجيًّا في المحلول الدافئ ووضعه بحذر شديد على لسانه.

مسح فمه بمنديله جيدًا، صاح: «أها! غالبًا ما يكون للطرق البسيطة قيمة كبيرة. فقد تبدد الشك لديَّ بشأن ما يوجد في هذا السكر. وإني أنصح أخي المثقَّف أن يتذوق النكهة. ولكن كن حريصًا. فكمية صغيرة منه يمكن أن يترتَّب عليها عواقب وخيمة.»

أخذ قضيبًا جديدًا من على الرف وغمسه في المحلول وأعطاني إياه. وضعته بحذر على طرف لساني، وأدركت على الفور إحساس التنميل الغريب المصحوب بالشعور بالخَدَر.

قال ثورندايك: «ما قولك؟»

أجبته مترددًا: «أكونيت.»

وافقني: «أجل، أكونيت، أو ربما أكونيتين. وأظن أن هذا يعطينا المعلومات التي نريدها. ولا حاجة إلى إجراء تحليل كامل، على الرغم من أنني سأُجري فحصًا نوعيًّا فيما بعد. تحس بقوة المذاق وتدرك ما مدى قوة تركيز المحلول. ومن الواضح أن مكعب السكر هذا يحتوي على جرعة كبيرة من السُّم. ولو تحلل السكر في فنجان الشاي، لاحتوت الكمية التي احتسيتها على جرعة من الأكونيتين كفيلة بأن تُرديك قتيلًا في بضع دقائق، وهذا ما يفسر العجلة التي كانت فيها السيدة شاليبام كي تخرج من المقهى. لقد رأتك تشرب من الفنجان، ولكن لا أحسبها رأتك وأنت تُخرج السكر منه.»

«لا، فما رأيته من فعلها يوحي بأنها لم ترَني. فقد كانت مُرتعِبة. وليست رابطة الجأش مثل صاحبها النَّذْل.»

«يا لك من محظوظ يا جيرفيس. ولولا ذُعرها، لانتظرتك حتى تصب الشاي، وأحسبها عزمت على ذلك، أو ربما أسقطت السكر في إبريق الحليب. وفي الحالتين، ستكون قد تناولت جرعة سامَّة قبل أن تلحظ أي خطأ.»

صِحت: «إنهما يليقان ببعضهما يا ثورندايك. فحياة الإنسان عندهما ليست أغلى من حياة ذبابة أو خنفساء.»

«نعم، هذا صحيح. إنهما محترِفان للقتل بأسوأ أنواع السموم، كما أنهما يتمتعان بالذكاء والحَيطة وسَعة الحيلة. هذان الشخصان يُمثِّلان تهديدًا على المجتمع. وما داما

طليقين، فإن حياة الناس في خطر، ومن واجبنا ألَّا ندَعَهما طليقَين لوقتٍ أطول من اللازم. وبذلك ننتقل إلى نقطةٍ أخرى. الأفضل أن تبقى مستترًا لبضعة أيام.»

اعترضت: «أوه، هذا غير معقول. يمكنني الاعتناء بنفسي.»

قال ثورندايك: «لن أخالف كلامك، رغم أنني أستطيع ذلك. ولكن المسألة ذات أهمية بالغة، ولن نتمكَّن من تَوَخِّي أقصى درجات الحيطة. وأنت الوحيد الذي يمكن أن يقدم دليلًا يُدين هذَين الشخصَين. وهما يعرفان ذلك، ولن يدَّخرا جهدًا من أجل الخلاص منك؛ وربما باتا متأكدَين من فشل مخطَّط المقهى. والآن، حياتك غالية عليك وعلى شخص آخر نعرفه، وفوق هذا، فأنت الأداة الوحيدة لتخليص المجتمع من هذَين المجرمَين الخطيرَين. إضافة إلى ذلك، إن رآك أحدٌ بالخارج وربط بينك وهذا المسكن، فسيعلم يقينًا أن قضيَّته قيد التحقيق بالفعل. وإذا لم يكن فايس قد خرج من البلاد بالفعل، فسيخرج منها من فوره، وإذا فعل، فلن تتوانى السيدة شاليبام في اللَّحاق به، وقد لا نتمكن من إلقاء القبض عليهما. ولذا يجب أن تستتر وتتوارى عن العيون، والأجدر بك أن تكتب إلى الآنسة جيبسون، وتطلب منها أن تحذِّر الخدم من أن يعطوا أي معلوماتٍ عنك لأي شخص.»

سألت: «وما المدة التي سأمكثها في هذا الإفراج المشروط؟»

«لا أظن أنك ستمكث مدة طويلة. فنحن عندنا بداية مبشرة. وإذا حالفني الحظ، سأتمكن من جمع كل الأدلة التي أريدها في غضون أسبوع. لكن المسألة تنطوي على قدر من الحظ، ما يمنعني إعطاءك موعدًا محددًا. ومن المحتمل أني سلكت مسارًا خاطِئًا. لكني سأتمكن من إخبارك بمعلومات أدق في غضون يوم أو يومين.»

قلت عابسًا: «وهل سأخلع يدي من كل القضايا بالجملة؟»

أجابني: «لا، ليس بالجملة. يمكنك أن تدرس قضية بلاكمور. سأُسلمك كل المستندات، وأطلب منك كتابة ملخص للأقوال. عندئذٍ سيكون لديك كل الوقائع ويمكنك حل القضية بنفسك. سأطلب منك أيضًا أن تساعد بولتون في بعض العمليات التي تُلقي الضوء على المواضع الغامضة، وستجدها مُسلِّية وتثقيفية.»

اقترحت: «ماذا لو أن السيدة هورنبي اتصلت واقترحت أن تتناول معنا الشاي في الحديقة؟»

أردف ثورندايك بنبرة فيها مسحة من سخرية: «وتأتي بالآنسة جيبسون معها؟ لا يا جيرفيس، يجب ألَّا تأتي. ولا بد أن توضح لها أنت هذا الأمر. والأرجح عندي أن السيدة شاليبام قد علمت بشأن المنزل في إندسلي جاردنز، وربما يكون المكان الوحيد الذي تعرفه

عنك؛ ومن ثم فالمؤكد أنها تراقبه هي وفايس إن كانا لا يزالان في إنجلترا. وإذا نجحا في إيجاد صلة بين ذلك المنزل وهذا المسكن، فبضعة تحريات ستُريهما الوضع الدقيق للقضية. ولذا، يجب ألَّا نلفت أنظارهما لنا قَدْر الإمكان. فقد كشفنا الكثير من أمرنا حتى الآن. أعلم أن الأمر صعب عليك، ولكن ما باليد حيلة.»

قلت له بقوة: «أوه، لا تظن أني أشكو. إذا كانت المسألة تتعلَّق بالعمل، فأنا حريص عليها بقدرك. فقد ظننت في البداية أنك لا تأبه إلا إلى سلامتي. أخبِرني متى سأبدأ مهمتي؟»

«صباح الغد. سأعطيك الملاحظات التي دوَّنتُها عن قضية بلاكمور ونُسَخًا من الوصية وأقوال الشهود، وحرِيٌّ بك أن تُعِد منها ملخصًا للأدلة مع إضافة إشارات إلى النتائج التي تقترحها. ثم إن معنا الأشياء التي جمعناها من مجمع نيو إن؛ إذ يجب فحصها ودراستها، وفيما يتعلَّق بهذه القضية، فإن معنا شظايا النظارة، والأفضل أن تُجمَع معًا في شكل أوضح، لعلنا نحتاج إلى تقديمها ضمن الأدلة. هذه المهام ستشغلك لمدة يوم أو يومَين، بالإضافة إلى بعض الأعمال المتعلقة بقضايا أخرى. والآن، لنترك الكلام عن العمل. لم تتناول عشاءك وكذلك أنا، ولكن يمكنني القول إن بولتون قد أعدَّ بعض الطعام. سننزل ونرى.»

نزلنا إلى الطابق السفلي؛ حيث قوبلَت توقُّعات ثورندايك بطاولة منظمة يضع عليها بولتون لمساته الأخيرة.

الفصل الحادي عشر

الاطلاع على قضية بلاكمور

من شروط ممارسة الطب القُدرة على تحويل الانتباه في لحظةٍ من مجموعة ظروفٍ إلى مجموعةٍ أخرى لا تقلُّ أهميةً عن الأولى، رغم أنه لا يوجد رابطٌ بينهما. ومع كل زيارة في جولة الطبيب، فإنه يجد نفسه منشغلًا بمجموعة ظواهر محدَّدة وقائمة بذاتها، ويجب أن يُوليَها أقصى درجات التركيز في تلك اللحظة، ولكنه يجب أن ينبذها من عقله حين ينتقل إلى حالة أخرى. هذه العادة يصعب اكتسابها؛ حيث إن الحالات المهمَّة أو المُقلقة أو الغامضة تستحوذ على الوعي، وتعطل مقدار الانتباه المطلوب من أجل الحالات اللاحقة، ولكن الممارسات تُظهر أن هذه المَلَكة لا غِنى عنها، ومع الوقت يتعلَّم الطبيب أن ينسى كل شيء ما عدا المريض الذي ينشغل بحالته في تلك اللحظة.

في صباح أول يوم عمل في قضية بلاكمور، اتضح لي أن هذه المَلَكة مطلوبة في المجال القانوني أيضًا، كما اتضح لي أنني ما زلت بحاجة إلى اكتسابها. فبينما أطلع على الأقوال ونسخة الوصية، ما برِحَت الذكريات عن المنزل الغامض في كينينجتون لين تتبادر إلى ذهني، وما فتِئت صورة السيدة شاليبام ووجهها الشاحب المذعور ذي النظرات المرتقِبة تُصوَّر في عقلي.

في الحقيقة، لم يكن اهتمامي بقضية بلاكمور أكثر من مجرد اهتمام أكاديمي، أما في قضية كينينجتون فقد كنت أحد الأطراف وكنت مُهتمًّا بها شخصيًّا. وفي نظري، كان جون بلاكمور مجرد اسم، وجيفري ليس سوى شخصية غامضة لا يمكنني أن أربطها بشخص معين، وستيفن نفسه ليس سوى غريب عابر. وعلى الجانب الآخر، فإن السيد جريفز شخص حقيقي. فقد رأيته في وسط أحداث مأساوية ربما آلت إلى موته، وتركت فيَّ أثرًا عميقًا لا يتمثَّل في ذكراه الحاضرة فحسب، بل أيضًا في الشعور بالقلق العميق والانشغال بما آل إليه مصيره. يعيش فايس الوغد وتلك المرأة المُريعة التي ساعدته

وحرَّضته، وربما وجهته في ذاكرتي وكأني أعيش واقعًا حيًّا مُروِّعًا. وعلى الرغم من أنني لم أتفوَّه بكلمة أمام ثورندايك، فإنني أَسِفتُ من داخلي على عدم مشاركتي في عمل — إن وجد — له صلة بالقضية التي أهتمُّ بها من أعماقي، بدلًا من القضية المملة ذات الصِّبغة القانونية البحتة والمحيِّرة كثيرًا لوصية جيفري بلاكمور.

على الرغم من ذلك، فقد تحلَّيت بالأمانة في أداء عملي. اطلعت على الأقوال والوصية، ولم يتراءَ لي أي بصيص أمل في القضية؛ ومن ثم اعتنيت بتلخيص كل الوقائع. ثم قارنت بين تلخيصي وملاحظات ثورندايك — حيث إنني أعددت نسخة منها — ووجدت أنها تحتوي على العديد من الأمور التي غفلتُ عنها على الرغم من إيجازها. كذلك أعددت تقريرًا مُوجَزًا لزيارتنا إلى مجمع نيو إن، وألحقت به قائمة بالأشياء التي رصدناها أو جمعناها. ثم انتقلت إلى الجزء الثاني من المهمة، وهو وَضْع الاستنتاجات من الوقائع الموضحة.

لم أدرك كم أنا ضائع إلا حين حاولت وضع الاستنتاجات. وعلى الرغم من توصيات ثورندايك بدراسة إفادة مارشمونت الملخَّصة في هذه الملاحظات التي نسختها، ومن تلميحه إلى أنني سأتوصل إلى شيء بالغ الأهمية في هذه الإفادة، توصلت إلى نتيجة واحدة حتمية؛ على الرغم من أنني أشك في صحة هذه النتيجة، توصلت إلى أن وصية جيفري بلاكمور سليمة تمامًا من الناحية القانونية وجيدة الصياغة وسارية.

حاولت أن أطعن في سلامة الوصية من عدة نَوَاحٍ، ولكني بُؤتُ بالفشل في كل مرة. وفيما يتعلق بأصالتها، فلا غُبار عليها من هذه الناحية. ولم أرَ غير جانبَين يمكن النفوذ منهما إلى الطعن في الوصية؛ وهما: أهلية جيفري كي يكتب وصية، وإمكانية وقوعه تحت تأثير غير قانوني.

فيما يتعلَّق بالجانب الأول، فهناك حقيقة لا شك فيها وهي أن جيفري أدمن الأفيون، وهذه العادة يمكن أن تطعن، في بعض الظروف، في أهلية الموصِي. ولكن هل وقع أيٌّ من هذه الظروف في هذه الحالة؟ هل إدمان المخدِّرات أحدث تغييرات في الحالة العقلية للمُتوفَّى؛ بحيث تُضعِف قُواه العقلية أو تدمرها؟ للأسف لا يوجد أيُّ دليلٍ يدعم هذا الاعتقاد. فحتى آخر لحظة في حياته، كان يتدبر شئون نفسه بنفسه، وحتى إن حدث تغيير في عاداته، فإنها لا تزال عادات تصدُر من إنسان عاقل ومسئول تمامًا.

الطعن في التعرُّض لتأثير غير قانوني مسألة أصعب. وإذا رُبط بشخص بعينه، فلا يمكن أن يُربط بغير جون بلاكمور. فثمة حقيقة لا يُشكُّ في صحتها؛ وهي أنه من بين

كل معارف جيفري، فإن أخاه جون هو الوحيد الذي علم بمُكوث جيفري في مجمع نيو إن. إضافةً إلى ذلك، فقد زاره جون أكثر من مرة. ومن ثم هناك احتمال بممارسة قدر من التأثير على المتوفَّى. لكن لا يوجد دليل على ذلك. فحقيقة أن الأخ الوحيد للمتوفَّى كان على علمٍ بمكان معيشته ليست حقيقةً لافتة للنظر، ويمكن تبرير ذلك تبريرًا وافيًا بضرورة احتياج جيفري إلى شخصٍ مرجعي، حين تَقدَّم لاستئجار ذلك المسكن. وفي مقابل نظرية التأثير غير القانوني، تقف حقيقة أن الموصي أتى بالوصية طواعيةً إلى غرفة البوَّاب، وصاغها في وجود شاهدَين لا مصلحة لهما فيها على الإطلاق.

في النهاية، اضطررت إلى نبذ القضية من عقلي يائسًا، وتركت المستندات، ووجَّهت انتباهي إلى الحقيقة التي أوضحَتها زيارتنا إلى مجمع نيو إن.

ما الذي تعلَّمناه من زيارتنا الاستكشافية؟ واضح أن ثورندايك توصل إلى بعض الحقائق المهمة في نظره. لكن ما وجه أهميتها؟ فالمسألة الوحيدة التي يمكن إثارتها هي سلامة وصية جيفري بلاكمور من الناحية القانونية، ولما كانت سلامة الوصية مدعومة بأدلة إيجابية لا جدال فيها، فقد رأيت أن ما لاحظناه لا يمكن أن يكون له تأثير في القضية مُطلَقًا.

ولكن لا يمكن أن تقف المسألة عند هذا الحد. فثورندايك ليس حالمًا وليس من المقبِلين على التكهُّنات الجامحة. وما دام يرى أن الوقائع التي درسناها لها صلة بالقضية، فأنا مستعد لافتراض ذلك، حتى وإن لم أرَ أي صلة بينها وبين القضية. وانطلاقًا من هذا الافتراض، شرعتُ في دراستها من جديد.

أيًّا ما كان ما لاحظه ثورندايك بنفسه، فقد خرجتُ بحقيقة واحدة من مسكن المتوفَّى، وهذه الحقيقة غير عادية إلى حد بعيد. كانت لوحة النقش المسماري مقلوبة. هذا مُجمَل الأدلة التي جمعتها، والسؤال هو: ما الذي يثبته هذا الدليل؟ ثورندايك رآه دليلًا يحمل قدرًا كبيرًا من الأهمية. فما أهميته؟

الوضعية المقلوبة لم تكن مجرد حادث عابر، كما قد يحدث إن وُضع الإطار على رفٍّ أو دعامة. فقد عُلقت الصورة على الحائط، وتُظهر الألواح المثبَّتة في الإطار أن الصورة ما برحت موضعها هذا ولم تُعلَّق على جدار آخر. وكان مستبعَدًا، كما هو واضح، أن يكون جيفري قد علقها بنفسه. ولكن على افتراض أن الصورة ثبَّتَها أحد العُمال بوضعيتها الحالية حين انتقل المستأجر الجديد، فالحقيقة أنها ظلت مثبتة في مكانها، ربما منذ شهور، وأنه على الرغم من خبرة جيفري بلاكمور وعِلمه بحروف النقوش المسمارية،

فإنه لم يلاحظ البتة أن الصورة مقلوبة؛ أو إن لاحظ ذلك، فإنه لم يتكلَّف عناء تغيير وضعيتها.

ما الذي يعنيه هذا؟ وإن لاحظ الخطأ ولم يتكلف عناء تصحيحه، فهذا يشير إلى حالة عقلية فريدة؛ وهي الخمول وعدم الاكتراث، التي تبرز لدى مدخن الأفيون. لكن حتى على افتراض أنه أصيب بهذه الحالة العقلية، فأنا لا أرى لها أي تأثير في القضية غير أنها لا تتَّسق مع الميل نحو إدخال تعديلات مُزعِجة ولا داعي لها، وهذا ما فعله الموصي بالفعل. وعلى الجانب الآخر، إن لم يكن قد لاحظ وضعية الصورة المقلوبة، فلا بد أنه كان شِبه كفيف أو غبيًّا تمامًا؛ حيث إن الصورة كانت على مسافة أطول من قدمين، والحروف كبيرة لدرجة يسهل معها أن يقرأها إنسان صحيح البصر من مسافة ٤٠ أو ٥٠ قدمًا. من الواضح أنه لم يعانِ خَرَفًا، ولكنه عانى ضعف البصر إلى حد كبير، وأرى أن الاستنتاج الوحيد الذي يمكن استخلاصه من الصورة هو أن المتوفَّ أصيب بضعف بالغ في بصره، لدرجة أنه شارف على العمى التام.

لكن ليس ثمة مفاجأة في هذا الأمر. فقد قال بنفسه إن حالة بصره تتدهور بسرعة. والسؤال يعيد نفسه، ما تأثير هذا العمى الجزئي في الوصية؟ فالكفيف لا يمكنه كتابة وصيته بتاتًا. ولكن إذا كان يبصر بدرجة تُمكِّنه من كتابه وصية والتوقيع عليها، فمجرد ضعف البصر لن يقوده إلى صياغة أحكامها صياغةً غير مفهومة. يبدو أن شيئًا من هذا القبيل قد تبادر إلى ذهن ثورندايك؛ حيث إنني تذكرت السؤال الذي طرحه على البوَّاب. «حين اطلعتَ على الوصية في حضور السيد بلاكمور، هل قرأتها بصوت عالٍ؟» لن يطرح هذا السؤال إلا إذا كانت له أهمية. إنه ينطوي على الشك فيما إذا كان الموصي على دراية تامة بطبيعة الوثيقة التي يوقِّع عليها. ومن ثَم إذا كان قادرًا على كتابة وصية والتوقيع عليها، فمن المؤكد أنه كان قادرًا على قراءتها، فضلًا عن حقيقة أنه ما لم يكن مصابًا بخَبل في عقله، فلا بد أنه يتذكر ما كتبه.

مرة أخرى، لم يهدِني تفكيري إلا إلى طريق مظلم وفي نهايته الوصية، سليمة وسارية وتستوفي كل الشروط التي يفرضها القانون. ومرة أخرى، لم أجد بُدًّا من أن أجد نفسي منهزمًا ومُتَّفقًا تمام الاتفاق مع السيد مارشمونت بأنه «لا توجد قضية»، وأنه «لا يوجد ما يُتنازَع عليه». على الرغم من ذلك، ثبتُّ في ملف الجيب الذي أعطانيه ثورندايك النسخة التي أعددتها من ملاحظاته، وأرفقت معها الملاحظات الخاصة بزيارتنا إلى مجمع نيو إن، وبضعة استنتاجات غير وافية توصلت إليها، وبذلك اختتمت أول صباح لي في الوظيفة الجديدة.

حين جلسنا على الغداء، سأل ثورندايك: «كيف سارت الأمور مع صديقي المتعلِّم؟ هل يقترح أن نشير على السيد مارشمونت بتقديم إنذار قضائي؟»

«لقد اطلعتُ على الوثائق وأعددت تلخيصًا موجزًا لها، وبات الضباب أكثف من ذي قبل.»

«أسمع مزيجًا بسيطًا من الاستعارات في تعليقات صديقي المتعلم. ولكن لا تشغل بالك بالضباب يا جيرفيس. فلعل الخير يأتي من وسط الضباب. إنه مثل إطار الصورة؛ إذ يكتنف الصورة الأساسية بمنطقة محايدة تعزلها عن الخلفية المعلَّقة عليها.»

علقت ساخرًا: «هذه ملاحظة بعيدة العُمق يا ثورندايك.»

أردف: «هكذا كنت أرى القضية.»

«وإذا أمكنك توضيح ما يعنيه هذا ...»

«أوه، ولكن هذا غير معقول. عندما يرمي المرء مقولة فلسفية، فإنه يتطلع إلى ناقد ألمعي كي يقدم تفسيرًا لها. على أي حال، أنوي أن أعلمك بعضًا من فن التصوير الفوتوغرافي بعد ظهر اليوم. فأنا أستعير كل الشيكات التي سحبها جيفري بلاكمور في فترة إقامته بمجمع نيو إن؛ ومجمل عددها ٢٣ شيكًا، وأنوي أن أصورها.»

«لا أحسب أن موظفي البنك سيتركونها تخرج من حوزتهم.»

«هم لن يفعلوا. سيحضرها أحد الشركاء، وهو السيد بريتون بنفسه، وسيكون حاضرًا وقت التقاط الصور؛ ومن ثَم لن تخرج من عهدته. ولكن على أي حال، هذا امتياز كبير، وما كان ينبغي أن يمنحني إياه السيد بريتون لولا أني قدمت أعمالًا كثيرة للبنك، ولولا أن السيد بريتون صديقٌ شخصي لي إلى حدٍّ ما.»

«على أي حال، لماذا تبقى هذه الشيكات في البنك حتى الآن؟ لماذا لم ترجع إلى جيفري مع دفتر الحسابات كما هو معتاد؟»

أجاب ثورندايك: «فهمت من بريتون أن البنك يحتفظ بكل شيكات جيفري بناءً على طلب منه. ففي أثناء سفره، اعتاد أن يترك الأوراق المالية الاستثمارية الخاصة به، وغيرها من المستندات ذات القيمة في عُهدة موظفي البنك، ولمَّا لم يتقدَّم البتة بطلبٍ لاسترجاعها، فقد ظلَّت في عهدة البنك، وستظل في عهدته حتى تُطبَّق الوصية، أي حين يسلمون كل شيء للورثة.»

سألته: «وما الهدف من تصوير هذه الشيكات؟»

«عدة أهداف. أولًا: بما أن الصورة تكاد تناطح الأصل من حيث الجودة، فإن وجود الصور معنا يعني أننا نحوز تلك الشيكات عمليًّا، ويمكننا الرجوع إليها. ثانيًا: بما

أن الصورة يمكن نسخُها بعددٍ لا نهائي، فإنه يمكن إجراء تجارب عليها قد تؤدِّي إلى تدميرها، وبالطبع لا يمكن فعل هذا مع الشيكات الأصلية.»

«ولكني أعني الهدف النهائي. ما الذي تنوي إثباته؟»

صاح: «لا رجاء منك يا جيرفيس. كيف لي أن أعرف ما الذي سأُثبته؟ هذا تحقيق. ولو أني أعلم النتيجة مُسبقًا، لما احتجت إلى إجراء التجارب.»

نظر في ساعته، وحين نهضنا من أمام الطاولة، قال:

«إذا كنا فرغنا مما في أيدينا، فالأفضل أن نصعد إلى المختبَر كي نرى إن كانت كاميرا نسخ المستندات جاهزة. السيد بريتون أشغالُه كثيرة، وبما أنه أسدى لنا معروفًا، فلا يجدُر بنا أن نجعله ينتظر حين يأتي.»

صعدنا إلى المختبر، حيث كان بولتون منشغلًا بالفعل في فحص كاميرا ضخمةٍ لنسخ المستندات — ذات قضبان توجيهٍ فولاذية طويلة، مثبت فيها مِسنَد أو حامل المستندات المنسوخة — حيث إنها تشغل طول الغرفة بالكامل في الجانب المقابل للجانب الذي تشغله منضدة المواد الكيميائية. وبما أنني على وَشْك الدخول في مجال فن التصوير، فقد نظرت إليها باهتمامٍ أكثر من ذي قبل.

قال بولتون وهو عاكفٌ على تشحيم قضبان التوجيه الفولاذية: «لقد أدخلنا بعض التحسينات منذ أن كنتَ هنا آخر مرة يا سيدي. فقد ركَّبنا هذه القضبان الفولاذية بدلًا من القضبان الخشبية ذات الرصاص الأسود التي كنا نستخدمها. وقد ثبَّتنا مِقياسَين بدلًا من واحد. يا إلهي! هذا جرس الطابق السفلي. هل أنظر من الطارق يا سيدي؟»

قال ثورندايك: «ربما الأفضل أن تفعل. قد يكون السيد بريتون، وأنا لا أريد أن أتعطَّل وأتأخَّر الآن.»

تبيَّن أن الطارق هو السيد بريتون، وهو رجلٌ في منتصف العمر مُفعَم بالحيوية ودَمِث، وقد دخل بصحبة بولتون؛ حيث صافَحَنا بحرارةٍ بعد أن أُخبِر مُسبقًا بوجودي. إنه يحمل حقيبة يدٍ صغيرة، ولكنها متينة، وظلَّ ممسكًا بها بقوة حتى أَتَت لحظة إفراغها من محتوياتها.

قال وهو يُجري عينه المحقِّقة على الجهاز: «إذن، هذه الكاميرا. إنها كاميرا جيدة أيضًا، وأنا على قدرٍ من المعرفة بالتصوير الفوتوغرافي. ما هذا التدرُّج على الشريط الجانبي؟»

أجاب ثورندايك: «هذان مقياسان يوضحان درجة التكبير أو التصغير. بالطبع يُثبَّت المؤشر بمِسنَد الأوراق ويتحرَّك معه، بحيث يُظهِر مقاس الصورة بالضبط. حين يُوضَع

المؤشر على المقياس ٠، فإن حجم الصورة سيكون مطابقًا لحجم الجسم المصوَّر؛ وحين يُوضَع على المقياس ×٦ على سبيل المثال، فإن طول الصورة سيكون أكبر من الجسم المصوَّر بستة أضعاف، أو سيكون أكبر ظاهريًّا بمقدار ٣٦ مرة؛ لكن حين يوضع على المقياس ÷٦، فإن طول الصورة سيبلغ سُدس طول الجسم المصوَّر، أو سيُساوي واحدًا إلى ٣٦ من الشكل الظاهري.»

سأل السيد بريتون: «ولماذا يوجد مقياسان؟»

«يوجد مقياسٌ لكل عدسةٍ من العدستَين الأساسيتَين في الاستخدام. ففي حالة التكبير أو التصغير الزائد، يجب استخدام عدسة ذات بؤرة قصيرة نسبيًّا، ولكن ما دامت العدسة ذات البؤرة الطويلة تُعطي صُورًا ذات جودةٍ ممتازة، فإننا نستخدم عدسةً ذات بؤرةٍ طويلة للغاية — ٣٦ بوصة — للنسخ بالحجم نفسه، أو من أجل التكبير أو التصغير الطفيف.»

سأل السيد بريتون: «وهل تنوي تكبير هذه الشيكات؟»

أجاب ثورندايك: «لا أنوي البدء بتكبير الصور. ونظرًا للحاجة إلى الفاعلية والسرعة، سأصور الشيكات بمقياس يبلغ نصف الحجم؛ ومن ثم تُصوَّر ستة شيكات على لوحةٍ واحدة كاملة. بعد ذلك، يمكننا تكبير الصور السلبية بقدر ما نريد. ولكن ربما نحتاج إلى تكبير التوقيعات فقط في كل الحالات.»

فُتحت الحقيبة الثمينة الآن، وأفرغ منها ٢٣ شيكًا، ووُضعت الشيكات على المنضدة مُرتَّبةً بتسلسُلٍ زمني حسب التواريخ. فُرزت الشيكات إلى مجموعاتٍ من ستة شيكات، وثُبتت كل مجموعة بأشرطة — كي لا يحدث فيها ثقوب — في ألواح رسم صغيرة، وقد نُظمت كل مجموعةٍ بحيث تكون التوقيعات موجهة نحو المنتصف. ثُبتت اللوحة الأولى في مسند الأوراق، ودُفع المسند بطول قضيبَي التوجيه، حتى توقَّف المؤشر عند المقياس ÷٢ في المقياس ذي البؤرة الطويلة، وعندئذٍ بدأ ثورندايك يركِّز الكاميرا باستخدام ميكروسكوب أعدَّه بولتون من أجل هذا الغرض. وحين فحصتُ أنا والسيد بريتون الصورة الحادة الوضوح على شاشة التركيز البُؤري من خلال الميكروسكوب، أدخل بولتون اللوحة والتقط الصورة الأولى، وعندئذٍ أخرج الشريحة القاتمة، وفي الوقت نفسه ثبتت مجموعة الشيكات الثانية في مكانها.

في أسلوب بولتون في التصوير الفوتوغرافي، وفي كل أعماله الأخرى، كان يتَّبع طُرُق مديره ومُعلِّمه بحذافيرها؛ تلك الطرق التي تتَّسم بالدقة المتأنية التي تؤدي إلى نتائج

ممتازة. وحين أُخرجت الصورة السلبية الأولى وهي تقطر من الغرفة المظلمة، لم يكن فيها بُقع أو لطخات، ولا خدش ولا ثقب، كما أن ألوانها كانت موحَّدة وبالكثافة المطلوبة بالضبط. بدَت الشيكات الستة المصوَّرة واضحةً وحادَّةً مثل النقوش الدقيقة، على الرغم من صِغَر الحجم إلى حدٍّ بعيد، وتقلُّص طولها إلى النصف، ولكن من المؤكد أن فرصتي في فحصها ضئيلة للغاية؛ حيث حرص بولتون كل الحرص على أن يُبقيها مبللة وبعيدة عن المتناول، وفي مكان آمن من أن يلمسها أحد.

بعد انتهاء جلسة التصوير، أعاد السيد بريتون شيكاته الثمينة إلى الحقيبة وقال: «والآن، معك ٢٣ شيكًا مصوَّرًا وكأنها الشيكات الأصلية. وأرجو ألَّا تُستَخدم في أغراض غير قانونية، ويجب أن أُخبر موظفي الخزينة كي يحتاطوا أكثر ...» ثم توجه بالحديث إليَّ أنا وبولتون «... تعلمان أن هذه مسألة شخصية بيني وبين الدكتور ثورندايك. وبطبيعة الحال، بما أن السيد بلاكمور قد رحل عن دنيانا، فلا يوجد سبب يمنع تصوير شيكاته لأغراض قانونية، ولكننا لا نريد أن ينتشر الكلام حول هذا الموضوع، ولا أحسب أن الدكتور ثورندايك يريد ذلك أيضًا.»

وافقه ثورندايك مؤكِّدًا على كلامه: «بالتأكيد لا يوجد، ولكن لا حاجة إلى القلق يا سيد بريتون. إننا أناس متحفظون في الكلام.»

حين أوصلت أنا وزميلي الضيفَ إلى الباب، عاد إلى الحديث عن الشيكات.

علَّق: «لا أعرف لماذا تريد هذه الشيكات. ليست هناك مشكلات بشأن توقيعات بلاكمور ما دام رحل عن الدنيا، أليس كذلك؟»

أجابه ثورندايك مراوغًا: «بلى، في الحقيقة.»

قال السيد بريتون: «بكل تأكيدٍ لا، إذا صح فهمي للسيد مارشمونت. حتى وإن كانت هناك مشكلات، فالحقيقة أن هذه التوقيعات التي حصلت عليها لن تفيدك. فقد اطَّلعت عليها عن كَثَب، وكما تعلم، مر على عيني الكثير والكثير من التوقيعات في مسيرتي المهنية. وطلب مني مارشمونت أن أنظر إليها من حيث الرسم، ولكني لا أعترف بمجرد رسم التوقيع؛ بل إنني اعتنيت بتفحُّصها. ووجدت أن التوقيعات فيها قدر كبير من التفاوُت، بل إنه قدرٌ كبير للغاية. ولكن على الرغم من هذا التفاوت، فبإمكان المرء أن يتعرف على السمة الشخصية (وهي الأهم)؛ تلك السمة الدقيقة والفريدة التي تتعرف عليها العين المتمرِّسة، ولا تنكر أنها خط جيفري بلاكمور. أنت تفهمني. تلك السمة لا تتبدَّل حتى عندما تتبدل السمات الأوضح، مثل تقدم المرء في العمر أو زيادة وزنه، أو تساقط شعره

أو ربما مُعاقَرة الخمر، بحيث يصير إنسانًا مختلفًا تمامًا، ولكن على الرغم من كل هذا، فإنه يحتفظ بسمة معينة تجعله مميزًا بصفته فردًا في عائلة بعينها. وقد وجدت تلك السمة في كل التوقيعات، وكذلك ستجدها أنت إذا كانت لديك الخبرة الكافية في خط اليد. وأرى أن الأفضل أن أذكرها لك حتى أُوفِّر عليك عناءً لا داعي له.»

قال ثورندايك: «هذا صنيع جميل منك، ولا حاجة أن أقول إن المعلومات يكون لها قيمة كبيرة، حين تأتي من مصدر خبير مثلك. وفي الحقيقة، اقتراحك سيكون له قيمةٌ كبيرةٌ عندي.»

تصافح ثورندايك مع السيد بريتون، وحين نزل الأخير السُّلم، دخل ثورندايك إلى غرفة الجلوس وعلق قائلًا:

«ثمة ملاحظة لها ثِقَل وذات مَغزًى يا جيرفيس. وحريٌّ بك أن تدرسها دراسة متأنِّية من جميع النواحي.»

«هل تعني حقيقة أن هذه التوقيعات لا شك في أصالتها؟»

«بل أعني تلك الحقيقة العامة المهمة التي انطوى عليها كلام بريتون، وهي أن ملامح الشخص لا تقتصر على مجرد ملامح الوجه. بل إن لكل إنسان علامة مميزة، وهذه العلامة ليست في الوجه فقط، بل إنها في جهازه العصبي وعضلاته، ما يعطيه حركات وطريقة مشي مميزة؛ وفي حنجرته، ما يعطيه صوتًا فريدًا؛ وحتى في فمه، وهذا يتجلى في السمات الفردية للكلام واللكنة. وبناءً على هذه الحركات المميزة، ينقل الجهاز العصبي لدى الإنسان هذه السمات الفردية إلى الجمادات التي تنتُج عن هذه الحركات؛ كما نرى في الصُّور وفي المنحوتات وفي المقطوعات الموسيقية وفي خط اليد. فلا أحد رسم مثل رينولدز أو رومني، ولا أحد عزف الموسيقى مثل ليست أو باجانيني؛ فالصور والأصوات التي أبدعوها كانت — إن جاز التعبير — امتدادًا لملامح الفن لديهم. وهكذا الأمر مع خط اليد. فخط إنسان معين عبارة عن نتاج مجموعة من المراكز الحركية في دماغه.»

علقت: «هذه أفكار رائعة يا ثورندايك، ولكني لا أعرف كيف تنطبق على القضية الحالية. هل تعني أن لها أي علاقة بقضية بلاكمور؟»

«بل لها علاقة مباشرة بها. وهذا ما جال في عقلي حين كان السيد بريتون يطرح أمامنا تعليقاته الثاقبة.»

«لا أعلم كيف ذلك. بل إنني لا أفهم لماذا تخوض في مسألة التعليقات من الأساس. فالتوقيع على الوصية أصلي ولا شك في ذلك، وفي رأيي أن هذا يحل القضية برُمَّتها.»

قال: «عزيزي جيرفيس، أنت ومارشمونت تتركان نفسيكما لواقعة محددة تستحوذ عليكما؛ أعترف أنها واقعة مُقنِعة ومهمة للغاية، ولكنها تبقى واقعة منفردة. كتب جيفري بلاكمور وصيَّته بالطريقة المعتادة؛ حيث التزم بكل الإجراءات الرسمية والشروط اللازمة. وفي مواجهة هذا الحدث المنفرد، فأنت ومارشمونت تُقرَّان بالهزيمة كما يقول الملاكمون المحترفون. وهذا خطأ كبير. فلا يجدُر بك البتة أن تدع واقعةً واحدة تخيفك أو تهيمن عليك.»

حاججته: «ولكن يا عزيزي ثورندايك! يبدو أن هذه الواقعة لا سبيل إلى دحضها. فهي تشمل كل الاحتمالات ... ما لم يكن عندك أي اقتراح من شأنه أن يدحضَها.»

رد: «يمكنني طرح ١٠ مقترحات. وسأضرب لك مثالًا. لنفترض أن جيفري كتب وصيته مقابل رهان، وأنه سرعان ما ألغاها وكتب وصية جديدة، ثم عهد بالوصية الجديدة عند شخص وأخفاها.»

تعجبت: «بالتأكيد أنت لا تطرح هذا الاقتراح جادًّا!»

قال مبتسمًا: «بالتأكيد لا. أنا فقط أضرب لك مثالًا لإظهار أن الواقعة النهائية والمطلقة مشروطة فقط بعدم وجود واقعة أخرى تُلغيها.»

«هل تظن أنه كتب وصية ثالثة؟»

«هذا احتمال وارد. فمن يكتب وصيتَين قد يكتب ثلاث وصايا أو أكثر، ولكن يسعني القول إنه لا يوجد سبب حالي لافتراض وجود وصية أخرى. ما أريد أن أؤكده لك هو ضرورة النظر في كل الوقائع، بدلًا من التركيز على الوقائع الأوضح والتغافُل عن البقية. على أي حال، سأطرح عليك مسألةً بسيطةً تفكر فيها. ما الجسم الذي يتكوَّن من هذه الشظايا؟»

طرح على الطاولة صندوقًا صغيرًا من الورق المقوَّى بعد أن رفع غطاءه. كان فيه عدد من شظايا بالغة الصغر لزجاج مكسور، وقد لُحِم بعضها ببعض من الحواف.

قلت وأنا أنظر بفضول كبير إلى هذه المجموعة: «هل هذه شظايا الزجاج التي وجدناها في غرفة نوم بلاكمور البائس؟»

«نعم. ترى أن بولتون حاول أن يعيد تشكيل ذلك الجسم، أيًّا ما كان هو، ولكنه لم يحقق نجاحًا كبيرًا؛ حيث إن الشظايا بالغة الصغر، كما أن أشكالها غير منتظمة والمجموعة غير مكتملة البتة. ولكن بات لدينا عيِّنة مكونة من ستة أجزاء صغيرة، ما يُعطي الطابع العام للجسم بشكل جيد إلى حد ما.»

التقط الشيء الصغير غير المنتظم الشكل وناولني إياه؛ ولم يسعني إلا أن أُعجب بالدقة التي جمع بها بولتون الأجزاء الصغيرة بعضها مع بعض.

أخذت «الترميم» الصغير، ورفعته أمام عيني، وحركته ذهابًا وإيابًا وأنا أنظر من خلاله إلى النافذة.

قلت في النهاية: «إنها ليست عدسة.»

وافقني ثورندايك: «كلامك صحيح، ليست عدسة.»

«ومن ثم لا يمكن أن تكون زجاج نظارة. لكن السطح كان مُنحنِيًا — حيث إن أحد الجانبين مُحدَّب والآخر مُقعَّر — ويبدو أن ما تبقَّى من الحافة الأصلية قد تعرَّض للسحق؛ لدرجة أنه لا يصلح أن يدخل في حافة أو إطار. يسعني القول إن هذه الشظايا من زجاج ساعة.»

قال ثورندايك: «هذا رأي بولتون وأحسبكما على خطأ.»

«هل يمكن أن يكون زجاج صورة مصغرة، أو قلادة زجاجية تحتوي على صورة بداخلها؟»

«هذا احتمال أقرب، ولكني لا أراه صائبًا.»

سألته: «وماذا تقول أنت؟» ولكن ثورندايك ليس ممن يُستَدرَج في الكلام.

أجاب بابتسامة تثير السخط، ثم أردف: «أنا أطرح المسألة كي يحلها صديقي المثقَّف. أنا لا أقول إنك وبولتون على خطأ، بل فقط إنني لا أتَّفق مع رأيكما. ربما الأفضل أن تأخذ ملاحظات عن خصائص هذا الجسم، وتدرسها على مهلٍ حين تعكُف على التفكير في البيانات الأخرى الخاصة بقضية بلاكمور.»

قلت: «ما برِحَت أفكاري تقودني إلى النقطة نفسها.»

رد: «ولكن يجب ألَّا تدعها تأخذك إلى النقطة نفسها. امزج البيانات التي معك. وابتكر فرضيَّات. ولا تقلق إذا بدت غريبة؟ ولا تُنحيها جانبًا بناءً على ذلك. خذ الفرضية الأولى التي يمكنك ابتكارها واختبِرها اختبارًا شاملًا مقارنةً بالوقائع التي عندك. ربما تنبذ تلك الفرضية، ولكن بالتأكيد ستتعلم شيئًا جديدًا. ثم جرِّب مرة أخرى مع فرضية جديدة. هل تتذكر ما قلته لك حين بدأت في هذا المجال، وكان عندي مُتَّسع من وقت الفراغ؟»

«لا أحسبني أتذكر.»

«أما أنا فقد اعتدت أن أَشغَل وقت فراغي في بناء قضايا تخيُّلية، ومعظمها قضايا جنائية، بهدف الدراسة واكتساب الخبرة. على سبيل المثال، كنت أبتكر عملية احتيال

أَلمعيَّة وأخطط لها بالتفاصيل، وآخذ في الاعتبار كل الاحتياطات التي يمكن التفكير فيها لِئلَّا تفشل العملية أو تُكتَشَف، وأفكر مليًّا في كل الحالات الطارئة التي يمكن تصورها. حينذاك، كان ينصَبُّ كل اهتمامي على جعل الجريمة كاملة ومؤمَّنة وغير قابلة للكشف بأقصى قدرٍ ممكن، بناءً على ما يتوفَّر لديَّ من معرفةٍ ومهارة. كنت أتصرف بالضبط كما لو أنني أنوي ارتكابها، وحياتي وحريتي تعتمدان على نجاح الجريمة، باستثناء أنني أُدوِّن ملاحظات كاملة عن كل تفاصيل المخطط. وحين أبلغ أقصى حد من اكتمال الخطط، وقريحتي تنضب بشأن أي شيء يمكن أن يحسنها، فإنني أُبدِّل الأدوار وأدرس القضية من وجهة نظر جهة التحقيق. وبناءً على ذلك، أحلل القضية وأضع يدي على نقاط الضعف المتأصِّلة التي لا سبيل إلى تجنُّبها، وأهتم بتدوين الجوانب التي يختلف فيها الإجراء الاحتيالي من نوعٍ معين، عن الإجراء حسن النية الذي يُحاكيه. وهذا التمرين قد أفادني كثيرًا. وقد اكتسبت خبرة من هذه القضايا التخيُّلية بالقدر الذي قد أكتسبه من القضايا الحقيقية، كما أنني تعلَّمت طريقةً ما زلت أمارسها حتى الآن.»

«هل تعني أنك ما زلت تبتكر قضايا تخيُّلية باعتبارها تمرينات ذهنية؟»

«لا، بل أعني أنه عندما أُواجه مشكلة، مهما كانت معقَّدة، فإنني أبتكر قضيةً تتناسب مع الوقائع والدوافع المفترَضة لأحد الأطراف. ثم أعكُف على القضية حتى أعلم إن كانت تؤدِّي إلى توضيح القضية أم إلى اختلافٍ جوهري. وإذا أدَّت إلى الأخرى، فإني أنبذها وأبدأ العملية من جديد.»

سألته: «هل تستهلك هذه الطريقة مقدارًا كبيرًا من الوقت والجهد؟»

«لا؛ لأنه في كل مرة تفشل في إثبات حالة معينة، فإنك تستبعد تفسيرًا معينًا للوقائع وتضيق دائرة التحقيق. وبتكرار العملية، تصير على يقين بأنك ستصل في النهاية إلى حالة تخيُّلية تتفق مع كل الوقائع. عندئذٍ تصبح هذه الحالة التخيُّلية حالة حقيقية وتنحلُّ المشكلة. وإني أحُثُّك على أن تجرب الطريقة.»

وافقت على أن أجرب، على الرغم من أنني لم أستبشر بالوصول إلى النتيجة المرجُوَّة، وبذلك، نحَّينا الحديث عن الموضوع جانبًا في الوقت الحالي.

الفصل الثاني عشر

الصورة

لم يكن يسهل عليَّ أن أكتسب طريقة التفكير التي نصحني بها ثورندايك. لكن على الرغم من محاولات إعادة ترتيب الوقائع الخاصة بقضية بلاكمور، كانت هناك واقعة ما انفكَّت تَبرُز على أنها الأهم بين كل الوقائع. وكلما حاولت التفكير في القضية مليًّا، اقتحمت الملابسات المحيطة بكتابة وصية جيفري بلاكمور أفكاري، ولا أستطيع إزاحتها من رأسي. كان المشهد في مسكن البواب في نظري أشبه بمشهد رأس الملك تشارلز، بالنسبة للسيد ديك سيئ الحظ. وفي خِضَمِّ جهودي الحثيثة الرامية إلى فهم ملابسات القضية، يجتاح هذا المشهد أفكاري، محولًا إياها إلى فوضى فكرية من فوره.

في الأيام القليلة التالية، انشغل ثورندايك كثيرًا ببعض القضايا المدنية، وكان يمكث في المحكمة طيلة الجلسة، وحين يعود إلى المنزل، كنت أراه غير راغب في مناقشة أي موضوعات ذات صلة بالعمل. وفي هذا الوقت، عكف بولتون على صور التوقيعات، وانطلاقًا من اكتساب الخبرة، ساعدته وراقبت كيف يعمل.

في القضية الحالية، جرى تكبير التوقيعات، حيث كانت أبعادها الأصلية أقل من بوصة ونصف، وصارت بطول أربع بوصات ونصف، ما جعل كل التفاصيل الدقيقة لخط اليد مميَّزة ومذهلة في دقتها. وفي النهاية، ثُبت كل توقيع على بطاقة تحمل رقمًا والتاريخ على الشيك الذي أُخذ منه التوقيع؛ ومن ثم تسهل المقارنة بين أي توقيعين. تفحَّصت التوقيعات كلها بعناية بالغة وقارنت بينها لعلِّي أجد أي فروق، ولكنني لم أرصُد أي فروق غير التي أعرب عنها السيد بريتون في رأيه. كانت هناك فروق بسيطة للغاية، وكانت كل التوقيعات متشابهة إلى حد كبير، وعند النظر إليها، فلا أحد يشك في أن كلها مكتوب باليد نفسها.

لكن بما أن مسألة التوقيعات ليست محل خلاف، فإنها لم تقدم معلومة جديدة. وإني متأكد من أن هناك شيئًا محددًا في عقل ثورندايك، لا بد أنه يريد التحقُّق من شيء

آخر غير صحة التوقيعات. ولكن ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء؟ لم أجرؤ على طرح هذا السؤال عليه؛ لأنه لا يحب هذه النوعية من الأسئلة؛ ومن ثَم لم أجد بُدًّا من الانتظار ومراقبة ما سيفعله بهذه الصور.

انتهت السلسلة بالكامل في صبيحة اليوم الرابع من مغامرتي إلى ميدان سلون، وأحضر بولتون حزمة البطاقات مرتَّبة حين أحضر صينية الإفطار. أخذ ثورندايك حزمة البطاقات وكأنه لاعب ويست، وحين تفحَّصها سريعًا، لاحظت أن عددها صار ٢٤ بطاقة بعدما كان ٢٣.

شرح ثورندايك: «البطاقة الإضافية هي التوقيع على الوصية الأولى، التي كانت في حوزة مارشمونت. وقد أضفتها إلى المجموعة لأنها تأخذنا إلى تاريخ أقدم. أما التوقيع على الوصية الثانية، فمن المفترض أنه يُشبه التوقيعات على الشيكات المسحوبة في التاريخ نفسه. ولكن هذه ليست مهمة، وإن تبين غير ذلك، فيمكننا أن نطلب فحص الوصية الثانية.»

فرز البطاقات على الطاولة بترتيبٍ حسب التواريخ، وأخذ يطَّلع على السلسلة بعينيه. راقبته عن كَثَب، وحينئذٍ تجرأت وسألته:

«هل تتفق مع السيد بريتون في أنه توجد سمة خاصة تشترك فيها كل التوقيعات؟»

رد: «نعم. ويسعُني القول إن كل التوقيعات وقعها شخص واحد. فالفروق طفيفة للغاية. التوقيعات الأخيرة أقل انسيابية وأكثر اهتزازًا وغموضًا، كما أن حرفي B وk في هذه التوقيعات يختلفان كثيرًا عن التوقيعات الأولى. ولكن ثمة حقيقة أخرى تبرز حين تقارن كل المجموعة بعضها ببعض، وهذه الحقيقة لافتة للنظر وبالغة الأهمية، وإني أتعجب لماذا لم يُشِر إليها السيد بريتون.»

قلت وأنا أنحني كي أتفحص الصور باهتمام متجدد: «حقًّا! ما هذه الحقيقة؟»

«إنها حقيقة بسيطة وواضحة للغاية، ولكنها على قدر بالغ من الأهمية كما قلت. انظر إلى التوقيع رقم واحد، وهو التوقيع على الوصية الأولى، حيث يرجع تأريخه إلى ثلاث سنوات، وقارنه بالتوقيع رقم ثلاثة، المؤرَّخ في الثامن عشر من سبتمبر من العام الماضي.»

قلت بعد مقارنة وتدقيق: «يبدو أن التوقيعين متطابقان.»

قال ثورندايك: «وهذا ما أراه أنا أيضًا. فالتوقيعان لا يظهر فيهما التغيير الذي حدث مؤخرًا. ولكن إذا نظرت إلى التوقيع رقم اثنين المؤرَّخ في السادس من سبتمبر، فسترى أنه يتخذ شكل التوقيعات الأخيرة. وكذلك الحال مع التوقيع رقم أربعة المؤرَّخ في

الثالث والعشرين من سبتمبر، ولكن التوقيعَين الخامس والسادس، وكلاهما في الأول من أكتوبر، تجد أنهما بالنمط الأول مثل التوقيع على الوصية. التوقيعات التي بعد ذلك كلها بالنمط الجديد؛ ولكن إذا قارنت التوقيع رقم اثنين المؤرَّخ في السادس عشر من سبتمبر مع التوقيع الرابع والعشرين المؤرَّخ في الرابع عشر من مارس من هذا العام — أي اليوم الذي مات فيه جيفري — سترى أنه لا يوجد فرق بينهما. فكلا التوقيعَين بالنَّمط الأخير، بيد أن التوقيع المتأخر لا يُظهِر تغييرًا كبيرًا عن التوقيع الأول. ألَا تظن أن هذه الحقائق لافتة للنظر وبالغة الأهمية؟»

فكرت بضع دقائق، وحاولت أن أتوصل إلى الأهمية القصوى التي يُوجِّه إليها ثورندايك انتباهي، ولكني لم أتوصل إليها.

قلت: «هل تعني أن الرجوع بين الفينة والأخرى إلى النمط الأول له دلالة مُهمة؟»

«أجل، وثمة شيء آخر. إليك ما نتعلَّمه من هذه السلسلة: حدث تغيُّر في نمط التوقيع، إنه تغير طفيف للغاية؛ إلا أنه يمكن تمييزه. هذا التغيُّر ليس تدريجيًّا أو مُتناميًا وليس مُطَّردًا. بل إنه حدث في وقت محدَّد. في البداية، عاد التوقيع مرة أو مرتين إلى النمط الأول، ولكن، وبعد التوقيع رقم ستة، استمرَّ التوقيع الأخير حتى النهاية، وكما تلاحظ، فهو استمرَّ من دون أي زيادة في درجة التغيُّر ومن دون أي اختلاف. ولا توجد أنماط متوسطة. بعض التوقيعات بالنمط القديم وبعضها بالنمط الجديد، ولكن لا توجد توقيعات بنمط يمزج بينهما. ومن ثم، أكرر: لدينا نمطان من التوقيعات، والنمطان متقاربان، ولكن الفرق بينهما يمكن تمييزه. يمكن التبديل بينهما ولكن لا يمتزج أحدهما بالآخر؛ بحيث يخرج منهما نمط وسيط. يحدث التغيُّر فجأة ولكنه لا يزيد بمرور الوقت، إنه ليس تغيُّرًا مُطَّردًا. ماذا تستنتج من ذلك يا جيرفيس؟»

قلت وأنا أتأمل في البطاقات كي أتأكد من ملاحظات ثورندايك: «هذا لافت للنظر كثيرًا. لا أعرف بالضبط ما الذي أستنتجه. ولو أن الظروف تشير إلى احتمال التزوير، لشككت في صحة بعض التوقيعات. ولكنها لا تشير إلى أي احتمال للتزوير في حالة الوصية الثانية، فضلًا عن رأي السيد بريتون بشأن التوقيعات.»

قال ثورندايك: «لكن لا بد من أن ثمة تفسيرًا للتغيُّر في نمط التوقيعات، وهذا التفسير لا يمكن أن يكون ضعف بصر الكاتب؛ حيث إن هذه الحالة تتفاقم بالتدريج ومستمرة، في حين أن التغيير في التوقيعات مفاجئ ومتقطِّع.»

فكرت في تعليق ثورندايك بضع لحظات، ثم خطرت ببالي فكرة، وإن كانت غير مُبهرة.

قلت: «أحسبني فهمت ما ترمي إليه، هل تقصد أن التغيُّر في الخط لا بد أنه مرتبط بحالة جديدة تؤثر في الكاتب، وتلك الحالة تصيبه بين الفينة والأخرى؟»

أومأ ثورندايك موافقًا وأردفت:

«الحالة الوحيدة المتقطِّعة التي عرفها هو تأثير الأفيون. ومن ثم يمكننا اعتبار التوقيعات الأوضح كانت تُوقَّع من جانبه حين يكون في حالته الطبيعية، أما الأقل وضوحًا فنعتبر أنه وقعها بعد تدخين الأفيون بفترة وجيزة.»

قال ثورندايك: «هذا استنتاج سليم تمامًا. ما الاستنتاج الآخر الذي تؤدي إليه هذه الحالة؟»

«إنها تشير أيضًا إلى أنه لم يكتسب عادة التدخين إلا مؤخرًا؛ حيث إن التغير لم يلاحَظ إلا في الفترة التي عاش فيها بمجمع نيو إن؛ وبما أن التغير في الخط كان متقطعًا في البداية ثم صار متصلًا، بمقدورنا أن نستنتج أن تدخين الأفيون كان شيئًا عرَضيًّا في البداية ثم صار عادة مُتأصِّلة.»

قال ثورندايك: «استنتاج منطقي تمامًا وواضح. أنا لا أقول إنني أتفق معك بالكلية، أو أنك استنفدت المعلومات التي تنطوي عليها هذه التوقيعات. ولكنك بدأت في الاتجاه الصحيح.»

قلت متجهِّمًا: «ربما أكون على الطريق الصحيح، ولكني عالق في مكان واحد ولا أرى فرصة لإحراز أي تقدُّم.»

قال ثورندايك: «ولكن بحوزتك كمٌّ من البيانات. معك كل الوقائع التي بدأت منها وبنيت عليها الفرضية التي أعكف على التحقُّق منها. وقد حُزتَ بعض المعلومات الإضافية، وكما أن المال يدرُّ المال، فإن المعرفة تجلب المعرفة، وقد استثمرت رأس مالي الأصلي كي يدرَّ عليَّ فائدة. فهلَّا نصنِّف الوقائع التي يحوزها كلانا ونرى ما الذي نستنتجه منها؟»

قبلت العرض مُتحمِّسًا، رغم أنني عكفت على دراسة ملاحظاتي مرارًا وتكرارًا.

أخرج ثورندايك ورقة من الدرج، وحين نزع غطاء قلمه الحبر، شرع في كتابة الوقائع المهمة، وجعل يقرأ كل واحدةٍ بصوت مرتفع بمجرد أن يفرغ من كتابتها.

(١) «الوصية الثانية لم تكن ضرورية؛ حيث إنها لم تتضمن مواد جديدة، ولم تُعرِب عن نوايا جديدة، ولم تنُصَّ على شروط جديدة، كما أن الوصية الأولى كانت واضحة وسليمة تمامًا.

(٢) نية الموصِي الواضحة أن يترك الجزء الأكبر من تركته لستيفن بلاكمور.

(٣) الوصية الثانية، في ظل الظروف الحالية، لا تستوفي هذه النية، في حين أن الوصية الأولى تستوفيها.

(٤) التوقيع على الوصية الثانية يختلف قليلًا عن التوقيع على الوصية الأولى، كما يختلف عن التوقيع العادي للمُوصي حتى ذلك الحين.

نأتي الآن إلى مجموعة تواريخ غريبة، وأنصحك بأن تدرسها بعناية شديدة.

(٥) كتبت السيدة ويلسون وصيتها في الأول من سبتمبر من العام الماضي، من دون أن تُعلِم جيفري بلاكمور، ويبدو أنه لم يعلم بوجود تلك الوصية.

(٦) وصيته الثانية مؤرَّخة في الثاني عشر من نوفمبر من العام الماضي.

(٧) تُوفِّيت السيدة ويلسون بمرض السرطان في الثاني عشر من مارس هذا العام.

(٨) كانت المرة الأخيرة التي شوهد فيها جيفري بلاكمور على قيد الحياة، في الرابع عشر من مارس.

(٩) اكتُشِفت جُثَّته في الخامس عشر من مارس.

(١٠) التغيُّر في شكل توقيعه بدأ في سبتمبر من العام الماضي تقريبًا، ثم صار دائمًا بعد منتصف أكتوبر.

ستجد أن مجموعة الوقائع تستحق الدراسة المتأنِّية يا جيرفيس، لا سيما عند النظر إليها فيما يتعلق بالبيانات الإضافية:

(١١) وجدنا في شقة بلاكمور نقشًا موضوعًا في إطار كبير الحجم، ومُعلقًا بطريقة مقلوبة، ووجدنا معه بقايا يبدو أنها بقايا زجاج ساعة، وصندوق من شمع الستيراين، فضلًا عن أشياء أخرى.»

أعطاني الورقة واطلعت على ما فيها باهتمام بالغ، ووجهت انتباهي بكل ما أوتيت من قوة وإرادة كي أفهم البنود المختلفة. ولكن رغم أنني بذلت قصارى جهدي، فإنني لم أخرج بنتيجة عامَّة من مجموعة الوقائع التي لا يخفى عدم ارتباط بعضها ببعض.

بعدما راقب ثورندايك جهودي غير المُجدية باهتمام بالغ، قال: «حسنًا، ما الذي تستنتجه من ذلك؟»

قلت يائسًا وأنا ألقي الورقة على الطاولة: «لا شيء! بالطبع أرى بعض المصادفات الغريبة. ولكن ما علاقتها بالقضية؟ أفهم أنك تريد الطَّعن في هذه الوصية التي نعلم أن كاتبها وقَّع عليها بكامل إرادته، ومن دون تأثيرٍ من أحد، وفي حضور شاهدَي عدل، وقد حلف كلاهما أن الوصية صحيحة. فهل هذا ما تريده؟»

«بالتأكيد.»

«إنني في حيرة من أمري ولا أعرف كيف تخطِّط لتحقيق ذلك. وبحسب ظني، لن تطعن في تلك الوصية بتقديم مجموعةٍ من المصادفات الغامضة التي تُربِك أي عقلٍ غير عقلك.»

أطلق ثورندايك ضحكة هادئة وخفية، ولكنه لم يسترسل في الحديث عن الموضوع.

قال: «ضع هذه الورقة في ملفك مع الملاحظات الأخرى، وفكِّر فيها على مهلك. ولكن الآن أريد منك مساعدةً صغيرة. هل ذاكرتك قوية في حفظ الوجوه؟»

«أظنها قوية إلى حد ما. لكن لماذا؟»

«لأن معي صورة لرجل أظن أنك قابلته من قبل. انظر في الصورة وأخبرني إن كنت تتذكر الوجه.»

أخرج صورةً بحجم الصور التي تُحفظ في الخِزانة من مغلف وصل مع بريد الصباح، وأعطاني إياها.

أخذت الصورة واقتربت من النافذة كي أتفحصها بدقة أكبر، قلت: «لا شك أني رأيت هذا الوجه في مكان ما، ولكن الآن لا أتذكر أين.»

قال ثورندايك: «حاول أن تتذكر. إن رأيت هذا الوجه من قبل، فحريٌّ بك أن تتمكن من تذكُّر الشخص.»

نظرت إلى الصورة باهتمام، وكلما نظرت إليها أكثر، بدا الوجه مألوفًا أكثر. وفجأة، ومضت هوية الرجل في عقلي وصحت مندهشًا:

«هل يحتمل أن يكون هو ذلك الرجل البائس في كينينجتون، أعني السيد جريفز؟»

رد ثورندايك: «ربما هو، بل إنه هو. لكن هل تُقسم في المحكمة على أنها صورته؟»

«إنني مقتنِع اقتناعًا راسخًا بأن الصورة صورة السيد جريفز. وأقسم على ذلك.»

قال ثورندايك: «لا ينبغي للمرء أن يحلف على شيء ليس على يقين منه. فالتعرف على الهوية دائمًا ما يتأثر برأي الشخص وظنه. وينبغي التشكيك في أقوال أي شخص على استعداد أن يُقسم بلا قيد أو شرط على تحديد هوية شخص ما، بناءً على ذاكرته فقط. ولكن أرى أن شهادتك المدعومة بالقسم ستكون كافية.»

من نافلة القول إن إخراج هذه الصورة أشعل فيَّ الاندهاش والفضول؛ كي أعرف كيف حصل ثورندايك عليها. ولكن حين أعادها إلى مغلفها من دون أن يقدم تفسيرًا من تِلقاء نفسه، شعرت أنه لا ينبغي أن أسأله مباشرةً. ولكني تجرأت وفتحت الحديث في الموضوع بطريقة غير مباشرة.

سألته: «هل وصلتك أي معلومات عن أهل دارمشتات؟»

«هل تعني شركة شنيتسلر؟ نعم. علمت من أحد المعارف في الحكومة أن الدكتور إتش فايس ليس من أهل المدينة، ولا يعلمون عنه شيئًا سوى أنه طلب من الشركة ١٠٠ جرام من هيدروكلوريت المورفين، وقد جرى توريدها إليه.»

«هل جرى توريد الكمية كلها مرة واحدة؟»

«لا. بل في طرود منفصِلة، وكل طرد ٢٥ جرامًا.»

«هل هذا كل ما تعرفه عن فايس؟»

«هذا كل ما أعرفه بالفعل، ولكن ليس كل ما أشك فيه، وشكوكي قائمة على أُسُس قوية. على أي حال، ما ظنك بسائق العربة؟»

«لا أحسبني فكرت فيه كثيرًا. لكن لماذا؟»

«ألم تشُكَّ قط أنه وفايس هما الشخص نفسه؟»

«نعم. ولكن كيف ذلك؟ فلا يوجد بينهما أي شبه. أحدهما كان اسكتلنديًّا والآخر ألمانيًّا. ولكن كيف علمت أنهما شخص واحد؟»

«أنا لا أعلم غير الذي أخبرتني به. لكن حين التفكير في أنك لم ترَهما معًا قط، وأن السائق لم يوجد قط من أجل الرسائل أو المساعدة عندما يكون فايس معك، وأن فايس ما كان يحضر إلا بعد وصولك ببعض الوقت، ويختفي قبل مغادرتك ببعض الوقت، فهذا يوحي لي أنهما ربما يكونان الشخص نفسه.»

«في رأيي أن هذا مستحيل. فلم يكن بينهما أي شبه على الإطلاق. ولكن على افتراض أنهما شخص واحد، هل لهذه المعلومة أي أهمية؟»

«هذه المعلومة تُوفِّر علينا عناء البحث عن السائق. كما أنها ستُشير إلى عدد من الاستنتاجات، وهذا ما ستعرفه إذا فكرت في المسألة مرة أخرى. ولكن بما أن المسألة ليست سوى رأي تخميني في الوقت الحالي، فالأفضل عدم طرح كثير من الاستنتاجات بشأنها.»

علَّقت: «لقد باغتَّني. يبدو أنك عكفت على دراسة قضية كينينجتون، وظني أنك اجتهدت فيها، وقد حسبتُ أن اهتمامك مشغول بالكلية بقضية بلاكمور.»

رد: «لا يصح أن تستحوذ قضية واحدة على كل اهتمام المرء. فعندي ستُّ قضايا أخرى — ومعظمها قضايا بسيطة — أتعامل معها في الوقت الحالي. أم حسبتَ أنني سأضعك في غرفة وأغلق عليك إلى الأبد؟»

«لا لم أحسب ذلك. ولكن ظننت أن قضية كينينجتون ستنتظر دورها. ولم يكن عندي علم أن لديك وقائع كثيرة تمكنك من إحراز أي تقدم.»

«ولكنك تعلم كل الوقائع المهمة عن القضية، ورأيت المزيد من الأدلة التي استمددناها من المنزل الفارغ.»

«هل تقصد تلك الأشياء التي أخذناها من القمامة الموجودة خلف شبكة المدفأة؟»

«نعم. فقد رأيتَ العُودَين الصغيرين العجيبين والنظارة. هذه الأشياء موجودة في الدرج الأعلى في تلك الخزانة الآن، ونصيحتي لك أن تُلقي نظرة أخرى عليها. أرى أنها تنطوي على كثير من المعلومات. فالعودان يطرحان اقتراحًا له قيمة كبيرة إلى أقصى حد، والنظارة مكَّنتني من وضع ذلك الاقتراح قيد الاختبار وصار معلومة حقيقية.»

قلت: «ولكن للأسف، لا أرى شيئًا في هذين العودين. حتى إنني لا أعلم ماهيتهما ولا الشيء الذي كانا جزءًا منه.»

رد: «لعلَّك إن أَولَيتهما الاهتمام الواجب حين تتفحَّصهما، ستعرف أن لهما استخدامًا واضحًا جدًّا. ألقِ نظرة متفحِّصة عليهما وعلى النظارة أيضًا. أعد التفكير في كل ما تعرفه عن هؤلاء الأشخاص الغامضين الذين عاشوا في ذلك المنزل، وسترى أن باستطاعتك أن تصوغ نظرية متَّسقة عن أفعالهم. فكر أيضًا أن لدينا بعض المعلومات التي قد تمكِّننا من تحديد هُوية بعضهم، واستنتج هُوية الباقين. سيكون أمامك يوم هادئ؛ حيث إنني لن أعود إلى المنزل حتى المساء، فأشغِل نفسك بتلك المهمة. وأنا أطمئنك أن لديك المادة التي تمكِّنك من تحديد هُوية — أو بالأحرى تمكِّنك من اختبار هُوية — واحد من هؤلاء الأشخاص على الأقل. ادرس تلك المادة دراسةً منهجية، وأعلمني في المساء ما التَّحريات الإضافية التي يمكن أن تقترحها.»

قلت: «حسنًا، سأُنجز المهمة حسب نصيحتك. سأشغل تفكيري من جديد بقضية السيد فايس ومريضِه، وأُنحي قضية بلاكمور جانبًا.»

«لا داعي إلى ذلك. فأمامك يوم كامل. ساعة واحدة من التفكير بذهن صافٍ في قضية كينينجتون كفيلة بأن تُبين لك الخطوة التالية التي ينبغي أن تتخذها، وبعد ذلك يمكنك أن تُكرس نفسك للتفكير في وصية جيفري بلاكمور.»

بهذه النصيحة الأخيرة، جمع ثورندايك الأوراق الخاصة بعمله لذلك اليوم، ووضعها في حقيبته الصغيرة وغادر، ثم تركني وتأمُّلاتي.

الفصل الثالث عشر

إفادة صمويل ويلكينس

بمجرد أن أصبحت بمُفردي، شرعت في تحرياتي، وأَملي يكاد ينقطع في أن أستخلص بعض الوقائع المذهِلة وغير المتوقعة. فتحت الدرج وأخرجت العُودين والبقايا المهشَّمة من النظارة، ووضعت كل هذه الأشياء على الطاولة. لم أجد الإصلاحات التي اعتزم ثورندايك إجراءها في النظارة قد أُجريت بالفعل. واضح أنها لم تكن ضرورية. أرى أن الحطام المهشَّم أمامي — على حالته كما وجدناه — كشف عن المعلومات الضرورية؛ وبما أن ثورندايك أصبح بحوزته صورة للسيد جريفز، فقد بات واضحًا أنه نجح في التعرف عليه، لدرجة أنه تواصل مع أحدٍ يعرف السيد جريفز عن قرب.

كان يُفترض أن تكون الظروف مشجِّعة. ولكنها لم تكن كذلك. فمن الناحية النظرية، كان الممكنُ بالنسبة لثورندايك ممكنًا بالنسبة لي، أو لأي أحد آخر. لكن من الناحية العملية، فذلك الممكن لا يتكشَّف من تِلقاء نفسه. بل ثمة معادلة شخصية. عقل ثورندايك ليس عقلًا عاديًّا. فالوقائع التي أدرك الصلة بينها على الفور بقِيت عند الآخرين وقائع غير مترابطةٍ ولا معنى لها. كلٌّ من قوة الملاحظة والاستدلال السريع عنده شيء لا يُصدَّق، وقد لاحظت هذا مرارًا وتكرارًا، وما قَلَّ اندهاشي منه قط. أراه يفهم كل شيء من مجرد نظرة، وسرعان ما يقدِّر معنى كل ما وقعت عليه عينه.

وهذا الموقف مثال على ما أقول. فقد رأيت كل ما رأى، والأدهى أنني رأيت هؤلاء الناس وشهدت أفعالهم، في حين أنه لم تقع عينه على أي أحد منهم. وقد تفحصت كومة القمامة الصغيرة التي جمعها بعناية فائقة، ولو كان الأمر بيَدي لرميت بها في مكانها خلف شبكة المدفأة من دون أي قدر من التردد. لم ألحظ أي بصيص نور وسط سحابة الغموض هذه، ولم أرَ أي إشارة تدلُّني على الطريق الذي أبحث فيه عن بصيص النور.

ولكن تمكن ثورندايك بطريقة لا أفهمها من تجميع الوقائع التي ربما لم ألاحظها، وقد جمعها كلها، لدرجة أنه في غضون أيام قليلة تمكن من تضييق دائرة البحث، لتقتصر على مساحة صغيرة للغاية.

انتقلت من هذه التأمُّلات عائدًا إلى الأشياء التي وضعتها على الطاولة. وبما أنني خبيرٌ في النظارات، لم تكن سِرًّا مُستعصيًا عليَّ. من السهل أن تطرح النظارة دليلًا واضحًا على هُوية شخصٍ ما، وهذا ما أدركه بوضوح كبير. إنها ليست نظارة جاهزة بحيث يمكن شراؤها من المتجر من دون ترتيب مُسبق، بل إنها نظارة صنعها اختصاصي بصريات ماهر من أجل علاج مشكلة محدَّدة في البصر، ومن أجل أن تتناسب مع وجه معين. وهكذا كانت هذه النظارة. فتصميم الإطار غريب، ووجود عدسة أسطوانية — وقد ميَّزتُها بسهولة من الشظايا المتبقية — يدل على أن إحدى العدستين قد صُمِّمت بطريقة وَصَفَها طبيب، وقد شُكِّلت حسب مقاسات معينة، ولا بد أن المسافة بين المركزين قيست بعناية. ومن ثم فإن هذه النظارة لها طابع شخصي. لكن الأمر البديهي أنه يستحيل استجواب كل جهات تصنيع النظارات في أوروبا؛ حيث إن النظارة ليست بالضرورة مصنوعة في إنجلترا. ربما تكون النظارة ذات قيمة في تأكيد شيء ما، ولكنها لا تصلح البتة بأن تكون نقطة انطلاق في التحريات.

تركت النظارة وانتبهت إلى العُودين. فمِن هذين العودين، انطلق ثورندايك. فهل يُعطياني إشارة أولية أنا أيضًا؟ نظرت إليهما وتساءلت: ما المعلومات التي استنبطها ثورندايك منهما؟ الجزء الصغير من الملصَق الورقي الأحمر له إطار بُني داكن أو أسود رقيق مزين بنمط هندسي متشابك، وقد اكتشفت عليه نقطتَين صغيرتَين من الذهب مثل الغُبار الناتج عن الطلاء بقشرةٍ مذهبة. ولكني لم أستنبط شيئًا من ذلك. رأيت أن القطعة الأقصر من العود مُجوَّفة بطريقة احترافية كي تدخل فيها القطعة الأطول. من الواضح أنها شكَّلت غِمدًا أو غطاءً وقائيًّا. لكن ما الذي كانت تحويه وتقيه تلك القطعة؟ ربما كانت لشيء مُدبَّب أو حاد. هل يمكن أن تكون لسكين جيب، مثل سكين صغير؟ لا، فهذه المادة ضعيفة للغاية ولا تصلح لمقبض سكين. ويُستبعَد أن تكون إبرة حفر للسبب نفسه، كذلك لم تكن أداة طبية، على الأقل ليست أداة طبية أعرفها.

تفحصتها مرارًا وتكرارًا وأعملتُ عقلي، ثم خطرَت ببالي فكرةٌ مُدهِشة. هل يمكن أن يكون قلمًا من القصب كُسِر منه سنُّه؟ فأنا أعلم أن بعض الرسَّامين ذوي الميول الزخرفية والمولعين بالخط السميك ما يزالون يستخدمون أقلام القصب. هل يعمل أحد المشتَبَه بهم

رسامًا؟ يبدو أن هذه أكثر الإجابات رُجحانًا عن هذا السؤال الصعب، وكلما فكرت فيه أكثر، زاد ذلك الرُّجحان. عادةً ما يوقِّع الرسامون على أعمالهم بطريقة واضحة، وحتى حين يستخدمون الرموز في توقيعهم، يسهُل تتبُّع هُويتها. هل من الوارد أن السيد جريفز على سبيل المثال كان رسَّامًا، وقد توصل ثورندايك إلى هُويته من خلال البحث في أعمال الرسامين المشهورين بالخط السميك؟

هذه المسألة شغلت تفكيري بقية اليوم. شعرت أن تفسيري لا يتناسب مع ما ذكره ثورندايك عن نهجه، ولكني لم أستطع التوصل إلى تفسير آخر. فكرت في السؤال وأنا أتناول غدائي منفردًا، وتفكرت فيه وأنا أدخن الغليون أكثر من مرة بعد الظهيرة، وقد أنعشت عقلي بكوب من الشاي، ثم خرجت أتمشى في حدائق منطقة تيمبل — حيث سُمِح لي بالتمشي فيها من دون الإخلال بوعدي — للتفكير فيه مجددًا.

كانت النتيجة مُحبِطة. ظللت أبني تفكيري على افتراض أن أجزاء العُودَين كانت أجزاءً من جهاز مُعَين، يخصُّ حِرفة معينة؛ في حين أنها قد تكون بقايا شيء مختلف تمامًا، تتعلق بحرفة مختلفة تمامًا، أو لا تتعلق بأي حرفة مطلقًا. وعلى أي حال، فإنهما لا يشيران إلى أي شخص معروف، أو إلى أي شيءٍ آخر غير مسارٍ غامضٍ إلى أبعد حدٍّ في طريق التحقيقات. بعد السير بين الطرق المبهجة قُرابة الساعتين، عدت إلى المسكن، وما كدت أصل حتى أنهى المسئول عن إضاءة المصابيح جولته.

غضبتُ عندما لم يُفضِ تفكيري إلى نتيجة. وحين اقتربت، علمت من النوافذ المضاءة أن ثورندايك قد عاد. ومن ثم اعتزمت الضغط عليه كي أستخلص منه مزيدًا من المعلومات. ولذلك حين دخلت إلى المسكن، وبدلًا من أن أجد زميلي، وجدت رجلًا غريبًا بالكلية لا أرى منه غير ظهره؛ أُحبطتُ وغضبت.

وجدت الغريب جالسًا على الطاولة يقرأ وثيقة كبيرة يُخيَّل إليَّ أنها عقد إيجار. لم يتحرك حين دخلت، ولكن حين اقتربت منه وألقيت عليه تحية المساء، نهض جُزئيًّا وأومأ لي صامتًا. كانت هذه أول مرة أرى فيها وجهه، وقد أذهلني للوَهلة الأولى. فقد ظللت للحظات وأنا أظنه السيد فايس؛ حيث إن الشبه كبير بينهما، ولكن سرعان ما أدركت أن جسد هذا الرجل أصغر بكثير.

جلست في الجانب المقابل له تقريبًا، وكنت أختلس النظر إليه بين الفَينة والأخرى. فالشبه بينه وبين فايس يَسترعي حقًّا الانتباه. ومن أوجه الشبه الشعرُ الأشقر واللحيةُ الشعثاء، والأنف الأحمر الذي به بقع من الحبوب الحمراء المنتشرة حتى الخدين المحيطين

به. إنه يستعمل نظارة أيضًا، وكان يَسترِق النظر إليَّ من حين إلى آخر، ويعود من فوره إلى الوثيقة التي بين يديه.

بعد لحظات من الصمت المحيِّر، تجرَّأت وعلقت على الجو اللطيف هذا المساء، ولم يرُدَّ إلا بكلمة «إمممم» على الطريقة الاسكتلندية، وأومأ ببطء. ثم خيَّمَت فترة أخرى من الصمت، وفيها فكرت في احتمالية أن يكون أحد أقرباء السيد فايس، وتساءلت عن الذي يفعله في المنزل. في النهاية سألت: «هل لديك موعد مع الدكتور ثورندايك؟»

أومأ بجدية، وحينما رد بكلمة «إمممم» مرة أخرى، فسَّرتُها على أنه يقول نعم.

رمقتُه بنظرات حادَّة لما لم أجد سلوكه لبِقًا؛ ومن ثم فتح عقد الإيجار بحيث يحجب وجهه عني، وحين نظرت إلى الصفحة الخلفية من الوثيقة ذُهِلت من قوة اهتزازها.

ذلك الشخص يضحك ملءَ فيه! وكنت في حيرة تامة من أمري، ما الذي وجده في سؤالي البسيط كي يبتهج إلى هذه الدرجة؟! ولكن ضحكه لا يمكن إنكاره. فرعشات الوثيقة لم تدَع سبيلًا للشك بأن الرجل يهتز من كثرة الضحك.

الموقف غامض إلى أقصى الحدود. كما أنه مُحيِّر كثيرًا. ولذا أخرجت ملفًّا من جيبي وبدأت أراجع ملاحظاتي. ثم أنزل الوثيقة عن وجهه، واستطعت أن أنظر مرة أخرى إلى وجه الغريب. إنه يشبه فايس إلى حدٍّ كبير. الحاجبان الأشعثان اللذان يرمِيان بظلالهما على العين، بالإضافة إلى النظارة، أعطياه المظهر الجاد الذي يُشبه وجه البومة نفسه الذي رأيته فيمن عرفته في كينينجتون؛ وبالمناسبة، هذا المظهر لا يتَّسق البتة مع السلوك المرِح الذي شهدتُه للتَّو.

حين أنظر إليه من وقت لآخر، تلتقي عيناه بعينيَّ، ولكن سرعان ما يَحيد ببصره عني ويحمَرُّ وجهه قليلًا. من الواضح أنه شخص خجول، وهذا ما قد يفسر قهقهته؛ فقد لاحظت أن الأشخاص الخجولين أو القلِقين عادةً ما يبتسِمون في أوقات غير مناسبة، وحتى يُقهقِهون حين يشعرون بالقلق، أو تتقابل أعينُهم مع عينَي شخصٍ لا يحيد ببصره عنهم. ويبدو أن نظراتي إليه سبَّبت حرجًا له؛ حيث إنني كلما نظرت إليه، كان يرفع الوثيقة فجأةً ويبدأ يضحك ملء شدقيه.

تحمَّلتُ هذا الموقف لمدة دقيقة أو دقيقتين، ولكن عندما لم أُطِق هذا الحرج، نهضت واعتذرت بطريقة فظَّة، وصعدت إلى المختبر لعلَّني أجد بولتون، وأسأله متى سيعود ثورندايك إلى المسكن. وحين دخلت، فوجئت عندما رأيت ثورندايك نفسه ينتهي من إعداد عيِّنة مِجهرية.

سألته: «هل تعلم أن شخصًا ينتظرك بالطابق السفلي؟»

سأل: «هل هو شخص تعرفه؟»

أجبته: «لا. إنه مهرج ذو أنف أحمر ويضع نظارة. ومعه عقد إيجار أو سنَد ملكية أو وثيقة من هذا القبيل، يستخدمها كي يحجبَ وجهه خلفها! لم أُطِق الجلوس معه؛ ولذا صعدت إلى هنا.»

ضحك ثورندايك ملء فيه حين وصفت له الرجل.

سألته غاضبًا نوعًا ما: «علامَ تضحك؟» ومن ثَم زاد ضحكه حتى زاد غضبي حين رأيته يمسح عينيه.

علَّق قائلًا: «يبدو أن صديقنا قد أغضبك.»

«لقد أغضبني حرفيًّا. ولو مكثتُ مدة أطول، لقَرَعتُ رأسَه بالعصا.»

قال ثورندايك: «في هذه الحالة، حسنٌ أنك لم تمكث. ولكن هيا ننزل إلى الطابق السفلي وأُعرِّفك عليه.»

«كلا، شكرًا لك. فقد اكتفيت منه في الوقت الحالي.»

«لكني عندي أسباب خاصة جدًّا وأريد أن أعرفك عليه. ويُخيَّل إليَّ أنه سيفيدك ببعض المعلومات التي تُهمك كثيرًا، ثم إنه لا ينبغي لك أن تتعارك مع رجُل لمجرد أن سلوكه مرِح.»

أجبته: «لا يعنيني مرحه! وأنا لا أصف رجلًا بأنه مرِح لأنه يتصرف مثل أحمق ثرثار.»

لم يرُد ثورندايك على ذلك إلا بابتسامة عريضة ومرحة، ثم نزلنا إلى الطابق السفلي. وحين دخلنا الغرفة، نهض الغريب وأخذ ينتقل بنظره من أحدنا إلى الآخر بطريقة مُحرِجة، ثم انطلقت منه ضحكات لا يمكن إنكارها. رمقتُه بنظرات حادَّة، ولكن ثورندايك لم يتأثَّر البتة بسلوكه غير اللائق، وقال بنبرة جادة:

«اسمح لي أن أعرفك عليه يا جيرفيس، على الرغم من أنني أظن أنك قابلت هذا السيد من قبل.»

قلت بنبرة حادة: «لم أُقابله.»

تدخل الغريب: «أوه، بل تعرفني يا سيدي»، وحينئذٍ فوجئت؛ حيث إن صوته يشبه صوت بولتون إلى حد بعيد.

نظرت إلى المتحدِّث وقد تخلَّلني شك مفاجئ. والآن، بتُّ أرى أن الشعر الأشقر كان شعرًا مُستعارًا، وأن اللحية ذات مظهر مزيف بدرجة مذهلة، وأن هاتَيْن العينَيْن اللتَيْن

تطلقان شرارات نظراتهما من خلف النظارة تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ عينَي خادمنا. ولكنَّ الوجه ذا النَّمش، والأنف المنتفِخ، والحاجبَين الأشعثَين المتدَلِّيَين ملامح غريبة لم ألمح فيها أي شبهٍ بالملامح الجميلة لمساعدنا ذي المظهر الأرستُقراطي.

سألت: «هل هذه مزحة عملية؟»

أجاب ثورندايك: «لا، بل توضيح. حين تحدَّثنا صباح اليوم بدا لي أنك لم تُدرك إلى أي مدًى يمكن إخفاء هُوية الشخص، حين تتوفَّر درجات الإضاءة الملائمة. ولذا رتَّبت مع بولتون رغم تردده أن نقدم لك إثباتًا عَينيًّا. لكن لم تكن الظروف مواتية للدرجة التي تجعل التوضيح مُقنِعًا. فإضاءة الغرفة عالية كما أن بولتون لم يُحسِن التمثيل؛ ورغم هذه الظروف، فلا شك عندي أنك لو جلست أمامه بضع دقائق وظللت تنظر إليه بانتباه كبير، لما اكتشفت هُويته. ولو أضيئت الغرفة بشمعة فقط، وكان بولتون على مستوى المهمة، بحيث يتلاءم تَخَفِّيه مع نبرة الصوت والأسلوب المناسبين، لبات خداعه لك مثاليًّا.»

قلت: «أرى أنه يضع شعرًا مستعارًا، فهذا واضح كثيرًا.»

«نعم، ولكنك لم تكن في غرفةٍ ذات إضاءة خافتة. وعلى الجانب الآخر، إنْ مشى بولتون في شارع فليت في وضح النهار بهيئته تلك، فسيصير التخفِّي واضحًا كثيرًا لأي شخصٍ يمر به من على مقربة. يكمن سر وضع مساحيق الوجه في التكيُّف الدقيق مع ظروف الإضاءة والمسافة التي يُرى منها واضع المساحيق. وما يُستخدم على خشبة المسرح سيبدو سخيفًا إذا استُخدم في غرفة عادية، وما يصلح في غرفة مضاءة بالمصابيح سيبدو سخيفًا إذا استُخدم بالخارج في ضوء النهار.»

سألت: «وهل ثمة مساحيق فعالة بالخارج في ضوء النهار العادي؟»

أجاب ثورندايك: «أوه، نعم. ولكن يجب وضعه بمقاييس مختلفة عن مقاييس المكياج على المسرح. فالشعر المستعار — ولا سيما شعر اللِّحية والشارب — يجب تثبيته عند حواف الشعر الأصلي، ولصقه على البشرة بمادة شفافة، وتهذيبه بالمقص. ينطبق الأمر نفسه على الحاجبين، ويجب تنفيذ التغييرات في لون البشرة بمهارة أكبر. فأنف بولتون غُيِّر شكله بطبقة صغيرة من معجون لصق الشعر المستعار، وشُكلت البثور على الخدَّين باستخدام جزيئات صغيرة من المادة نفسها، ونُفذ لون البشرة العام بطلاءٍ دهني، وأضيف قدر ضئيل من لون مسحوق لتقليل اللمَعان. تصلح هذه المساحيق للاستخدام بالخارج، ولكن كان يجب استخدامها بمزيد من العناية والمهارة؛ بعبارة أخرى، هذا ما يشير إليه النُّقاد الفنيون باسم «التحفُّظ». قليل من المساحيق يفي بالغرض، وأما الكثير

منه فيُفسِد شكل الشخصية. ومن ثَم ستُفاجأ حين ترى مدى قلَّة المعجون المطلوب؛ لتغيير شكل الأنف وملامح الوجه بالكامل.»

في تلك اللحظة، سمعنا طرقة ثقيلة على الباب؛ طرقة قوية واحدة من المطرقة يبدو أن بولتون يعرفها، حيث إنه تلفَّظ قائلًا:

«يا إلهي، يا سيدي! الطارق هو ويلكينس، سائق عربة الأجرة! لقد نسيته تمامًا. ما الذي ينبغي أن نفعله؟»

حدَّق فينا بنظرات رعب مضحكة للحظات، ثم نزع الشعر المستعار واللحية والنظارة، ووضعها في خِزانة. ولكن بات مظهره مضحكًا؛ إذ لم يسع ثورندايك أن يكتم ردة فعله؛ ولذا تحرك ووقف خلفه، فقد عاد الآن إلى مظهره الأصلي ولكن مع اختلاف جوهري.

صاح وأنا أضع منديلي على فمي: «أوه، لا شيء يدعو إلى الضحك يا سيدي. يجب الإسراع وإدخال هذا الطارق وإلا فسيمشي.»

قال ثورندايك: «نعم، وهذا لا يصح. ولكن لا تقلق يا بولتون. يمكنك الدخول إلى المكتب. وأنا سأفتح الباب.»

ولكن يبدو أن الحضور الذهني لبولتون قد غاب عنه تمامًا؛ حيث إنه ظل يحوم مترددًا في أعقاب مديره. وحين فُتح الباب، سأل صوت غليظ أجش:

«هل يعيش هنا رجل اسمه السيد بولتون؟»

قال ثورندايك: «نعم، إنه هنا. تفضَّل. اسمك ويلكينس على ما أظن، أليس كذلك؟»

قال الصوت: «أنا هو يا سيدي»، واستجابةً لدعوة ثورندايك بالدخول، دخل إلى الغرفة سائق عربة الأجرة «ذات الأربع عجلات» بمظهر من العصور القديمة؛ إذ يرتدي رداءً متعدِّد الطبقات ويعلق شارة، وأخذ ينظر حوله وعلى وجهه تعبيرات تمزج بين الحرج والجرأة، وإذا بعينيه تثبُتان على أنف بولتون والفضول يفيض منهما.

علَّق بولتون وفي صوته مسحة عصبية: «ها أنت إذن.»

رد السائق بنبرة عدائية نوعًا ما: «نعم. ها أنا ذا. ما المطلوب مني؟ وأين هو ذلك السيد بولتون؟»

رد مساعدنا المحرَج: «أنا السيد بولتون.»

لم يُنزل السائق عينيه من على أنف بولتون البارز، قال: «لست أنت السيد بولتون الذي أريده.»

رد مساعدنا بنبرة كان فيها الانزعاج واضحًا: «لا يوجد أحد اسمه بولتون غيري هنا. أنا ... إمممم ... الشخص الذي تحدث إليك في السقيفة.»

قال السائق والشك يُساوِره: «هل هو أنت؟ ما كان ليخطر ببالي، ولكن أنت أدرى. ماذا تريد مني؟»

قال ثورندايك: «نريدك أن تجيب عن سؤال أو سؤالين. والسؤال الأول هو: هل أنت ممتنع عن الخمور؟»

بمجرد أن طرح السؤال، أخرج إناء خمر، ما جعل بال السائق يهدأ قليلًا.

قال: «أنا لست مُتشددًا.»

«إذن، اجلس وصُب لنفسك كأسًا من الخمر. هل تريد صودا أم مياهًا عادية؟»

قال السائق وهو يجلس ويُمسك إناء الخمر عازمًا على الشراب: «سآخذ كل الإضافات. أرجو أن تصب الصودا يا سيدي؛ حيث إنها مستخدمة أكثر.»

وفي أثناء ترتيب هذه التمهيدات، انسل بولتون من الغرفة بهدوء، وحين احتسى زائرنا جرعة كبيرة من الخليط القوي، بدأ الاستجواب.

قال ثورندايك: «أظن أن اسمك ويلكينس، أليس كذلك؟»

«بلى يا سيدي. اسمي صمويل ويلكينس.»

«وما هي مهنتك؟»

«مهنتي شاقَّة ولا أكسب منها الكثير من المال. أنا سائق عربة أُجرة ذات أربع عجلات، ولا أكسب منها مالًا كثيرًا.»

«هل تتذكر يومًا ضبابيًّا منذ شهر تقريبًا؟»

«ومن ذا ينساه يا سيدي! كان يومًا ذا ضباب كثيف! إنه يوم الأربعاء الموافق الرابع عشر من مارس. أتذكر ذلك التاريخ لأن الجمعية التعاونية طلبت مني دفعات متأخِّرة صبيحة ذلك اليوم.»

«هل تخبرنا ما الذي حدث معك ما بين الساعة السادسة إلى السابعة في مساء ذلك اليوم؟»

فرغ السائق من شرابه ووطَّد نفسه لسرد ما حدث، قال: «سأخبركم يا سيدي. قبيل الساعة السادسة، كنت منتظرًا في جانب الوصول لمحطة جريت نورثرن، كينجز كروس، وحينئذٍ رأيت رجلًا وسيدةً يخرجان من المحطة. نظر الرجل في الشارع يَمنة ويَسرة ورآني، ثم مشى نحو العربة وفتح الباب وساعد السيدة على الركوب. ثم قال لي: «هل تعرف مجمع نيو إن؟» وقد قال لي إنه وُلِد ونشأ في وايت هورس ألي، دروري لين.

قلت له: «اركب.»

قال لي: «حسنًا، ادخل من البوابة في شارع ويتش»، وأحسبه ظن أنني سأدخل من شارع هوتون وأنزل الدَّرج، وقال لي «سِرْ حتى قبيل نهاية الشارع، وسترى منزلًا له لوحة نحاسية كبيرة في الزاوية بجانب الباب.» وقال لي: «نريد الذهاب إلى هذا المكان»؛ من ثم ركب العربة وأغلق النوافذ وانطلقنا.»

«استغرق الطريق نصف ساعة بالتمام حتى وصلنا إلى مجمع نيو إن، وقد مشينا بين الضباب واضطُرِرت إلى النزول، وسَحْب الحصان لبعض المسافة على الطريق. وحين مررنا من تحت قوسٍ، رأيت أن الساعة كانَت السادسة والنصف، عندما نظرت في الساعة الموجودة في مسكن البواب. مشينا حتى شارفنا على نهاية المجمع، وهناك وقفت أمام منزل له لوحة نحاسية كبيرة بجانب الباب. رقم المنزل ٣١. وهنا نزل الرجل وأعطاني خمسة شلنات، ثم ساعد السيدة كي تنزل من العربة، ومشيا الهوينى حتى وصلا إلى الباب، وصعدا الدرج ببُطءٍ شديد وكأنهما يقطعان رحلةً شاقة وطويلة. وهذه آخر مرة رأيتهما فيها.»

دوَّن ثورندايك إفادة السائق كاملة مع أسئلته، ثم سأل:

«هلَّا تعطينا أي وَصْف للرجل؟»

قال ويلكينس: «الرجل له مظهر محترم، غير أنه شرب بعض الخمر، وهذا أمر معهود في يوم كهذا. ولكنه لم يفقد توازُنه، ويعلم مقدار الأجرة المناسبة في مساء ضبابي، وقلة من الناس من يُقدِّر هذه الظروف. إنه رجل مُسِن، ربما في الستين من عمره، ويستعمل نظارة، ولكن يبدو أنه لا يرى جيدًا بها. كان مظهره مُضحِكًا؛ حيث إن ظهره مُنحنٍ كأنه ظهر سلحفاة، وحين كان يمشي، يبرز رأسه إلى الأمام كأنه رأس إوزَّة.»

«ماذا رأيت منه كي تقول إنه شرب خمرًا؟»

«رأيته يسير مُترنِّحًا على قدميه. لكنه لم يكن ثَمِلًا. بل قدماه تترنَّحان على الأرض.»

«والسيدة، ما أحوالها؟»

«لم أتبيَّن الكثير منها؛ لأنها كانت ترتدي حجابًا من الصوف. ولكن لا إخالها صغيرة في السن. ربما عمرها في عمر الرجل، لكني لست على يقين من ذلك. كذلك كانت تسير مُترنِّحة هي الأخرى، وفي الحقيقة كانا زوجين غريبَي الأطوار. شاهدتهما يترنحان عبر الرصيف ويصعدان الدرج، ويتكئ أحدهما على الآخر، والرجل ينظر من خلف نظارته وهي تحاول الرؤية من خلف الحجاب، واستحسنت منهما أن استأجرا عربة وسائقًا مُستَفيقًا كي يحضرهما إلى المنزل بأمان.»

«وماذا كانت ترتدي المرأة؟»

«لست مُتيقِّنًا؛ حيث إنني لست خبيرًا في الأزياء. كان رأسها ملفوفًا في الحجاب كأنه بودينج ملفوف في قطعة قماش ويعلوه قبعة صغيرة. كذلك كان لون معطفها بُنيًّا داكنًا ومُطرَّزًا بالخرز من الحواف، وتحته فستان أسود، ولاحظت حين صعِدَت إلى العربة عند المحطة أن أحد جوربيها مجعَّد مثل آلة أكورديون صغيرة. هذا كل ما أعلمه.»

دوَّن ثورندايك آخر إجابة، وحين قرأ الإفادة بالكامل بصوت عالٍ، أعطى القلم للزائر.

قال: «إذا كانت إفادتك كلها صحيحة، فسأطلب منك أن توقِّع اسمك في أسفل الورقة.»

سأل ويلكينس: «هل تريدني أن أُقسِم إقرارًا مني بأن كل هذا صحيح؟»

أجابه ثورندايك: «لا، شكرًا لك. ربما نضطرُّ إلى استدعائك للشهادة في المحكمة، وحينئذٍ سيُطلَب منك القسم، كما أنك ستُكافأ على حضورك. وفي الوقت الحالي، أريد منك أن تُبقي هذا الكلام طَيَّ الكتمان، وألَّا تخبر أحدًا عن قدومك إلى هنا. فنحن سنُجري بعض التحريات ولا نريد أن ينتشر خبر القضية.»

قال ويلكينس وهو يُوقِّع اسمه ببطء في ذيل الإفادة: «أفهم يا سيدي، فأنت لا تريد الآخرين أن يعرفوا خطتك. لا تقلق يا سيدي، يمكنك الاعتماد عليَّ. سأكتم أمرك عن الناس.»

قال ثورندايك: «شكرًا لك يا ويلكينس. والآن، بمَ نُكافئك على عناء القدوم إلينا؟»

«سأترك لك تقدير المكافأة يا سيدي. فأنت تعلم قيمة هذه المعلومات، ولكن لا أحسب أن نِصف جنيه سيكون كثيرًا عليك.»

وضع ثورندايك على الطاولة جنيهين ذهبيَّين، وحين رآهما السائق لمعت عيناه.

قال: «لدينا عنوانك يا ويلكينس. وإذا احتجنا إلى شهادتك في المحكمة، فسنُعلِمك، وإن لم نحتَج إلى شهادتك، فسنعطيك جنيهَين آخرين بعد أُسبوعين، شريطة ألَّا تتسرب هذه المحادثة القصيرة إلى أحد.»

أخذ ويلكينس النقود مبتهجًا. قال: «يمكنُك الوثوق بي يا سيدي، لن أفتح فمي. فأنا أعلم في أي طرف تكون مصلحتي. تُصبحون على خير جميعًا.»

بعد هذه التحية تحرك صوب الباب وخرج.

سأل ثورندايك حين تلاشت أصوات قَرع نعال السائق تمامًا: «ما قولك الآن يا جيرفيس؟»

«لا أعرف ماذا أقول. هذه المرأة عنصر جديد في القضية، ولا أعلم أين أضعها.»

قال ثورندايك: «ليست عنصرًا جديدًا تمامًا. فأنت لم تنسَ حبات الخرز التي وجدناها في غرفة نوم جيفري، أليس كذلك؟»

«بلى، لم أنسَها، ولكن لم يخطر ببالي أنها ستجلِّي لنا معلومات غير أن امرأة وُجدت في غرفة النوم في وقت ما.»

«حسبتُ أنها لن تكشف لنا غير هذه المعلومة. ولكنها الآن تكشف لنا أن امرأة بعينها وُجدت في غرفة النوم في وقت بعينه، وهذه المعلومة أهم بكثير الآن.»

«نعم. وأكاد أجزم أن تلك المرأة وُجدت في الغرفة حين أنهى حياته.»

«بالتأكيد كانت في الغرفة.»

«على أي حال، لقد أصبتَ بشأن ألوان هذه الخرزات وبشأن طريقة استخدامها.»

«أما بشأن استخدامها، فقد كان مجرد تخمين، ولكن تبيَّن أنه صحيح. ومن حُسن طالعنا أن وجدنا هذه الخرزات، فرغم أنها لم تكشف لنا عن معلومات كثيرة، فقد حملتنا إلى مرحلة أخرى في القضية.»

«وكيف ذلك؟»

«أعني أن شهادة السائق لم تخبرنا إلا بأن تلك المرأة قد دخلت إلى المنزل. والخرزات تخبرنا أنها كانت في غرفة النوم، ويبدو أن وجودها — كما قلت أنت — له علاقة بموت جيفري إلى حد ما. بطبيعة الحال هذه العلاقة ليست ضرورية. إنها مجرد اقتراح، ولكنه اقتراح قوي في ظل هذه الملابسات الغريبة.»

قلت: «ورغم ذلك، فإن هذه الحقيقة الجديدة لم تُجلِّ الغموض عن القضية قيد أُنمُلة، بل إنها أضافت عنصرًا جديدًا الأمر الذي زاد في غموضها. فشهادة البواب في التحقيق لم تترك مجالًا للشك في أن جيفري قد فكر في الانتحار، كما أن استعداداته تشير بقوة إلى أنه اختار هذه الليلة بالذات كي ينهي حياته. أليس الأمر كذلك؟»

«بلى. شهادة البواب واضحة وضوح الشمس في هذه النقطة.»

«لا أفهم أين موضع هذه المرأة من القضية. واضح أن وجودها في الشقة له جانب خبيث، لا سيما في غرفة النوم وفي هذا الوقت وفي ظل هذه الملابسات الغريبة والسرية، ولكني لا أفهم ما علاقتها بهذه المأساة. وقد يتضح في النهاية أنه لا علاقة لها بتلك القضية. فأنت تتذكر أن جيفري ذهب إلى مسكن البواب في الساعة الثامنة كي يدفع الأجرة، وتحدث لبعض الوقت مع البواب. وفي هذا الوقت ربما كانت المرأة قد غادرت.»

قال ثورندايك: «هذا صحيح. ولكن على الجانب الآخر، فإن حديث جيفري مع البواب بشأن عربة الأجرة لا ينسجم البتة مع ما سمعناه للتَّو من ويلكينس. وهذا يعني — كما في رواية ويلكينس بوجه عام — أن زيارة السيدة إلى المسكن اكتنفها بعض السِّرِّية.»

سألت: «وهل تعلم مَن تكون المرأة؟»

أجاب: «لا، لا أعلم. وعندي شك قوي أنه يمكنني التعرف على هُويتها، ولكني أنتظر بعض الحقائق الأخرى.»

«هل شكوكك مبنية على اكتشافات جديدة توصلت إليها، أم أنها مُستَقاة من الوقائع التي أعرفها؟»

أجاب: «لا أحسبني أعلم شيئًا غير الذي تعلم، رغم أنني في إحدى المرات حوَّلت شكًّا قويًّا إلى يقين بمزيد من التحقيقات. ولكن أظن أنه حريٌّ بك أن تكون قادرًا على تكوين فكرة عمن قد تكون هذه المرأة.»

«لكن لم يُذكر اسم أي امرأة في القضية.»

«معك حق، ورغم ذلك، أحسب أن الأجدر بك أن تهتدي إلى اسم هذه المرأة.»

«هل يجدُر بي ذلك حقًّا؟ إذن سأبدأ أشك في أنني أصلُح في السلك الطبي القانوني؛ حيث إنني عاجز عن طرح أي اقتراح.»

ابتسم ثورندايك ابتسامة متلطِّفة. قال: «لا تُحبَط يا جيرفيس. وإخال أنك حين بدأتَ العمل في المستشفيات تساءلت إن كان مكانك المناسب هو بين أهل الطب. فقد انتابني هذا الشعور من قبل. فالأعمال المتخصصة تتطلَّب من المرء أن يتحلَّى بمعرفة خاصة، وأن يكتسب الملَكة لاستخدام هذه المعرفة. فأنَّى لطالب في السنة الثانية أن يُعالج حالة بسيطة تُعاني تمدُّدًا في الأوعية الدموية الصدرية؟ إنه يعرف تشريح الصدر، إنه يبدأ في التعرُّف على أصوات ضربات القلب الطبيعية ومواضع الأصمية، ولكنه لا يستطيع ربط هذه المعلومات المتفرقة بعضها ببعض. وعلى الجانب الآخر، فإن الطبيب المتمرِّس يشخص الحالة تشخيصًا كاملًا، وربما يتمكَّن من التشخيص من دون إجراء أي فحص، بل من مجرد سماع كلام المريض أو سعاله. الطبيب عنده كل الوقائع مثل الطالب، ولكنه اكتسب الملَكة التي تمكنه من ربط الشذوذ الوظيفي للعضو بتغيراته التشريحية المصاحبة لذلك الشذوذ. إنها الخبرة. وبناءً على تدريبك السابق، سوف تكتسب هذه الملَكة قريبًا. حاول أن ترصد كل شيء. لا تدع شيئًا يفوت من ملاحظتك. ولا تبرحْ تحاول أن تجد صلة بين الوقائع والأحداث التي تبدو غير مترابطة. هذه نصيحتي لك، وبذلك سنُنَحي قضية بلاكمور جانبًا وننهي يوم عملنا.»

الفصل الرابع عشر

ثورندايك يزرع اللغم

أرى أن المعلومات التي قدمها السيد صمويل ويلكينس، بدلًا من أن تُبدد سحابة الغموض التي تخيم على قضية بلاكمور، اكتنفتها بسحابة غموض أخرى. والمسألة التي عهد بها إليَّ ثورندايك كي أحلَّها كانت هي الأصعب من أي مسألة أخرى. فقد عرض عليَّ أن أتوصَّل إلى امرأة مجهولة وأهتدي إلى اسمها. ولكن أنَّى لي ذلك؟ فلم تُذكَر أي امرأة في القضية غير السيدة ويلسون. ظهرت هذه الشخصية الدرامية من العدَم فجأةً وسرعان ما اختفت من دون أن تترُك أي أثر، باستثناء الخرزتَين أو الثلاثِ التي وجدناها في غرفة جيفري.

دورُها في هذه المأساة — إن كان لها دور — لم يكن واضحًا البتة. فالوقائع كانت لا تزال تُشير إلى شُبهة انتحار، مثلما هو الحال قبل ظهورها. تلميحات جيفري المُتكررة بشأن نواياه، والاستعدادات المهمة التي اتخذها كفيلة بأن تطرد أي فكرةٍ تتعلق بوجود شُبهة جنائية. لكن وجود المرأة في المسكن حينذاك، وإحاطة وصولها بالسرِّية والاحتياطات التي اتَّخذتها لئلَّا يتعرَّف عليها أحد؛ تُشير بقوةٍ إلى شيءٍ من التواطؤ في الحدَث المروِّع الذي أعقب وصولها.

لكن ما التواطؤ الذي يُمكن أن يُرتكَب في حالة الانتحار؟ ربما زوَّدته المرأة بالمِحقنة والسُّم، ولكن إنْ كان الأمر كذلك فليس ثمَّة حاجة إلى أن تذهب إلى مسكنه لهذا الغرض. عبَرَت بعقلي أفكارٌ عن الاستدراج والتنويم المغناطيسي، لكن هذه النظريات لم تتسق مع القضية، وفكرة الإيحاء بوجود جريمة عن طريق التنويم المغناطيسي لم تكن مُقنعة بما فيه الكفاية لعقل تمرَّس في الطب. ثم خطرت ببالي فكرة الابتزاز المُرتبط بسرٍّ مُخزٍ؛ ولكن رغم أن هذه النظرية تبدو أكثر منطقية، فإنها غير مُرجَّحة نظرًا لسِنِّ جيفري وشخصيتِه.

كل هذه التأمُّلات لم تُلقِ أيَّ بصيص نور على السؤال المحوري: «مَن كانت هذه المرأة؟»

مرَّ يومان من دون أن يتطرَّق ثورندايك إلى القضية من قريبٍ أو من بعيد. لم يكن في المنزل معظم الوقت، رغم أنني لم يكن لديَّ أي فكرة عن مدى انشغاله. والأغرب هو هجران بولتون للمُختبر والانشغال في أعمال بالخارج. حسبتُ أنه انتهز فرصة انشغالي بمهمةٍ ما، وظننتُ من دون أن أتيقَّن أنه صار وكيلَ تحرياتٍ خاصًّا لدى ثورندايك، كما فعل في قضية صمويل ويلكينس على ما يبدو.

في مساء اليوم الثاني، أتى ثورندايك إلى المنزل ومُحيَّاه يوحي بالبِشر، ولكن أفعاله التي شرع فيها أيقظت فضولي المُترقِّب. فقد وصل إلى خزانة وأخرج منها علبة سجائر من ماركة تريتشينوبولي. سجائر تريتشينوبولي هي مصدر التدليل الوحيد لدى ثورندايك، حيث إنه لا يستمتِع بها إلَّا في حالات نادرة ذات احتفالٍ خاص، وهو ما يعني عمليًّا أنه أحرز بعض التقدُّم، أو توصَّل إلى بعض الحلول الاستثنائية لمسألةٍ ذات صعوبة استثنائية. ولذلك أخذتُ أراقبه باهتمام مُتقد.

علَّق وهو يُخرج سيجارًا ويشتمُّ رائحتَه مُمسكًا إيَّاه برفق: «ما يؤسِفني أن محتويات سجائر تريتشينوبولي فيها قدْر من السُّمِّية. وبالنسبة إلى المُدخن الشرِه، لا توجد سجائر أخرى تُضاهيها.» أعاد السيجار إلى العلبة وأردف: «أرى أن أكافئ نفسي بسيجارٍ بعد العشاء احتفالًا بهذه المناسبة.»

سألته: «أي مناسبة؟»

«مناسبة الانتهاء من قضية بلاكمور. وسأكتب إلى مارشمونت أنصحُه بتقديم إنذارٍ قضائي.»

«هل تعني أنك أخيرًا وجدتَ ثغرة في الوصية؟»

تعجب: «وأيما ثغرة! عزيزي جيرفيس، الوصية الثانية مزورة.»

حدقتُ النظر فيه منذهلًا، حيث إنني لم أجِد كلامه غير هراءٍ بطريقةٍ أو بأُخرى.

قلت: «ولكن ما تقوله مُستحيل يا ثورندايك. فالشاهدان لم يتعرَّفا على توقيعِهما فحسب، وعلى بصمات أصابع الرسام ذات ألوان الرسم فحسب، بل إنهما قرَآ الوصية ويتذكَّران كل بنودها.»

«أجل، وهذا الجزء الجدلي في القضية. تلك مسألة عويصة. وسأمنحك فرصة أخيرة لحلِّها. في صباح الغد، سنُقدم شرحًا وافيًا للقضية؛ ومن ثم أمامك ٢٤ ساعةً أخرى كي تُفكِّر في القضية. ولكن الآن، سأصحبك إلى نادٍ كي نتناول العشاء. أظنُّنا سنكون في أمانٍ هناك من أعيُن السيدة شاليبام.»

جلس وكتب خطابًا كان واضحًا أنه قصير للغاية، وكتب عليه العنوان ولصق طابع البريد، واستعد للخروج.

قال: «هيا بنا ننطلق إلى أماكن تزخر بالاحتفالات وتتراقَص فيها الأضواء. سنزرع اللغم في صندوق البريد في شارع فليت. فأنا أُحب أن أكون في مكتب مارشمونت حين ينفجر.»

قلت: «ومِن أجل ذلك، أتوقَّع أن يُسمَع صدى هذا الانفجار من مكاننا هذا.»

ردَّ ثورندايك: «وأنا أيضًا أتوقَّع ذلك، وهذا يُذكِّرني بأن أبقى بالخارج طيلةَ اليوم غدًا، وإذا اتصل مارشمونت، فلا بدَّ أن تبذل كل ما بوسعك كي تُقنعه بالزيارة بعد العشاء، وأن يُحضر ستيفن بلاكمور معه إن أمكن. فأنا حريصٌ على أن يأتيَ ستيفن إلى هنا، حيث إنه سيُعطينا بعض المعلومات الأخرى، ويؤكِّد لنا بعض الحقائق.»

وعدتُه بأن أمارس كل ما أوتيت من قدرات في إقناع السيد مارشمونت، وهذا الأمر كنتُ سأفعله من تلقاء نفسي؛ لأن الفضول بلغ منِّي مبلغًا عظيمًا، وأريد أن أسمع شرح ثورندايك لتلك النتيجة التي لا يمكن تصوُّرها، والتي توصَّل هو إليها، وسكتنا عن الحديث في الموضوع تمامًا، وفيما تبقَّى من الليل، لم أستطع أن أحثَّ زميلي كي يفتح الحديث في الموضوع من جديد، سواء بطريقةٍ غير مباشرة أو حتى على سبيل التلميح.

تحقَّق ما توقَّعناه بشأن السيد مارشمونت؛ ففي صبيحة اليوم التالي، وفي غضون ساعةٍ من خروج ثورندايك من المسكن، سمعتُ طرقًا قويًّا على الباب، وحين فتحتُ الباب، وجدتُ المحامي رفقة رجل مُسِن. رأيت السيد مارشمونت مُتعكِّر المزاج بعض الشيء، وكان رفيقه في حالة غضبٍ جارف.

حين دعوت مارشمونت للدخول ودخل، قال: «كيف حالك يا دكتور جيرفيس؟ أليس صديقك موجودًا؟»

«نعم، ولن يعود حتى المساء.»

«إمممم، اعذُرني. فنحن نرغب في رؤيته على وجه الخصوص. هذا شريكي، السيد وينوُود.»

أومأ شريكه بقوة وأردف مارشمونت:

«وصلني خطابٌ من الدكتور ثورندايك، ويَسعني أن أقول إن هذا الخطاب غريب، بل إنه في الحقيقة خطاب استثنائي.»

تمتم السيد وينوُود: «إنه خطاب من مجنون!»

«لا، لا يا وينوُود، لا شيء من هذا. اكبح جماح غضبك أرجوك. ولكن في الحقيقة، الخطاب غير مفهوم بالمرة. إنه مرتبطٌ بوصية الراحل جيفري بلاكمور؛ أنت تعرف الوقائع الأساسية في القضية، ولم نتمكن من التوفيق بينها وبين الوقائع المذكورة في هذا الخطاب.»

أخرج السيد وينوود الخطاب من محفظته ووضعه على الطاولة بقوة، صاح: «ذاك هو الخطاب. وإذا كنتَ على دراية بالقضية يا سيدي، فاقرأ هذا الخطاب وقل لنا ماذا ترى.»

أخذتُ الخطاب وقرأته بصوتٍ عالٍ:

«الموضوع: الفقيد جيفري بلاكمور

السيد الفاضل مارشمونت تحية طيبة وبعدُ

لقد درستُ هذه القضية ببالِغ الاهتمام، ولا شك عندي الآن أن الوصية الثانية مزوَّرة. وأرى أنه لا مناصَ من الإجراءات الجنائية، ولكن في الوقت الحالي، تقتضي المحكمة تقديم إنذار قضائي.

وإذا أتيت إلى عنوان مَسكني مساء الغد، يُمكننا التحدُّث بشأن القضية، ويسرُّني كثيرًا أن تُحضر السيد ستيفن بلاكمور؛ حيث إن معرفته الشخصية بالأحداث والأطراف المَعنية ستُساعدنا كثيرًا في إجلاء التفاصيل الغامضة.

وتفضَّل بقبول فائق الاحترام

مقدِّمه لكم

جون إيفيلين ثورندايك

حضرة المحترم مارشمونت.»

صاح السيد وينوود وهو ينظر إليَّ شزرًا: «حسنًا! ما رأيك فيما يراه ذاك المستشار المُتعلم؟»

أجبته: «علمتُ أن ثورندايك كتب خطابًا إليكما بشأن هذه القضية، ولكن الحق أنني لا أعرف ما يدور في عقله. هل شرعتما في تنفيذ مشورته؟»

صاح المُحامي الغضوب: «بالتأكيد لا! هل تظن أننا نُريد أن نجعل من أنفسنا أضحوكة أمام المحاكم؟ فهذا مُستحيل ... مُستحيل يبعث على السخرية!»

قلت بنبرةٍ خشنة حيث إنني انزعجتُ من أسلوب السيد وينوود: «تعلَمان أن الأمر لا يمكن أن يكون على هذا النحو، وإلا فَما كتب ثورندايك الخطاب. يبدو أن النتيجة يتعذَّر

عليَّ فهمُها كما هو الحال معكما، ولكني أثق في ثورندايك ثقةً كاملة. وإذا قال إن الوصية مزورة، فلا شك عندي أنها مزورة.»

زمجر وينوود: «ولكن كيف يكون هذا بحقِّ الله؟ فأنت تعرف المُلابسات التي كُتبت الوصية في ظلِّها.»

«أجل، وثورندايك أيضًا على درايةٍ بها. وإنه ليس بالرجل الذي يُغفِل حقائق مهمة. ولا فائدة من الجدال معي. كما أنني في حيرةٍ من هذه القضية مثلكما. والأفضل أن تأتيا في المساء وتتحدَّثا بشأنها معه كما أشار عليكما.»

زمجر السيد وينوود: «هذا الموعد غير مُلائم البتة. فنحن سنتناول العشاء في المدينة.»

قال مارشمونت: «معك حق، ولكن ليس أمامنا خيار آخر. وكما قال الدكتور جيرفيس، لا بد أن نعتبر أن ثورندايك لديه أرض صلبة يبني عليها رأيه. فهو لا يرتكب الأخطاء التي قد يقع فيها أي شخص. وبالطبع إذا كان ما يقوله صحيحًا، فسيتغير موقف السيد ستيفن تغيرًا جذريًّا.»

صاح وينوود: «يا له من هراء! أكاد أجزم أن مآل هذا الأمر إلى لا شيء. ورغم ذلك، فإني أتفق في ضرورة سماع تفسيره.»

قال مارشمونت بصوتٍ خفيض تختلجه نبرة اعتذار: «لا عليك البتة يا وينوود، إنه عجوز سريع الغضب ولسانه حاد، ولكنه لا يقصد أي أذًى.» ظل وينوود يتفوَّه بكلامِ تذمُّر طويل؛ ومن ثم لم يُتبيَّن منه هل يتفق مع ما قاله أم لا.

قلت: «إذن، سننتظركما الليلة في حوالَي الساعة الثامنة، ولكن هل ستُحضران السيد ستيفن معكما؟»

أجاب مارشمونت: «نعم، وأظن أننا سنتمكن من إحضاره معنا. فقد أرسلتُ له برقية أطلب فيها حضوره.»

عندئذٍ، غادر المحاميان تاركَين إيَّاي أتأمل في كلام زميلي المذهل، وهذا ما فعلتُه، ولكنه أتى على حساب الأعمال الأخرى إلى حدٍّ كبير. ليس عندي أدنى شك في أن ثورندايك عنده تبرير لما أدلى به، ولكن هذا لا ينفي أن ما يقوله ينطبق عليه وصف السيد ديك سويفلر «كلام لا يُصدَّق».

حين عاد ثورندايك، أبلغتُه بزيارة الصديقَين وأعلمته المشاعر التي عبَّرا عنها، وقد ابتسم ابتسامةً هادئة عندما سمع ما قلته.

قال: «علمتُ أن ذلك الخطاب سيُحضر مارشمونت إلى بابنا قريبًا. أما وينوود، فأنا لم ألتقِ به من قبل، ولكني أعلَم أنه من الأشخاص الذين ينبغي ألَّا تغضب من أسلوبهم

في الكلام. وبوجهٍ عام، لا أتفق مع مَن يطلبون ضمنيًّا ألَّا تؤاخذهم في عدم التقيد بقواعد السلوك الطبيعية التي يُتوقَّع من غيرهم اتباعها. ولكن بما أنه يبشِّر بمنحنا ما يطلق عليه الفنانون المُتنوعو المهارات «دورًا إضافيًّا»، فسنستفيد منه ونُعطيه دورًا.»

هنا، ابتسم ثورندايك ابتسامةً ماكرة — وقد عرفتُ معناها في المساء — وسأل: «ماذا تقول في هذه المسألة؟»

أجبته: «لقد استسلمت. وبالنسبة إلى عقلي المُنهَك، تُشبه قضية بلاكمور مسألةً جبرية لا نهاية لها، وضعها عالِم رياضيات مجنون.»

ضحك ثورندايك على هذا التشبيه الذي أعتبِره تشبيهًا في محله.

قال: «الحَقْ بي على العشاء ولنحتسِ زجاجة نبيذ؛ حتى لا تضعف معنوياتنا بسبب عبوس وينوود. أظن أن حانة «بيل» في هولبورن ستُلبِّي احتياجاتنا الحالية أفضل من النادي. ثمَّة شيءٌ مرحٌ ومُبهجٌ في الحانات القديمة، ولكن يجب أن نكون في حالة تأهُّبٍ قصوى بشأن السيدة شالييام.»

انطلقنا من فورنا، وبعد أسبوعٍ من الحبس، وجدتُني مرة أخرى وسط شوارع لندن، والنوافذ ذات الإضاءة الساطعة من المحلات، والأعداد الغفيرة من الغرباء الودودين الذين تعجُّ بهم الأرصفة.

الفصل الخامس عشر

ثورندايك يفجر اللَّغم

لم يمضِ على رجوعنا إلى المسكن بضع دقائق، حتى سمِعنا طَرْق المطرقة النحاسية الصغيرة على الباب الداخلي. فتح ثورندايك الباب بنفسه، وحينما رأينا الزائرين الثلاثة واقِفين على عتبة الباب، أدخلهم وأغلق الباب خلفهم.

قال مارشمونت بأسلوب تختلِجه مسحةٌ من غضب وشيء من عدم الارتياح: «قبِلنا دعوتك، كما ترى. هذا شريكي السيد وينوود، لا أحسبك قد قابلتَه من قبل. ورأينا أنه ينبغي أن نسمع منك بعض التفاصيل؛ إذ إننا لم نفهم خطابك البتة.»

قال ثورندايك: «هل أعتبِر أن استنتاجي لم يكن مُتوقَّعًا على الإطلاق؟»

صاح وينوود: «الموضوع أبعدُ من ذلك يا سيدي. فهذا الاستنتاج لا يتفق البتة سواءٌ مع وقائع القضية أو مع الاحتمالات المادية المُتعارَف عليها.»

وافقه ثورندايك: «للوهلة الأولى، هذا ما يبدو عليه ظاهر الأمر.»

احمرَّ وجه وينوود فجأةً واعتلاه الغضب، قال: «ما أزال أرى ظاهر الأمر على ذاك النحو. ويسعني القول إنني أمارس مِهنة المحاماة منذ أن كنتَ أنت طفلًا رضيعًا. وأنت يا سيدي تقول إن الوصية مزوَّرة، وهذه الوصية كُتِبت في وضح النهار وفي حضور شاهدَي عدل، ولم يحلف الشاهدان على توقيعهما ومحتوى الوثيقة فحسب، بل أقسما على بصمات الأصابع المطبوعة على الورقة. هل بصمات الأصابع هذه مزوَّرة هي الأخرى؟ هل تفحصتها واختبرتَها؟»

أجاب ثورندايك: «لا، لم أفعل. الحقيقة أنني لا أكترِث لأمر توقيعات الشاهدَين، حيث إنني لا أطعن فيها.»

في هذه اللحظة، بدأ السيد وينوود يستشيط غضبًا.

صاح بصوتٍ مدوٍّ: «مارشمونت! على حدِّ ظني، أنت تعرف ذلك السيد الألمعي. فهل من دأبه أن يتفوَّه بالنكات المُضحكة؟»

قال مارشمونت مُستاءً: «عزيزي وينوود، أرجوك، أتوسَّل إليك أن تتمالك نفسك. مما لا شك فيه أن ...»

زمجر وينوود: «اللعنة على هذا كله! فقد سمعته بنفسك وهو يقول إن الوصية مزورة، ولكنه لا يطعن في صحة التوقيعات؛ وهذا ...» حينئذٍ خبط وينوود بقبضته على الطاولة «... كلام لا معنى له.»

قاطعهم ستيفن بلاكمور: «أظن أن سبب مَجيئنا إلى هنا هو الاستماع إلى تفسير الدكتور ثورندايك لخطابه. وحريٌّ بنا أن نؤجِّل أي تعليقاتٍ حتى نستمِع إليه.»

قال مارشمونت: «لا شك، لا شك. أتوسَّل إليك يا وينوود أن تتحلَّى بالصبر وتستمع، ولا تُقاطع الحديث حتى نسمع تفسير صديقنا المُستنير للقضية.»

ردَّ وينوود عابسًا: «أوه، حسنًا، لن أتفوَّه بكلمةٍ أخرى.»

جلس في كرسي وكأنه رجل أغلق على نفسِه بالمفتاح؛ ومن ثَم ظلَّ على هذه الحال — إلا حين يبلغ الضغط النفسي نقطة الانفجار — طيلة الأحداث التالية، إذ ظلَّ صامتًا ومتخشبًا وجامدَ الشعور، وكأنه تمثال قابع يُعبِّر عن العناد.

قال مارشمونت: «هل أعتبر أنك توصلتَ إلى وقائع جديدة لم نكن قد توصلنا إليها؟»

أجاب ثورندايك: «نعم، توصلتُ إلى وقائع جديدة، وقد توصلت إلى طُرق جديدة لتفسير الوقائع القديمة. ولكن كيف أطرح القضية أمامك؟ هل أبدأ بنظريتي عن تسلسل الأحداث وأنتهي بالأدلة التي تدعمها؟ أم أتتبَّع المسار الفعلي لتحرياتي وأطرح عليك الوقائع حسب ترتيب وصولي إليها بالإضافة إلى استنتاجاتي؟»

قال السيد مارشمونت: «أرى أن الأفضل أن تضع هذه الوقائع الجديدة بين أيدِينا. وإذا لم تكن الاستنتاجات المَبنية عليها واضحةً بالقدْر الكافي، يُمكننا أن نسمع حُجَّتك. ما رأيك يا وينوود؟»

نهض السيد وينوود من كرسيه للحظاتٍ وقال كلمةً واحدة بنبرة حادة «الوقائع»، ثم جلس في كرسيه مرة أخرى صامتًا.

سأل ثورندايك: «هل تريد الوقائع الجديدة وكفى؟»

«نعم، من فضلك. ففي كل الأحوال، لا أريد سوى الوقائع في المقام الأول.»

قال ثورندايك: «حسنًا»؛ وهنا، لمحتُ في عينَيه بريقًا خبيثًا أفهمه فهمًا تامًّا، وقد علمتُ معظم هذه الوقائع بنفسي، وأدركت الكمَّ الذي سيستنتِجُه هذان المُحاميان. وينوود على وَشْك «مواجهة موقفٍ بالغ الصعوبة» كما وعد ثورندايك.

حين وضع زميلي على الطرف الأقرب له على الطاولة صندوقًا صغيرًا من الورق المقوى، وملاحظات من محفظة أوراقه، نظر سريعًا إلى السيد وينوود واستهلَّ قائلًا:

«أُولى الوقائع الجديدة المهمة توصلتُ إليها يوم عرضتَ عليَّ القضية. بعدما غادرتَ في مساء ذلك اليوم، استغللتُ دعوة السيد ستيفن الطيبة بأن ألقي نظرةً فاحصة على شقة عمِّه في مجمع نيو إن. وقد رجوتُ أن أفعل ذلك كي أتحقَّق — إن أمكن لي — من عادات المُتوفى في مدة إقامته في تلك الشقة. حين وصلتُ مع الدكتور جيرفيس، وجدنا السيد ستيفن في الشقة، علمتُ أن عمَّه كان عالمًا في الحضارات الشرقية وله مكانة مرموقة، وأنه على درايةٍ تامة بالكتابة المسمارية. وبينما أتحدَّث مع السيد ستيفن، توصلتُ إلى اكتشافٍ أثار فضولي. فعلى الحائط فوق المدفأة، تُعلَّق صورة ذات إطار لنقشٍ فارسي قديم بالحروف المسمارية، وكانت هذه الصورة مقلوبة.»

تعجَّب ستيفن: «مقلوبة! هذا شيء يدعو حقًّا إلى الاستغراب.»

وافقه ثورندايك: «أجل، حقًّا ذاك شيء غريب وله دلالات كثيرة. فالطريقة التي قُلبت بها الصورة واضحة ولها دلالات أيضًا. من الواضح أن الصورة وُضِعت في الإطار منذ بضع سنوات، ومن الواضح أنها لم تعلَّق من قبل.»

قال ستيفن: «لم تُعلَّق، رغم أنني لا أعلم كيف توصلت إلى هذه الحقيقة. فقد كانت موضوعة على رفِّ الموقد في شقته القديمة بشارع جيرمين.»

أردف ثورندايك: «ثبَّت صانع الإطار ملصقًا على ظهر الإطار، وبما أن هذا الملصق مُثبت بالوضعية الصحيحة، فيبدو أن الشخص الذي علَّق الصورة على الحائط اتخذ هذا المُلصَق دليلًا يسترشد به.»

قال ستيفن: «أمر غريب حقًّا. كان يجب أن أفكر في أن الشخص الذي علقها كان سيسأل عمي جيفري عن الوضعية الصحيحة، ولا أتخيل أنها ظلَّت مُعلقةً طيلة هذه الشهور من دون أن يلاحظ أنها مقلوبة. لا بد أنه كان كفيفًا بالمعنى الحرفي.»

هنا، أشرق وجه مارشمونت بعدما كان جبينُه مجعدًا من التفكير العميق.

قال: «لقد فهمتُك الآن. تقصد أنه لو كان بصر جيفري مكفوفًا، فلا يُستبعَد أن يُبدِّل أحدٌ ما الوصية؛ ومن ثَم يمكن أن يُوقِّعها من دون أن يُلاحظ تبديلها.»

زمجر وينوود: «ولكن هذا ليس دليلًا كافيًا على تزوير الوصية. فإذا وقَّع عليها جيفري، فقد صارت وصيته. ولا يمكن الطعن فيها ما لم يثبت التزوير. ولكنه قال: «هذه وصيتي»، وقد اطَّلع عليها الشاهدان وتعرَّفا عليها.»

سأل ستيفن: «هل قرآ الوصية بصوتٍ عالٍ؟»

أجاب ثورندايك: «لا، لم يفعلا.»

سأل مارشمونت: «هل يمكنك إثبات التبديل؟»

أجاب ثورندايك: «لم أجزم بذلك، ولكن قلتُ إن الوصية مزورة.»

قال وينوود: «ولكنها ليست كذلك.»

قال ثورندايك: «لن نتجادل في هذا الأمر الآن. ولكن أطلب منكم أن تلاحظوا انقلاب صورة النقش. وأيضًا، رصدت على جدران الشقة بعض اللوحات اليابانية الملوَّنة، وكان عليها بُقَع رطبة حديثة. لاحظت كذلك أن غرفة المعيشة احتوت على موقد غاز وأن المطبخ لا يحتوي، حرفيًّا، على أي مخزونٍ من الغذاء أو أي بقايا طعام، ولا أي أثرٍ للطهو فيه ولو وجبة بسيطة. أما في غرفة النوم، فقد وجدتُ صندوقًا كبيرًا سبق أن احتوى على كميةٍ كبيرة من شمع الستيراين، وكل ستٍّ منها تزن رطلًا، ولكن الصندوق أوشك أن يفرغ. تفحَّصت ملابس المتوفَّى. في نعل الحذاء، رأيتُ طينًا جافًّا، وهذا الطين لا يُشبه المُلتصِق بحذائي أو حذاء جيرفيس، بل إنه لصق في نعلِه من الميدان المرصوف بالحصى في مجمع نيو إن. لاحظت أيضًا تجعيدًا في كل ساقٍ من سروال المتوفَّى وكأنهما شُمِّرا حتى ركبتَيه، وفي جيب صدريَّته عثرت على عُقب قلم رصاص من نوعية كونتاجو. وعلى أرضية غرفة النوم، وجدتُ جزءًا من زجاجةٍ بيضاوية الشكل وكأنها زجاج ساعة أو قلادة، ولكنها مسحوقة من الحافة من الجانبَين. كما وجدنا أنا والدكتور جيرفيس خرزةً أو خرزتَين وخرزة زجاجية، وكلُّها باللون البُني القاتم.»

هنا، توقف ثورندايك، وكان مارشمونت يُحدق فيه النظر باهتمامٍ متزايد، قال متوترًا:

«إمممم ... نعم. عجيب حقًّا. الملاحظات التي قُلتها ... إمممم هي ...»

«هي الملاحظات التي رصدتها في مجمع نيو إن.»

نظر المُحاميان أحدهما إلى الآخر، وحدَّق ستيفن بلاكمور نظرَه في بقعة على البساط أمام المِدفأة. ثم ارتسمت على وجه السيد وينوود ابتسامة استياء وسخرية.

قال: «ربما رصدت العديد من الملاحظات الجيدة يا سيدي لو نظرت. فلو تفحصت الأبواب، للاحظت أن فيها مفصَّلات مغطاة بالطلاء؛ ولو نظرت في المدخنة، لربما لاحظت أنها سوداء من الداخل.»

احتج مارشمونت وهو يشعر بألَم عدم الارتياح مما قد يتفوَّه به صديقه: «الآن، الآن، يا وينوود، يجب أن أتوسَّل إليك ... إمممم ... أن تمتنع عن ... ما يقصده السيد وينوود يا دكتور ثورندايك هو أننا ... إمممم ... لا نفهم تمامًا وجه الصِّلة في ... آه ... الملاحظات التي تذكرها.»

قال ثورندايك: «ربما لا تُدركونها الآن، ولكن ستدركونها في وقتٍ لاحق. أما الآن، فسأطلب منكم أن تدوِّنوا الوقائع وتتذكروها؛ بحيث يصير بمقدوركم تتبُّع النقاش حين نأتي إلى ذكر وجه الصلة.

في تلك الليلة، أعطاني الدكتور جيرفيس مجموعة بيانات أخرى، حين ذكر لي تفاصيل مغامرةٍ عجيبةٍ للغاية حدثَت له. لا أريد أن أُثقل عليكم بكل التفاصيل، ولكني سأذكر لكم جوهر القصة.»

ثم شرع في سرد الأحداث المُرتبطة بزيارتي للسيد جريفز، متطرقًا إلى السمات الشخصية للأطراف المعنية وخاصةً المريض، دون أن ينسى حتى النظارة الفريدة التي كان يرتديها السيد فايس. كذلك شرح باختصار رسم الخريطة، وقد عرضها عليهم كي يتفحَّصوها. استمع زوَّارنا الثلاثة إلى هذا السرد في حيرةٍ تامة، ولم يكن حالي يختلف عن حالهم؛ لأنني لم أتصوَّر مُطلقًا كيف ترتبط مُغامراتي بشئون الراحل السيد بلاكمور. ومن الواضح أن هذا هو الرأي الذي اتَّخذه السيد مارشمونت؛ لأنه حين سكت عن الكلام وقد صارَت الخريطة معه، علَّق بنبرةٍ جادَّة إلى حدٍّ ما:

«أظن يا دكتور ثورندايك أن القصة العجيبة التي سردتَها لنا لها علاقة بالموضوع الذي يشغلنا.»

رد ثورندايك: «ظنُّك في محلِّه تمامًا. القصة مُرتبطة به حقًّا، وهذا ما ستكتشفه بعد قليل.»

قال مارشمونت وهو يغوص مرةً أخرى في كرسيِّه، ويتنهَّد مُستسلمًا: «شكرًا لك.»

تابع ثورندايك: «منذ بضعة أيام، حدَّدنا أنا والدكتور جيرفيس مكان المنزل الذي دُعِي إليه بمساعدة هذه الخريطة. وجدنا أن المستأجِر الأخير غادر المنزل على عجلٍ إلى حدٍّ ما، وأن المنزل كان معروضًا للإيجار، وحينما لم يُتَح لنا أي سبيل آخر للتحري، فقد حصلنا على المفاتيح واستكشفنا ذلك المنزل.»

طرح عرضًا مُختصرًا لزيارتنا والظروف التي رصدناها، وهمَّ بأن يعرض قائمة الأشياء التي وجدناها تحت شبكة المدفأة، ولكن السيد وينوود نهض من كرسيه.

صاح: «أحقًّا ما تقول يا سيدي؟! لقد طفح الكيل! وهل أزعجتُ نفسي وتكبدتُ عناء المجيء إلى هنا؛ كي أسمعك وأنت تسرد قائمة جردٍ لكومة تراب؟»

ابتسم ثورندايك ابتسامةً مُتلطفة، ولفتت نظري — مرة أخرى — لمحة من الاستمتاع.

قال بهدوء: «اجلس يا سيد وينوود. فقد أتيتَ إلى هنا كي تسمع وقائع القضية، وأنا سأُعطيك إيَّاها. أرجو عدم المقاطعة من دون حاجةٍ كي لا تهدِر الوقت.»

رمقه وينوود بشرر نظراته لبضع ثوانٍ، ثم بعد أن شعر بالارتباك بسبب هدوء أسلوب ثورندايك، أطلق زمجرةً تدل على تحدِّيه وأجلس نفسَه في الكرسي، وأطبق فمَه مرة أخرى.

أردف ثورندايك بهدوءٍ لم يتزعزع: «سندرس الآن هذه الآثار بمزيدٍ من التفاصيل، وسنبدأ بالنظارة. هذه النظارة لشخصٍ مُصاب بقصر النظر واستجماتزم في عينِه اليسرى، وتوشك عينُه اليمنى على العمى. وهذا الوصف ينطبق تمامًا على وصف الدكتور جيرفيس للمريض.»

سكت حينئذٍ، وحينما لم يُعلق أحد، تابع حديثه:

«نأتي الآن إلى هذين العودَين الصغيرَين، ربما تتعرَّف عليهما أنت يا سيد ستيفن وتُدرك أنهما بقايا فرشاة يابانية، مثل التي تُستخدَم للكتابة بالحبر الصيني أو عمل رسومات صغيرة.»

سكت مرةً أخرى، لعلَّه يسمع تعليقًا من مُستمعِيه، ولكن لم يتحدَّث أحد؛ ومن ثم استكمل حديثه:

«ثم هناك هذه الزجاجة التي تحمِل ملصق صانع الشعر المستعار، وكانت تحتوي على مادةٍ لاصقة مثل التي تُستخدَم لتثبيت اللِّحى المستعارة أو الشوارب أو الحواجب.»

سكت مرة ثالثة ونظر مُترقبًا لمُستمعيه، ولكن لم يتطوع أحد منهم ويُدلي بأي تعليق.

سأل بنبرة يختلِجها شيء من الاندهاش: «ألَا يوجَد شيء مما ذكرتُه لكم وأريتكم إيَّاه له أهمية بالنسبة لنا؟»

قال السيد مارشمونت وهو ينظر إلى شريكه الذي هزَّ رأسه مثل حصانٍ مُضطرب: «لا أرى أنها تدل على شيء.»

«ولا أنت يا سيد ستيفن؟»

أجاب ستيفن: «ولا أنا. في ظلِّ الظروف الحالية، لا أراها تُشير إلى استنتاجٍ منطقي.»

تردَّد ثورندايك وكأنه همَّ بقول شيءٍ ولكنه تراجع، وهز كتفيه قليلًا، وطوى ملاحظاته واستأنف حديثه:

«مجموعة الوقائع الجديدة التالية مُرتبطة بالتوقيعات على الشيكات الأخيرة. فقد صورتُها ووضعتُها بعضها بجانب بعضٍ بهدف المُقارنة والتحليل.»

قال وينوود: «لست على استعدادٍ للتشكيك في التوقيعات. فعندنا رأي خبير سيُلغي رأينا في المحكمة إن اختلفنا معه، ولا أحسب أننا سنختلِف معه.»

قال مارشمونت: «أجل، الأمر كما قال. أعتقد أننا يجب أن نقبل التوقيعات، لا سيما أنَّ الوصية قد ثبتت صِحَّتها بما لا يدع مجالًا للشك.»

وافقه ثورندايك: «حسنًا، سنطوي أمر التوقيعات. إذن، عندي بعض الأدلة الإضافية بشأن النظارة، وهذه الأدلة تخدم التحقُّق من استنتاجنا بشأنها.»

قال مارشمونت: «أعتقد أنه يُمكننا طيُّ هذه المسألة أيضًا، حيث إننا لم نتوصَّل إلى أي استنتاجات.»

قال ثورندايك: «كما تُحب. إنها مهمة ولكن يُمكننا إرجاؤها إلى وقت التحقُّق. وأظن أن البند التالي سيُهمكم كثيرًا. إنها إفادة صامويل ويلكينس المُوقَّعة والمشهود عليها، وهو سائق العربة التي أتى فيها الراحل إلى المنزل ليلة وفاته.»

لقد أصاب زميلي. إنها وثيقة حقيقية، وقَّعها شاهد موجود يمكن أن يقف أمام المحكمة ويُقسِم، وقد أثارت اهتمام المُحامِيَيْن، وحين قرأ ثورندايك إفادة سائق العربة بصوتٍ عالٍ، سرعان ما تحول اهتمامهما إلى اندهاشٍ لا يمكن إخفاؤه.

تعجَّب مارشمونت: «ولكنها مسألة بالغة الغموض حقًّا. من تكون هذه المرأة، وما الذي تفعله في شقة جيفري في ذلك الوقت؟ هل عندك أي توضيح يا سيد ستيفن؟»

أجاب ستيفن: «لا، في الحقيقة ليس عندي. فأنا أرى هذه الواقعة لغزًا مُستعصيًا. كان عمِّي جيفري عازبًا عجوزًا، وعلى الرغم من أنه لم يكره النساء، فإنه لم ينحَزْ لُمجتمعِهنَّ، وانغمس في دراساته المُفضلة. وعلى حدِّ ظني، لم يكن لديه صديقات. حتى إن علاقته مع أخته — السيدة ويلسون — لم تكن على وفاق.»

قال مارشمونت متأملًا: «عجيب، عجيب حقًّا. ولكن هل لك أن تُخبرنا من تكون هذه المرأة يا دكتور ثورندايك؟»

أجاب ثورندايك: «أظن أن الدليل التالي سيُمكِّنكم من تكوين رأيٍ عنها بأنفسكم. وأنا لم أحصل عليه سوى البارحة، وهذا ما أكمل قضيتي؛ ومن ثَم أرسلتُ إليكم على الفور. تلك إفادة من جوزيف ريدلي — سائق عربة أجرة آخر — ولكن للأسف هو شخصٌ أحمق ضعيف التركيز، ولا يُشبه ويلكينس. لم يكن عنده الكثير ليُخبرنا به، ولكن القليل الذي عنده ينطوي على دلالاتٍ كثيرة. وسأتلو عليكم الإفادة وعليها توقيع صاحبها وأنا الشاهد عليها:

«أنا المدعو جوزيف ريدلي. وأعمل سائق عربة أجرة ذات أربع عجلات. في الرابع عشر من مارس، في اليوم الذي خيَّم فيه على المدينة ضباب كثيف، كنتُ منتظرًا في محطة فوكسهول، حيث أوصلتُ أحد الركاب. وفي حوالي الساعة الخامسة، أتت امرأة وأمرتني أن أذهب إلى أبر كينينجتون لين من أجل أن آخُذ راكبًا. إنها امرأة ذات جسمٍ متوسط الحجم. لم أستطع أن أستنبِط عمرها، أو أتبيَّن شكلها؛ لأن رأسها كان مُغطًّى بحجابٍ مغزولٍ من الصوف كي يَقيها من الضباب. ولم أُلاحظ ماذا كانت ترتدي. ركبَت العربة وأنا قدتُ الحصان إلى أبر كينينجتون لين ومشيتُ قليلًا في الحارة، حتى نقرت لي المرأة على نافذتها الأمامية كي أتوقَّف.

نزلَت من العربة وطلبَت منِّي أن أنتظر. ثم ذهبت واختفت في الضباب. وبعد فترةٍ وجيزة أتت امرأة ورجل من الاتجاه الذي ذهبت فيه. أظن أنها المرأة نفسها، ولكني لا أجزم بذلك. فقد كان رأسها ملفوفًا بنوع الحجاب أو الشال نفسه، ولاحظتُ أنها ترتدي عباءة داكنة اللون ذات هدبة مُطرزة بالخرز.

كان الرجل حليقَ الذقن ويرتدي نظارة، ويُعاني تقوسًا في ظهره. لا أعلم إن كان نظرُه جيدًا أم لا. ساعد المرأة على الركوب وطلب منِّي أن أوصلهما إلى محطة جريت نورثرن، عند تقاطع كينج. ثم ركب وقدتُ أنا العربة. وصلت المحطة في حوالي الساعة السادسة إلا الربع ونزلتِ المرأة والرجل. دفع الرجل الأجرة ودخل كلاهما إلى المحطة. ولم أُلاحظ شيئًا غريبًا لدى أيٍّ منهما. وبعدما ذهبا مباشرة، أتاني راكب آخر وانطلقتُ بعيدًا».»

اختتم ثورندايك كلامه: «هذه إفادة جوزيف ريدلي، وأظنها ستُعطيكم معنًى للوقائع الأخرى التي عرضتها عليكم للتفكير فيها.»

قال مارشمونت: «لا أحسب أن عندي تفسيرًا. فكل ذلك لُغز يستعصي على الحل. بالطبع تشير إلى أن المرأة التي أتت إلى مجمع نيو إن في عربة الأجرة هي السيدة شاليبام!»

قال ثورندايك: «على العكس من ذلك تمامًا. بل أشير إلى أن المرأة كانت جيفري بلاكمور.»

صمت الجميع للحظاتٍ وكأن على رءوسهم الطير. لقد صُعِقنا جميعًا، ووقفنا نُحدق النظر في ثورندايك وقد أخرستنا الدهشة. بعد ذلك، انتفض السيد وينوود من كرسيه.

صاح: «ولكن ... يا إلهي ... يا سيدي! ولكن كان جيفري بلاكمور معها حينذاك!»

رد ثورندايك: «هذا طبيعي، ويتضمَّن اقتراحي أن الشخص الذي كان معها لم يكن جيفري بلاكمور.»

صرخ وينوود: «ولكنه كان معها! فقد رآه البواب!»

«رأى البواب شخصًا ظنَّ أنه جيفري بلاكمور. أحسب أن ظنَّ البواب ليس في محلِّه.»

زمجر وينوود: «حسنًا، ربما بمقدورك إثبات ذلك. أنا لا أعلم كيف، ولكن ربما بمقدورك ذلك.»

جلس في كرسيه مرةً أخرى وهو يرمي ثورندايك بنظراتِ تحدٍّ.

قال ستيفن: «وكأنك تشير إلى وجود علاقة بين المريض المدعو جريفز وعمي. وقد انتبهتُ إلى هذه العلاقة حينذاك، ولكنِّي لم أُعِرها اهتمامًا. فهل كنت على حق؟ هل قصدتَ أن تُشير إلى أي علاقة؟»

«بل أشرتُ إلى ما هو أكبر من العلاقة. أشرتُ إلى الهوية. ورأيي أن المريض المدعو جريفز هو عمك.»

قال ستيفن: «بناءً على وصف الدكتور جيرفيس، لا بد أن هذا الرجل كان عمِّي على الأرجح. فكلاهما كان مكفوفًا في العين اليُمنى ويُعاني ضعفًا شديدًا في البصر في العين اليسرى، وبالتأكيد أن عمي كان يستخدِم الفرشات من النوعية التي بيَّنتها لنا حين يكتب بالحروف اليابانية، حيث إنني رأيته وأُعجبتُ بمهارته، ولكن ...»

قال مارشمونت: «لكن، هناك اعتراض لا يمكن دَحْضه؛ وهو أنه في الوقت الذي كان فيه هذا الرجل يرقد مريضًا في كينينجتون لين، كان السيد جيفري يعيش في مجمع نيو إن.»

سأل ثورندايك: «ما الدليل على ذلك؟»

صاح مارشمونت بنفاد صبر: «دليل! لماذا يا سيدي ...»

توقف فجأة، وانحنى إلى الأمام، ونظر إلى ثورندايك بتعبيرٍ جديدٍ يدلُّ على الحيرة نوعًا ما.

استهل: «هل تعني ...»

«أعني أن جيفري بلاكمور لم يَعِش في مجمع نيو إن مطلقًا.»

في تلك اللحظة، ألجمتِ الدهشة مارشمونت على ما يبدو.

في النهاية قال مُتعجبًا: «يا له من تفسير مُذهل! ولكن لا شك أن هذا ليس مُستحيلًا، حيث إنك لما ذكرت الواقعة الآن، أدركت أنه لم يرَه أحدٌ ممَّن يعرفهم — باستثناء أخيه جون — في مجمع نيو إن. ومسألة الهوية هذه لم تُثَر من قبل.»

قال وينوود: «إلا في مسألة الجثة، وبالتأكيد كانت جثة جيفري بلاكمور.»

قال مارشمونت: «أجل، أجل. بالطبع. فقد نسيتُ هذا للحظة. وقد جرى التعرُّف على الجثة بما لا يدع مجالًا للشك. وأنت لا تطعن في هوية الجثة، أليس كذلك؟»

أجاب ثورندايك: «بلى، مُطلقًا.»

وهنا وضع السيد وينوود يدَيه على رأسه وخرَّ بمرفقَيه على ركبتَيه، وأخرج مارشمونت منديلًا كبيرًا ومسح جبهته. نظر ستيفن بلاكمور من أحدِهم إلى الآخر مُترقبًا، وفي النهاية قال:

«أودُّ أن أتقدَّم باقتراح، بما أن الدكتور ثورندايك عرض لنا قِطَع الأحجية الآن، فإني أرجو منه أن يجمعها مع بعضها بحيث يُعطينا الصورة كاملة.»

وافقه مارشمونت: «نعم، هذه أفضل خطة. اذكر لنا حُجتك يا دكتور وأيَّ أدلةٍ إضافية لديك.»

قال ثورندايك: «الحجة تفاصيلها كثيرة نوعًا ما، نظرًا لكثرة البيانات، وثمة نقاط في التحقُّق يجب أن أتناولها بشيءٍ من التفصيل. سنتناول بعض القهوة كي نُصفي أذهاننا، ثم سأطلب منكم أن تتحلَّوا بالصبر، ريثما أبسط لكم حُجتي التي تبدو طويلة نوعًا ما.»

الفصل السادس عشر

بيان تفسيري ومأساة

بعدما صب ثورندايك القهوة ووزع الأكواب، قال: «ربما تتساءلون ما الذي دفعني إلى إجراء تحقيق دقيق في قضية يوحي ظاهرها بأنها بسيطة ومباشِرة. ربما كان الأفضل أن أوضح هذا أولًا، وأُريكم أين هي نقطة الانطلاق الحقيقية للتحقيق.

أيها السيد مارشمونت والسيد ستيفن، حين عرضتما القضية عليَّ، دوَّنت ملخَّصًا موجزًا للوقائع على نحو ما قدمتُما لي، وقد لفت انتباهي واقعة أو اثنتان منها. أولًا، توجد وصية. وهذه الوصية غريبة جدًّا. ولم تكن ثمة حاجة لها على الإطلاق. فهي لم تتضمَّن بنودًا جديدة، ولم تُعرِب عن تغيير في النوايا، ولم تتوافق مع ظروف جديدة، كما هو معروف لدى الموصي. باختصار، لم تكن وصية جديدة على الإطلاق، ولكنها مجرد تكرار للوصية الأولى، ولكنها صيغت بلُغة مختلفة وأقل ملاءمةً. الفرق الوحيد أنها تضمَّنت غموضًا معينًا خلت منه الوصية الأصلية. فقد جعلت من الممكن أن يصير جون بلاكمور هو المستفيد الأساسي في ظروف معينة ليست معلومةً لدى الموصي، وهذا ما يخالف رغبات الموصي الواضحة.

النقطة الثانية التي لفتت انتباهي هي الطريقة التي ماتت بها السيدة ويلسون. فقد ماتت بالسرطان. وفي الوقت الحالي، لا يموت الناس بالسرطان فجأة أو من دون توقع. فهذا المرض الخطير يتفرَّد في أنه لا تظهر أعراضه على المريض إلا بعد الإصابة ببضعة أشهر. والمصاب بسرطان لا يُرجى شفاؤه هو شخص يمكن التنبؤ بوفاته، ويمكن تحديد تاريخ وفاته ضمن حدود ضيقة نسبيًّا.

لننظر الآن إلى سلسلة المصادفات العجيبة التي يُسلَّط عليها الضوء، عند التفكير في هذه السمة المميِّزة لهذا المرض. تُوفِّيَت السيدة ويلسون في الثاني عشر من مارس هذا العام. وُقِّع على الوصية الثانية للسيد جيفري في الثاني عشر من نوفمبر العام الماضي،

وحينذاك، لا بد أن طبيب السيدة ويلسون كان قد علم بإصابتها بالسرطان، وربما علم بالخبر أحدٌ ما من أقربائها الذين يصلونها.

ثم إنكم ستُلاحظون أن التغيير الكبير في عادات السيد جيفري يتزامن بطريقة فريدة مع الأحداث نفسها. لا بد أن أعراض السرطان قد ظهرت في بداية سبتمبر العام الماضي؛ وفي الحقيقة هذا هو الوقت الذي كتبت فيه السيدة ويلسون وصيتها. انتقل السيد جيفري إلى مجمع نيو إن في أول أكتوبر. وبدايةً من ذلك الوقت، تغيرت عاداته كليًّا، ويمكن أن أبين لكم أن التغيُّر — الذي لم يكن تدريجيًّا، بل مفاجئًا — قد حدث في طريقة توقيعه.

باختصار، وقعت مجموعة الظروف الغريبة هذه — التغير في عادات جيفري، والتغير في توقيعه، والتغير في وصيته — حين أصبح مرض السيدة ويلز بالسرطان معروفًا.

هذه الواقعة لفتت انتباهي وعلمتُ أنها تحمل دلالات كثيرة.

ثم تأتي واقعة التاريخ المواتي بطريقة غريبة لوفاة السيد جيفري. تُوفيت السيدة ويلسون في الثاني عشر من مارس. عُثر على السيد جيفري ميتًا في الخامس عشر من مارس، ومن الواضح أنه مات في الرابع عشر، وفي ذلك اليوم شُوهد وهو لا يزال على قيد الحياة. ولو كان تُوفِّي قبل وقت وفاته الفعلي بثلاثة أيام فقط، لمات قبل السيدة ويلسون؛ ومن ثَم ما كانت تركتها لِتئُول إليه على الإطلاق، ولو عاش لمدة يومٍ أو يومَين آخرين فقط، لربما علم بموتها، وبالتأكيد كان سيكتب وصيةً جديدةً أو ملحقًا بوصيته الأولى لصالح ابن أخيه.

ومن ثم تضافرت الظروف بطريقة فريدة لصالح جون بلاكمور.

لكن ثمة مصادفة أخرى. عُثر على جثة جيفري بمحض الصدفة في اليوم التالي لوفاته. ولكن ربما ظلت مختفية لأسابيع أو حتى شهور؛ ولو حدث ذلك، لاستحال تحديد تاريخ وفاته. عندئذٍ كان أقرب أقرباء السيدة ويلسون سيطعن في دعوى جون بلاكمور — وربما ينجح في ذلك — على أساس أن جيفري مات قبل السيدة ويلسون. لكن عدم اليقين أَجْلَتْه واقعة دفع السيد جيفري إيجاره بنفسه — وقبل الأوان — للبواب في الرابع عشر من مارس؛ ومن ثم فإنه لا مجال للشك في كونه حيًّا في ذلك اليوم؛ إضافةً إلى ذلك، وفي حالة أنه لا يمكن الوثوق في ذاكرة البواب أو في إفادته، قدم جيفري وثيقة موقعة ومؤرَّخة، وهي الشيك الذي يُعَد دليلًا لا جدال فيه بأنه كان على قيد الحياة.

لأُعطِكم إيجازًا لهذا الجزء من الأدلة. نحن أمام وصية مكَّنت جون بلاكمور من أن يرث تركة رجل من المؤكد أنه لم تكن عنده النية في يورِّثها له. ويبدو أن صياغة الوصية

قد عُدلت بحيث تتوافق مع الملابسات الغريبة لموت السيدة ويلسون، وكذلك وقعت وفاة الموصي في ظل ملابسات غريبة يبدو أنها تتفق تمامًا مع صياغة الوصية. أو بعبارة أخرى، صياغة الوصية وتوقيتها، وأسلوب الموصي وملابسات موته، كل ذلك يبدو وكأنه اتُّفق اتفاقًا دقيقًا، مع حقيقة أن التاريخ التقريبي لوفاة السيدة ويلسون كان معروفًا قبل بضعة أشهر من وفاتها.

والآن، لا مناص من الاعتراف بأن هذه المجموعة المركَّبة من المصادفات لها مظهر فريد للغاية؛ حيث إنها تتآمر جميعها من أجل هدف واحد وهو إثراء جون بلاكمور. المصادفات شائعة في الحياة اليومية، ولكن لا يمكن قبول حدوث العديد منها في آن واحد. وقد ساورني شعور أنها كانت كثيرة للغاية في هذه القضية، وأنه لا يمكنني قبولها من دون تحريات.»

سكت ثورندايك، وأومأ السيد مارشمونت — الذي كان ينصت بآذان مصغية — وهو ينظر إلى شريكه الصامت.

قال: «لقد عرضت القضية بإيضاح بالغ، وإني أعترف أن بعض النقاط التي ذكرتها قد غابت عن بالي.»

استطرد ثورندايك قائلًا: «فكرتي الأولى هي أن جون بلاكمور استغلَّ الضعف العقلي الناتج عن تعاطي الأفيون؛ ومن ثَم أملى هذه الوصية على جيفري؛ عندئذٍ طلبت الإذن لتفقد شقة جيفري، وكان الهدف من ذلك هو معرفة ما كنت أبحث عنه، وأن أرى بنفسي ما إذا كان مظهرها قذِرًا وغير منظم، وهو ما يميز وكر مُدخِّن الأفيون العادي. لكن حين فكرت في القضية وأنا أتمشى في المنطقة التجارية، بدا لي أن هذا التفسير لا يكاد يتطابق مع الوقائع. ومن ثَم حاولت التفكير في تفسيرٍ آخر، وحين راجعت ملاحظاتي، رصدت نقطتَين تستحقَّان التفكير. تتمثَّل الأولى في أن الشاهدَين على الوصية لم يكونا على معرفةٍ بجيفري بلاكمور، فكلاهما غريب، وقد قَبِلا هُويته بناءً على كلامه. النقطة الثانية هي أنه لا أحد ممن يعرفون جيفري مسبقًا قد رآه في مجمع نيو إن غير أخيه جون.

فما أهمية هاتَين الواقعتَين؟ ربما لا يكون لهما أهمية. وبرغم ذلك، فإنهما تُلمِّحان إلى ضرورة الإجابة عن السؤال: هل الشخص الذي وقَّع على الوصية هو جيفري بلاكمور حقًّا؟ وعلى الرغم من عدم ترجيح فكرة أن شخصًا ما انتحل شخصية جيفري وزوَّر توقيعه على وصية مزورة، لا سيما في ضوء التعرُّف على الجثة، فإن هذه ليست فكرة مستحيلة في الواقع، كما أنها تطرح تفسيرًا شاملًا للمصادفات المذكورة آنفًا التي لم يُهتدَ إلى تفسير لها.

على الرغم من ذلك، مررت بلحظات ظننتُ فيها أن هذا التفسير ليس صحيحًا، ولكن كان لديَّ إصرارٌ على ألَّا أُزيحَه من عقلي، وأن أختبرَه حين تَسنح لي الفرصة، وأن أفكِّر فيه حين تُسلَّط عليه الأضواء استنادًا إلى أي وقائع جديدة أصِل إليها.

وقد أتتني الوقائع الجديدة أسرع مما توقعت. فقد توصَّلت إليها ليلة ذهبت مع الدكتور جيرفيس إلى مجمع نيو إن، ووجدت السيد ستيفن في الشقة. فقد علمتُ منه أن جيفري كان عالمًا في الحضارات الشرقية، وكان خبيرًا في الكتابة المسمارية، وبينما يقول لي ذلك، نظرت من فوق كتفه، ورأيت لوحة نقش مسماري معلقة على الحائط في وضعية مقلوبة.

وهذه الحالة ليس لها سوى تفسير واحد منطقي. بغض النظر عن حقيقة أنه لا يمكن لأحد تثبيت لوحات داخل إطار، من دون التأكُّد من الاتجاه الصحيح للأعلى، وافتراض أن اللوحة عُلِّقت مقلوبة، كان من المستحيل أن يتجاهل جيفري الوضع الخاطئ. وعلى الرغم من ضعف بصره، لم يكُن مكفوفًا. يبلغ طول الإطار ٣٠ بوصة، ويبلغ طول الحروف بوصة واحدة تقريبًا، أي تساوي حجمَ حروف «دي ١٨» في مخطط سنيلين، وهذا الحجم يمكن أن يقرأه إنسان صحيح البصر من مسافة ٥٥ قدمًا. وأُكرر أنه لا يوجد غير تفسير واحد مقبول، وهو أن الشخص الذي سكن هذه الشقة ليس جيفري بلاكمور.

وقد لاقى هذا الاستنتاج دعمًا كبيرًا من الواقعة التي رصدتها فيما بعد، ولكن لن نتطرَّق إلى هذه النقطة الآن. عند فحص النعلين اللذين خُلعا من قدمَي المتوفَّى، لم أجِد فيهما غير الطين العادي من الشوارع. لم أجد أثرًا للطين الحصوي الغريب الذي التصق بحذائي وحذاء جيرفيس، حيث إنه التصق بهما ونحن في ساحة نيو إن. لكن البواب قال صراحةً إنه بعدما دفع المتوفَّى الأجرة، عاد إلى شقته مارًّا بالساحة؛ ومن ثَم كان ينبغي أن يلتصق طينُها بحذائه.

ومن ثم في لحظة ما، اكتسبت الفرضية الظنية تمامًا درجة عالية من الاحتمالية.

حين انصرف السيد ستيفن، فتَّشنا أنا وجيرفيس في الشقة جيدًا، وقد بانت لنا حقيقة أخرى غريبة. كان على الحائط عدد من اللوحات اليابانية الملوَّنة، وقد وُجدت في جميعها بُقع رطوبة. والآن، بصرف النظر عن فكرة أن جيفري — الذي كان يتحمَّل عناء جمع هذه المطبوعات القيِّمة ونفقتها — لم يكن ليسمح لها بالتعفُّن على جدرانه، يطرح السؤال التالي نفسه: كيف تعرضت للرطوبة؟ كان في الغُرفة موقد غاز، وهو مفيد في الحفاظ على جفاف الجو. وكان الجو شتويًّا، ومن الطبيعي أن يبقى الموقِد مشتعلًا. كيف تعرضت

الجدران للرطوبة؟ وكانت الإجابة فيما يبدو أن الموقد لم يكن مشتعلًا باستمرار، ولكن كان يُشعَل من حين إلى آخر. برز هذا الاقتراح بمزيد من التفتيش في الشقة. المطبخ قد خلا حرفيًّا من أي خِزانات، وكاد يخلو من أي ترتيباتٍ قد يحتاجها حتى العازِب البسيط من أجل الطهو، وينطبق الأمر نفسه على غرفة النوم، كان الصابون الموجود في حوض الغسل جافًّا ومُتشققًا؛ لم أرَ ثمة بياضات منزوعة، وعلى الرغم من نظافة القمصان الموجودة في الأدراج، كان لها مظهر غريب مُصفَرٌّ باهت يكتسبه الكتان، عندما لا يُستخدَم لفترة طويلة. باختصار، يوحي مظهر الشقة أنها لم تُسكن على الإطلاق، بل تُزار على فترات متقطعة.

لكن ثمة ما يخالف هذا الرأي وهو إفادة بوَّاب النوبة الليلية بأنه كثيرًا ما رأى المصباح مضاءً في غرفة الجلوس بشقة جيفري كل يومٍ في الساعة الواحدة صباحًا، ويبدو أن هذا يشير ضِمنيًّا إلى أن المصباح أُطفئ حينذاك. والآن، يمكن ترك النور مضاءً في غرفةٍ فارغة، لكنَّ انطفاءه يعني ضمنيًّا أن شخصًا أطفأه، إلا إذا توافر جهاز أوتوماتيكي مضبوط على أن يطفئه في وقت محدد. هذا الجهاز بسيط للغاية، مثل حركة المنبه عند رأس الساعة بإرفاق شيء مناسب، ولكني بحثت في الشقة ولم أعثر على شيء من هذا القبيل. إلا أنني حين بحثت في الأدراج بغرفة النوم، وجدت صندوقًا كبيرًا به كمية كبيرة من شمع الستيراين الصلب. اكتشفت أنه لا يتبقَّى من الصندوق الكثير، ولكن الشمعدان المسطح، الذي يحتوي على العديد من الفتيلات في تجاويفه، يفسِّر أين ذهب الباقي.

لكن هذه الشموع تبدد الصعوبة. لم تكن ثمة حاجةٌ إلى الإضاءة العادية؛ حيث إن تجهيزات الغاز ثُبِّتت في الغُرف الثلاث. إذن، ما الغرض الذي استُخدم من أجله الشمع بهذه الكمية الكبيرة؟ فيما بعد، حصلت على بعض الشموع من العلامة التجارية نفسها — شمع الستيراين من برايس، وكل ستٍّ منها تزن رطلًا — وجربتها. يبلغ طول كل شمعة سبع بوصاتٍ وربعًا، من دون المخروط العلوي، ووجدت أنها تحترق في الهواء الساكن بمعدلٍ يزيد على البوصة الواحدة بقليل في غضون ساعة. وبذلك يمكننا القول إن الشمعة الواحدة ستظل مشتعلةً في الهواء الساكن، لمدةٍ تزيد على ست ساعات بقليل. ومن ثم من الوارد أن مَن سكن الشقة ذهب في الساعة السابعة مساءً، وترك شمعةً يمكن أن تحترق إلى ما بعد الواحدة صباحًا، ثم تنطفئ من تلقاء نفسها. بالطبع، هذا مجرد تخمين، ولكنه يَنسِف أهمية إفادة بواب النوبة الليلية.

لكن إذا لم يكن الشخص الذي سكن هذه الشقة هو جيفري، فمَن يكون؟

الإجابة عن هذا السؤال واضحة تمامًا. ليس ثمة شخصٌ لديه دافع قوي لارتكاب عملية احتيال من هذا النوع سوى شخصٍ واحد، وليس ثمة شخص يمكنه فعل ذلك سوى شخص واحد. وإذا لم يكن هذا الشخص هو جيفري، فلا بد أن يكون شخصًا يُشبهه؛ ولا بد أن يكون الشبه قويًّا لدرجة أن يخلط المرء بين جسد أحدهما بجسد الآخر. فجسد جيفري كان جزءًا أساسيًّا في الخطة ويجب التفكير فيه منذ البداية. والشخص الوحيد الذي تنطبق عليه الشروط هو جون بلاكمور.

علمنا من السيد ستيفن أن جون وجيفري كان بينهما شبهٌ كبير، وهما في سن الشباب، على الرغم من اختلاف المظهر في السنوات الأخيرة. لكن حين تباعد الشبه في السنوات الأخيرة بين الأخوَين اللذَين كانا متشابهَين في صِغَرهما، سنجد أن الاختلاف ناتجٌ عن فروقٍ ظاهرية، وأن الشبه الأساسي لا يزال باقيًا. ومن ثم في هذه الحالة، نجد أن جيفري حليق الذقن وبصره ضعيف ويستعمل نظارة، ويظهر انحناء في ظهره حين يمشي، أما جون فعنده لحية وشارب وبصره جيد ولا يرتدي نظارة، ومِشيته سريعة وقامته مُنتصِبة. لكن لو افترضنا أن جون حلق ذقنه وشاربه وارتدى نظارة وتظاهر بالانحناء في مشيته، فهذه الفروق الواضحة والظاهرية في الوقت نفسه ستختفي، وسيظهر الشبه الأصلي من جديد.

ثمة شيء آخر يجب أخذه في الحسبان. كان جون مُمثِّلًا وعنده بعض الخبرة في التمثيل. والآن، بإمكان أي شخص أن يختلق تمويهًا إذا كان لديه قدر من العناية والخبرة، ولكن الصعوبة الأكبر تتمثَّل في دعم ذلك التمويه بما يناسبه من الأسلوب والصوت. ولكن بالنسبة إلى ممثِّل متمرِّس، لا مكان لهذه الصعوبة. فتقمُّص الشخصية أمرٌ هيِّن عنده، كما أن الممثِّل على وجه التحديد هو الشخص الذي يمكن أن تتبادر إلى ذهنه فكرة التمويه وتقمُّص الشخصية.

ثمة أمرٌ بسيط يتعلَّق بهذه النقطة، وهو صغير جدًّا لدرجة أنه لا يستحق استدعاء الأدلة، ولكنه يستحق الإشارة إليه. في جيب الصدرية التي نُزِعت من على جثة جيفري، وجدت عُقب قلم رصاص من نوعية كونتاجو، وهذا القلم يُباع للتجار والوسطاء في البورصة. جون كان سمسارًا خارجيًّا، والأرجح أنه استخدم هذا القلم، في حين أن جيفري لا يربطه شيء بأسواق البورصة، وليس ثمة سببٌ يجعله يحوز قلمَ رصاصٍ من هذه النوعية. ولكن هذه الواقعة موحية فقط وليس لها قيمة استدلالية.

ثمة استنتاج أهم مُستمَد من التوقيعات التي حصلنا عليها. لاحظت أن التغيير في التوقيع حدث فجأة منذ سبتمبر الماضي؛ إذ وقع تغير أو تغيُّران في طريقة التوقيع، وأن

ثمة شكلين مميَّزين من دون تباينات متوسطة. وهذا في حد ذاته لافت للنظر وداعٍ إلى الشك. ولكن الملاحظة التي أبداها السيد بريتون تُعطينا دليلًا قيمًا للغاية بشأن النقطة التي نتحدث فيها الآن. فقد اعترف أن طبيعة التوقيع حدث فيها تغيير، ولكنه لاحظ أن ذلك التغيير لا يؤثر في السمة الفردية أو الشخصية للكتابة. وهذه الملاحظة بالغة الأهمية؛ حيث إن خط اليد — إن جاز التعبير — امتدادٌ لشخصية صاحبه. وكما أنه يمكن أن يتشارك إنسان بعض السمات الشخصية مع أقاربه الذين من دمه في شكل تشابهات بين أفراد العائلة، فإن خطَّه في كثير من الأحيان يُبرز تشابهًا دقيقًا مع خط أقاربه المقربين. ولا بد أنكم لاحظتم — كما لاحظت — كم يَشيع أن يتشابه خط أخٍ مع خط أخيه، وبهذه الطريقة العجيبة والدقيقة. إذن، أقول إنه استنتاجًا من إفادة السيد بريتون، إذا كان التوقيع على الوصية مزوَّرًا، فربما زوَّره أحد أقارب المتوفَّى. والقريب الوحيد الذي تحوم حوله الشكوك هو أخوه جون.

ولذلك تشير كل الوقائع إلى أن جون بلاكمور هو الشخص الذي سكن الشقة، وبناءً عليه فأنا أتخذ هذا الرأي باعتباره فرضية منطقيَّة.»

اعترض السيد وينُود: «ولكن هذا كله تخمين.»

قال ثورندايك: «ليس تخمينًا. بل فرضية. إنه استدلال استقرائي كالذي نستخدمه في البحث العلمي. بدأت بفرضية تجريبية بَحتة مفادها أن الشخص الذي وقَّع على الوصية ليس جيفري بلاكمور. افترضت هذا، ويمكن القول إنني لم أُصدقه حينذاك، ولكني اعتبرته رأيًا محتمَلًا يستحق أن يمر باختبار. وبناءً على ذلك، أخضعته للاختبار مع كل واقعة جديدة لأَتَبين: هل الاقتراح «صحيح أم خطأ؟» ولما أشارت كل الوقائع إلى أنه «صحيح» ولم تُشر أي واقعة إلى أنه «خطأ»، زادت نسبة الاحتمالية بوتيرة سريعة للغاية. فقد تضاعفت نِسَب الاحتمال. إنها طريقة سليمة تمامًا؛ لأن المرء يعلم أنه إذا كانت الفرضية صحيحة، فإنها ستقوده — عاجلًا أم آجلًا — إلى حقيقةٍ حاسمةٍ يمكن من خلالها إثبات صحتها.

نستأنف عرض الحجة. الآن، نحن أمام افتراض أن جون بلاكمور كان المستأجِر في مجمع نيو إن، وأنه انتحل شخصية جيفري. لنبدأ التفكير من هذه النقطة ونرَ ما الذي تؤدِّي إليه.

إذا كان المستأجر في مجمع نيو إن هو جون، فلا بد أن جيفري كان في مكان ما؛ حيث إن اختفاءه في مجمع نيو إن واضح أنه مستحيل. لكنه لا يمكن أن يكون بعيدًا؛ لأنه

يجب التمكُّن من إظهاره في مدة قصيرة متى تطلَّب موت السيدة ويلسون إظهار جثته. ولكن إذا كان إظهاره ممكنًا، فلا بد أن يكون شخصه في يد جون وتحت تحكُّمه. ما كان ليتحرك بحرية؛ لأن من المحتمل أن يراه أحد أو يتعرَّف عليه. وما كان يُترك في مؤسسة أو مكان يمكن أن يتواصل فيه مع غرباء. ومن ثم، يجب أن يكون في مكان أشبه بالسجن. ولكن يصعب حبس رجل بالغ في منزل عادي. فهذا الإجراء ينطوي على مخاطر اكتشاف المكان واستخدام العنف الذي يترك آثارًا على الجسم، وهو ما قد يُكتشف ويعلَّق عليه في التحقيق. فما الطريقة البديلة التي يمكن استخدامها؟

الطريقة الأكثر بداهةً هي إبقاء السجين في حالة ضعف تُلزمه فراشه. ولكن هذا الضعف لا يمكن تحقيقه إلا بمجاعة، أو تقديم طعام غير مناسب، أو تجرُّع سمٍّ بطيء المفعول. من هذه البدائل، السم هو الأنسب والأكثر قابليةً لحساب التأثير، وتزيد هذه القابلية حين يكون بجرعات محسوبة. ومن ثَم فإن الاحتمالات تصُبُّ في كفة التسمُّم البطيء المفعول.

بمجرد الوصول إلى هذه المرحلة، تذكرت حالة فريدة ذكرها جيرفيس لي ورأيت أنها توضِّح هذه الطريقة. ففي طريق عودتنا إلى المنزل، سألته عن بعض التفاصيل الإضافية؛ ومن ثَم أعطاني وصفًا تفصيليًّا للمريض والملابسات التي أحاطَت به. كانت المحصِّلة مذهلةً إلى حدٍّ بعيد. فقد نظرت إلى تلك الحالة على أنها مجرد مثالٍ توضيحي، ورجوت أن أدرسها بهدف استنباط الاقتراحات التي تنطوي عليها. لكن حين سمعت روايته، بدأت أشكُّ أن ثمة شيئًا أبعد من مجرد التماثُل في الطريقة. بدا وكأن مريضه — السيد جريفز — هو جيفري بلاكمور بالفعل.

التشابُه بينهما كبير. والمظهر العام لمريضه يتوافق تمامًا مع وَصْف السيد ستيفن لعمه جيفري. فالمريض مصاب بالقزحية الرعاشة في العين اليُمنى، وواضح أنه تعرَّض لخلع العدسة البلورية. ولكن بناءً على رواية السيد ستيفن، فإن عمه فقد بصره في العين اليُمنى فجأة بسبب سقوط، فقد رأيت أن جيفري أيضًا تعرض لخلع العدسات؛ ومن ثَم أصيب بالقزحية الرعاشة في العين اليمنى. لا يخفى أن المريض — جريفز — يعاني ضعفًا في عينه اليسرى، وهذا ما أثبتته العلامات خلف أذنه التي تركتها ذراع نظارته الخطَّافية؛ حيث إن الأذرع الخطَّافية ليست موجودة إلا في النظارات المخصصة للارتداء الدائم. ولكن جيفري يُعاني ضعفًا في إبصار عينه اليسرى ويستعمل نظارة على الدوام. وأخيرًا، كان المريض جريفز يعاني تسمُّمًا مُزمنًا بالمورفين، وعُثر على المورفين في جثة جيفري.

ومرة أخرى، بدا لي أن المصادفات كثيرة جدًّا.

يمكن الإجابة عن سؤال ما إذا كان جريفز وجيفري شخصًا واحدًا أم لا بمنتهى السهولة؛ حيث إنه لو كان جريفز حيًّا، فلا يمكن أن يكون هو جيفري. إنه سؤال مهم وعزمت على التقصِّي في الإجابة عنه من دون تأخير. وفي تلك الليلة، رسمنا أنا وجيرفيس الخريطة، وفي الصباح التالي حددنا مكان المنزل. ولكننا وجدناه خاليًا ومعروضًا للإيجار. لقد هربوا، ولم نعرف أين ذهبوا.

لكننا دخلنا المنزل واستكشفناه. أخبرتكما عن البراغي والمسامير الكبيرة التي وجدناها في أبواب غرفة النوم ونوافذها، ما يدل على أن الغرفة كانت بمثابة سجن. وأخبرتكما أيضًا عن الأشياء التي وجدناها في كومة الرماد تحت شبكة المدفأة. لا أحتاج إلى التحدث الآن عن العلامات الموحية التي تُظهرها الفُرشاة اليابانية، وزجاجة الصمغ السريع المفعول، أو مادة التثبيت، ولكني سأزعجكما ببعض التفاصيل عن النظارة المكسورة. وهنا، وصلنا إلى الحقيقة الحاسمة التي — كما قلت — كل الاستدلال الاستقرائي السليم يقود المرء إليها عاجلًا أم آجلًا.

كانت النظارة ذات نمط غريب. فالإطارات من النوع الذي ابتكره السيد ستوبفورد من مورفيلدس، ومعروف أن هذا الإطار من ابتكاره. العدسة اليمنى ذات زجاج عادي، وهذا الأمر طبيعي في حالة إصابة العين بالعمى أو عدم الحاجة إليها. كانت العدسة مهشَّمة، ولكن خصائصها واضحة. وجدنا أن عدسة العين اليسرى ذات سُمك أكبر، ولحسن الحظ أنها لم تكن مهشمة كثيرًا؛ ومن ثم تمكنت من اختبار انكسار الضوء فيها.

حين وصلت المنزل، جمعت شظايا النظارة مع بعضها، وقست الإطارين بعناية كبيرة، واختبرت زجاج العدسة اليسرى، وكتبت الوصف الكامل وكأن جرَّاحًا هو الذي كتبه إلى صانع النظارات. وقد توصلت إلى نتيجة، وسأطلب منكما أن تدوِّناها.

النظارة مخصَّصة لأن تُستعمَل بشكل دائم. الإطار من المعدن، من نمط ستوبفورد، والحوافُّ مقوَّسة، والجسر عريض بطلاء ذهبي. المسافة بين المركزَين ٦٫٢ سنتيمترات، وأقصى طول للأذرع ١٣٫٣ سنتيمترًا.

زجاج العدسة اليُمنى زجاج عادي.

العدسة اليُسرى كُروية بمقاس –٥٫٧٥ ديوبتر، وذات محور أسطواني بمقدار ٣٥ درجة ومقاس –٣٫٢٥ ديوبتر.

تَرَون أن النظارة ذات صفاتٍ خاصة، ويبدو أنها تمنحنا فرصة جيدة للتعرُّف على هُوية صاحبها. وأظن أن إطارات ستوبفورد لا تصنعُها سوى شركة بصريات واحدة

في لندن، وهي باري آند كوكستون الكائنة في شارع ريجينت. ولذلك كتبت إلى السيد كوكستون؛ حيث إنه يعرفني، وسألته إن كان قد ورَّد نظارة إلى الراحل جيفري بلاكمور المحترم — وها هي نسخة من خطابي — وإن كان قد ورَّد له واحدة، طلبت منه أن يعطيني مواصفاتها بدقة، بالإضافة إلى اسم طبيب العيون الذي وصفها له.

رد في هذا الخطاب الذي أرفقته مع نسخة خطابي، وقال إنه ورَّد نظارة إلى السيد جيفري بلاكمور منذ قرابة أربع سنوات، ووصفها على النحو التالي. النظارة مخصَّصة للاستخدام الدائم وإطارها معدني بنمط ستوبفورد، وحوافها مقوَّسة، وطول الذراع شاملًا الأطراف المقوسة يبلغ ١٣٫٣ سنتيمترًا. الجسر عريض وذو طلاء ذهبي، وقد تشكَّل حسب الرسم التخطيطي المرفَق بالروشتة الطبية. المسافة بين المركزين ٦٫٢ سنتيمترات.

«زجاج العدسة اليمنى زجاج عادي.

العدسة اليسرى كُروية بمقاس −٥٫٧٥ ديوبتر، وذات محور أسطواني بمقدار ٣٥ درجة ومقاس −٣٫٢٥ ديوبتر.

أوصاف النظارة حددها السيد هيندلي القاطن في شارع ويمبول.»

ترون أن وصف السيد كوكستون يتطابق مع وصفي. ولكن حتى أتأكد أكثر، كتبت إلى السيد هيندلي أسأله أسئلة محدَّدة، وقد أجاب عنها على النحو التالي:

أنت على حق. أصيب السيد جيفري بلاكمور بحالة القزحية الرعاشة في عينه اليمنى (ما يعني أنها عمياء عمليًّا)، نتيجة لخلع العدسة. كان بؤبؤ العين كبيرًا للغاية، وبالتأكيد لم يصغر حجمُه.

من ثم أصبح أمامنا ثلاث حقائق مُهمة. الحقيقة الأولى هي أن النظارة التي عثرنا عليها في كينينجتون لين لا شك أنها نظارة جيفري؛ لأنه من غير المحتمل أن يكون هناك نظارة متطابقة تمامًا مع نظارة جيفري، ولا أن يكون هناك وجه متطابق تمامًا مع وجه جيفري. الحقيقة الثانية هي وصف جيفري يتطابق تمامًا مع وصف الرجل المريض المدعو جريفز على حد وصف الدكتور جيرفيس، والحقيقة الثالثة هي أنه حين رأى السيد هيندلي جيفري، لم يرَ عليه علامات إدمان المورفين. وسوف تتفقان معي أن الحقيقتين الأولى والثانية تحدِّدان هوية صاحب النظارة تمامًا.»

قال مارشمونت: «نعم، أظن أنه يجب الاعتراف بهُوية صاحب النظارة بأنها حاسمة، على الرغم من أن الدليل من النوع الذي يلفت انتباه رجل الطب أكثر مما يلفت انتباه رجل القانون.»

قال ثورندايك: «ستتخلَّى عن هذه الشكوى حين تعلم الدليل التالي. إنه مما يلفت انتباه رجل القانون، كما ستسمع. منذ بضعة أيام، كتبت إلى السيد ستيفن أسأله إن كانت معه صورة لعمه جيفري. ووجدت معه صورة، وقد أرسلها لي بدوره. ثم عرضت الصورة على الدكتور جيرفيس وسألته إن كان قد سبق له أن رأى الشخص الذي فيها. بعدما تفحصها منتبهًا، ومن دون أي إشارة مني، تعرف على صاحب الصورة بأنه الرجل المريض المدعو جريفز.»

تعجب مارشمونت: «حقًّا! هذا الدليل بالغ الأهمية. هل أنت مستعدٌّ للحلف على هوية صاحب الصورة يا دكتور جيرفيس؟»

أجبته: «ليس عندي أدنى شك بأن صاحب الصورة هو السيد جريفز.»

قال مارشمونت وهو يفرك يده مبتهجًا: «ممتاز! هذا سيُقنع هيئة المحكمة أكثر. أرجوك استمر يا دكتور ثورندايك.»

قال ثورندايك: «هنا ينتهي الجزء الأول من تحرياتي. لقد وصلنا الآن إلى حقيقة محدَّدة يمكن إثباتها؛ وهذه الحقيقة — كما ترون — تجيب من فورها عن السؤال الأساسي وهو: هل الوصية أصلية؟ لأنه لو أن الرجل الذي كان في كينينجتون لين هو جيفري بلاكمور، فإن الرجل الذي كان في مجمع نيو إن ليس جيفري. ولكنه كان الرجل الآخر الذي وقَّع الوصية. ومن ثم فإن الوصية ليست موقعة من جيفري بلاكمور؛ أعني أنها مزوَّرة. اكتملت كل عناصر القضية من الناحية المدنية، وقد أشارت بقية التحريات إلى أنه لا مفر من الملاحقة الجنائية. هل أستمر أم أن اهتمامكم مقتصر على الوصية؟»

صاح ستيفن: «اللعنة على الوصية! أريد أن أسمع كيف توصَّلت إلى النذل الذي قتل عمي العجوز البائس ... وهل أفترض أنه قتل عمي؟»

أجاب ثورندايك: «أحسب أنه فعل ذلك من دون شك.»

قال مارشمونت: «إذن، سنسمع منك باقي الحجة إذا سمحت.»

قال ثورندايك: «جميل جدًّا. بالاستناد إلى الأدلة، أثبتنا أن جيفري بلاكمور كان سجينًا في المنزل الواقع في كينينجتون لين، وأن شخصًا ما انتحل شخصيته في مجمع نيو إن. وقد رأينا أن كل الاحتمالات تشير إلى جون بلاكمور. يجب الآن أن نفكر في المدعو فايس. من هو؟ وهل يمكن أن نجد رابطًا بينه وبين مجمع نيو إن بأي حال من الأحوال؟

يمكن أن نشير إلى أن فايس ذاك وسائق العربة من الواضح أنهما شخص واحد. فهما لم يُرَيا معًا قط. فحين يحضر فايس، يغيب سائق العربة حتى في الحالات التي

تتطلب خدمات عاجلة مثل الحصول على ترياقٍ للسُّم. ودائمًا ما كان فايس يظهر بعد وصول جيرفيس بمدةٍ طويلة، ويختفي قبل مغادرته بمدة طويلة، وهذا الوقت في الحالتَين كافٍ لأن يتنكَّر. لكننا لا نحتاج إلى الخوض في هذه النقطة؛ لأنها ليست ذات أهمية جوهرية.

لنعد إلى فايس. من الواضح أنه أتقن التنكُّر، وهذا ما تُبيِّنه عدم رغبته في أن يُظهر نفسه حتى في ضوء الشمعة. ولكنْ ثمة دليل إيجابي في هذه النقطة، وتكمن أهميته في أنه يحمل دلالات أخرى. هذا الدليل مصدره النظارة التي استعملها فايس، وقد سمعت وصفها من جيرفيس. هذه النظارة لها خصائص بصرية غريبة حقًّا. فحين تنظر منها، ترى أن العدسة من الزجاج العادي، ولكن حين تنظر إليها، ترى أنها تتخذ شكل العدسات. وليس ثمة زجاج له هذه الخاصية سوى نوع واحد؛ وأقصد هنا خاصية أن يكون مثل زجاج الساعة العادي، بأن يكون له سطح منحنٍ ومُتَوازٍ. ولكن ما الغرض من أن يستعمل شخصٌ نظارةً عدساتُها من زجاج الساعات؟ من الواضح أن الهدف ليس تحسين الرؤية. البديل الوحيد هو التنكُّر.

تُقدم مواصفات النظارة هذه سمةً بالغة الغرابة والأهمية إلى القضية. بالنسبة إلى الغالبية العظمى ممن يستعملون النظارات بهدف التنكر أو انتحال شخصية ما، فهذا أمر بالغ البساطة والسهولة. لكن صاحب النظر السليم، لن يرى الأمر سهلًا البتة. ذلك لأنه إذا استعمل نظارةً تصلح للمصابين بطول النظر، فلن يرى من خلالها بوضوح البتة، وإذا استعمل نظارة تصلح للمصابين بقِصَر النظر، فإن الجهد الذي سيبذله كي ينظر من خلالها سيضغط على عينيه ويجهدهما، لدرجة أنه لن يرى على الإطلاق. على خشبة المسرح، يُتغلَّب على هذه الصعوبة باستخدام نظارات مصنوعة من زجاج النافذة العادي، ولكن في الواقع قد لا تصلح هذه الخدعة، فالنظارة التي تُستخدم على المسرح يمكن كشفها على الفور وتثير الشكوك.

ومن هنا يقع منتحِل الشخصية في معضِلة؛ إذا وضع نظارة حقيقية، فلا يمكنه أن يرى من خلالها، وإن وضع نظارةً مزيفةً ذات زجاج عادي، فسينكشف تنكُّره. وليس ثمة سبيل للخروج من هذه المعضلة إلا سبيل واحد، وهذا السبيل ليس مُرضيًا تمامًا، ولكن يبدو أن السيد فايس سلك هذا السبيل لأنه لا يوجد سبيل أفضل. لجأ إلى استخدام نظارة ذات زجاج ساعة مثل الذي وصفته.

والآن، ما المعلومات التي نستمدها من هذه النظارة الغريبة؟ في المقام الأول، يتأكد عندنا الرأي بأن فايس كان متنكرًا. وحين تُستخدم في غرفة منخفضة الإضاءة للغاية، فإن

نظارة المسرح العادية ستَفي بالغرض. الاستدلال الثاني أن هذه النظارة صُنعت بحيث تُستعمل في ظروف إضاءة أصعب، كأن تُستعمل بالخارج على سبيل المثال. الاستدلال الثالث هو أن فايس رجل صحيح البصر، ولو كان غير ذلك، لوضع نظارة حقيقية تتناسب مع حالة بصره.

هذه استنتاجات بالمناسبة، ولعلنا نعود إليها. لكن هذا الزجاج يوحي بشيء أهم بكثير. على أرضية غرفة النوم في مجمع نيو إن، وجدت بعض شظايا لزجاج داسته أقدام. وعندما أُلصِقت قطعة أو قطعتان معًا، استطعنا أن نرسم صورة عامة للشيء الذي كان جزءًا منه. سبق أن عمل مساعدي في صناعة الساعات، وقال إن هذا الشيء هو زجاج كريستال رفيع مخصص لساعات السيدات، وكان هذا رأي جيرفيس على ما أظن. لكن الجزء الصغير المتبقي من الحافة الأصلية يقدم دليلًا من ناحيتَين على أن هذه الشظايا ليسَت من زجاج ساعة. أولًا: عند تتبع هذه القطعة من الحافة بعناية، وجدت أنَّ مُنحنَاها كان جزءًا من شكل بيضاوي، لكن زجاج الساعات اليوم أصبح دائريًّا دائمًا. ثانيًا: تُشطَف حافة زجاج الساعة من جانب واحد بحيث تُطبق عليه حافة أو إطار، أما حافة هذا الشيء فمشطوفة من الناحيتين، مثل حافة عدسة النظارة، بحيث تُثبَّت بداخل تجويف في الإطار وتثبَّت ببُرغي في الذراع. والاستنتاج الحتمي هو أن هذا الزجاج كان عدسة نظارة. ولكن إذا كان الزجاج لعدسة نظارة، فقد كان جزءًا من نظارة تتطابق مع خصائص النظارة التي وضعها السيد فايس.

تبرز أهمية هذا الاستنتاج حين ندرس الخصائص الاستثنائية لنظارة السيد فايس. فإنها لم تكن نظارة غريبة أو تسترعي الانتباه فحسب، بل ربما كانت نظارة فريدة. وربما لا توجد نظارة مماثلة لها في العالم أجمع. ومن ثم فإن العثور على شظايا الزجاج هذه في غرفة النوم، يشير إلى احتمالٍ كبير بأن السيد فايس كان في وقتٍ ما في الشقة الكائنة بمجمع نيو إن.

والآن، لنجمع أطراف هذا الجزء من الحجة. إننا نتساءل عن هوية المدعو فايس. مَن هو؟

في المقام الأول، نجده يرتكب جريمة سرية المستفيد الوحيد منها هو جون بلاكمور. وهذا يعطينا اقتراحًا مُرجحًا بأن هذا الشخص هو جون بلاكمور.

ثم نجد أن بصر ذلك الرجل كان سليمًا وكان يضع نظارة بهدف التنكُّر. المستأجر في مجمع نيو إن — الذي نكاد نجزم بأنه جون بلاكمور، وسنفترض في الوقت الحالي أنه جون بلاكمور — كان بصره طبيعيًّا وكان يضع النظارة بهدف التنكر.

لم يسكن جون بلاكمور في مجمع نيو إن، ولكن في مكان قريب منه. ولكن فايس سكن في مكان قريب من مجمع نيو إن.

لا بد أن جون بلاكمور جعل جيفري في حوزته وتحت تحكُّمه. ولكن فايس جعل جيفري في حوزته وتحت تحكُّمه.

كان فايس يرتدي نظارة محدَّدة ذات خصائص غريبة وربما فريدة. ولكن أجزاء هذه النظارة وُجدت في الشقة بمجمع نيو إن.

ومن ثم فإن الاحتمال الأكبر هو أن فايس والمستأجر في مجمع نيو إن شخص واحد، وذلك الشخص هو جون بلاكمور.»

قال السيد وينوُود: «هذه حجة منطقية إلى حد بعيد. ولكن تلاحظ يا سيدي أن ثمة شيئًا ما ينقصها.»

ابتسم ثورندايك ابتسامة لطيفة. أظنه سامح وينوُود على ما بدر منه مقابل هذا التعليق.

قال: «أنت على حق يا سيدي. ثمة شيء ما ينقصها كي تكتمل. ولهذا السبب، فإن عرض الحجة لم ينتهِ بعد. لكن يجب ألَّا ننسى شيئًا يبدو أن أهل المنطق يغفلونه في بعض الأحيان، وهو أنه على الرغم من أن نقصان شيء ما يتداخل مع البرهان المطلَق، فإنه يمكن أن يتَّسق مع درجة احتمال تكاد تبلغ حد اليقين. فكلٌّ من نظام بيرتيلون ونظام بصمات الأصابع الإنجليزي يتضمَّنان سلسلة استنتاج منطقي قد ينقصها حلقة بسيطة. ولكن الاحتمالات الأكبر تُقبَل عمليًّا على أنها مكافئة لليقين.»

وافقه السيد وينوُود على مضض، ومن ثم استأنف ثورندايك حديثه:

«وصلنا الآن إلى دليل قاطع إلى حدٍّ ما بشأن ثلاث نقاط وهي: أثبتنا أن الرجل المريض المدعو جريفز هو جيفري بلاكمور، وأن المستأجِر في مجمع نيو إن كان جون بلاكمور، وأن المدعو فايس كان أيضًا جون بلاكمور. والآن، علينا أن نثبت أن جون وجيفري كانا معًا في الشقة بمجمع نيو إن ليلة وفاة جيفري.

نعلم أن شخصين فقط لا ثالث لهما أتيا من كينينجتون لين إلى مجمع نيو إن. ولكن أحدهما هو المستأجِر في مجمع نيو إن؛ أي هو جون بلاكمور. فمَن يكون الآخر؟ معروف لنا أن جيفري كان في كينينجتون لين. وقد عُثر على جثته في صباح اليوم التالي في الشقة بمجمع نيو إن. وليس ثمة شخص معروف أنه أتى من كينينجتون لين، وليس ثمة شخص معروف أنه وصل إلى مجمع نيو إن. نستدل من ذلك — عبر الاستقصاء — أن الشخص الثاني — أي المرأة — كان جيفري.

أقول مرة أخرى، جيفري أجبره جون على المجيء من كينينجتون إلى مجمع نيو إن. ولكن جون كان مُنتحِلًا شخصية جيفري، وقد أتقن التنكُّر حتى يشبهه إلى حد كبير. وإذا لم يتنكَّر جيفري، فلن يكون ثمة فرق في الشبه بينهما، وهذا من شأنه أن يُلحَظ بمنتهى السهولة ويثير الشكوك بعد موت أحدهما. ولذلك يجب أن يتنكَّر جيفري بطريقة ما، وهل من تنكُّر أبسط أو أكثر فاعلية من الطريقة التي أشرت إلى استخدامها؟

لم يكن هناك مفر من تلك الطريقة؛ حيث لا بد لشخص — وهو سائق العربة — أن يعلم أن جيفري كان بمفرده حين أتى إلى مجمع نيو إن في تلك الليلة. ولو تسرَّبت الحقيقة وعلم أحد أن رجلًا رافقه إلى الشقة، فربما تُثار الشكوك، وهذه الشكوك من شأنها أن توجه أصابع الاتهام إلى جون؛ حيث إنه المستفيد المباشر من موت أخيه. لكن إذا شاع أن جيفري كان برُفقة امرأة، فستقِل الشكوك، ولن تشير أصابع الاتهام إلى جون بلاكمور.

ومن ثم فإن كل الاحتمالات العامة تُشير إلى فرضية أن تلك المرأة هي جيفري بلاكمور. لكن ثمة دليل إيجابي يدعم هذا الرأي بقوة. حين تفحَّصت ملابس المتوفَّى، وجدت في سرواله تجعيدًا أفقيًّا في كل ساق وكأن السروال شُمر حتى الركبة. ويُفهَم لماذا كان الأمر كذلك إذا افترضنا أن السروال لُبس تحت تنورة وشُمرت ساقاه للأعلى حتى لا تُرى بالصدفة. وإلا، فما كان لتشميرهما أي معنًى.»

قال مارشمونت: «أليس غريبًا أن يسمح السيد جيفري لنفسه أن يرتدي ملابس بهذه الطريقة اللافتة للنظر؟»

أجاب ثورندايك: «لا أظن ذلك. لا يوجد سبب يجعلنا نفترض أنه كان يعلم الطريقة التي كان يرتدي ملابسه بها. فقد سمعت وصف جيرفيس لحالته؛ إنه أشبه بإنسان آلي. وتعرفون أنه لا يكاد يرى من دون النظارة، ولا يمكن أن يكون قد وضعها؛ حيث إننا وجدناها في المنزل الكائن بكينينجتون لين. ربما كان رأسه ملفوفًا بالحجاب، ثم ارتدى التنُّورة والعباءة بعد ذلك، ولكن على أي حال، فقد جردته حالته من قوة الإرادة عمليًّا. ليس معي غير هذا الدليل على أن المرأة المجهولة كانت جيفري. الدليل ليس قاطعًا، ولكنه مُقنِع بالقدر الذي يخدم غرضنا، حيث إن رفع قضية ضد جون بلاكمور لا يعتمد على هذا الدليل.»

قال ستيفن: «هل أقول إن القضية التي ترفعها ضده بتُهمة القتل؟»

«لا شك. وستُلاحظون أن الأقوال التي أدلى بها الشخص المفترض أنه جيفري باتت دليلًا بالغ الأهمية؛ حيث إنها تشير إلى الانتحار. وبناءً على ما نعرف، الإعلان عن تبييت

النية للانتحار يصير إعلانًا عن تبييت النية لارتكاب جريمة قتل. إنه يَنفي نفيًا قاطعًا ما كان يهدف إلى إثباته؛ وهو أن جيفري مات بيده.»

قال ستيفن: «نعم، أفهم ذلك»، وبعدما سكت للحظات سأل: «هل تعرفت على السيدة شاليبام؟ فأنت لم تذكر لنا شيئًا عنها.»

أجاب ثورندايك: «لقد اعتبرتها خارج القضية؛ لأنها لا تهمني كثيرًا. فقد كانت مجرد مساعد؛ ومن ثم صببت اهتمامي على المجرم الأساسي. ولكن بالطبع ستُسحَب رجلُها إلى القضية. فالدليل الذي يُدين جون بلاكمور سيدينها. ولذا لم أشغل نفسي بهُويتها. إن كان جون بلاكمور متزوجًا، فربما تكون زوجته. هل نما إلى علمك أنه تزوَّج؟»

«نعم، ولكن السيدة جون بلاكمور لا تشبه السيدة شاليبام، إلا في الحوَل الطفيف في عينها اليسرى. إنها امرأة سمراء البشرة وحاجباها كثيفان.»

«هذا يعني أنها تختلف عن السيدة شاليبام في صفاتٍ يمكن تغييرها اصطناعيًّا، وتشبهها في صفةٍ واحدةٍ لا يمكن تغييرها. هل تعرف أن اسمها الأول هو بولين؟»

«نعم، إنه هو. كانت تُسمَّى الآنسة بولين هاجنبيك، وكانت عضوة في فرقة مسرحية أمريكية. لماذا تسأل؟»

«الاسم الذي سمعه جيرفيس حين كان جيفري البائس يكافح كي ينطقه، يبدو لي أنه يشبه الاسم بولين أكثر من أي اسم آخر.»

قال مارشمونت: «ثمة نقطة صغيرة تحيِّرني. أليس من اللافت أن البواب لم يلاحظ الفرق بين حجم جسم جيفري وجسم الرجل الذي رآه بعينيه؛ حيث إنه لا بد من وجود فرق بين مظهرهما في النهاية؟»

أجاب ثورندايك: «يسرُّني أنك طرحت هذا السؤال؛ حيث إنني واجهتُ هذه الصعوبة نفسها في بداية القضية. لكن بعد التفكير في المسألة، ارتأيت أنها صعوبةٌ خيالية، وهذا على افتراض — كما نفعل الآن — أن الشبه بين الرجُلين كان كبيرًا. ضع نفسك مكان البواب وتتبَّع عملياته الذهنية. يأتيه خبر أن رجلًا ميتًا مستلقيًا على الفراش في شقة السيد بلاكمور. من الطبيعي أن يفترضَ أنَّ الميت هو السيد بلاكمور، الذي — بالمناسبة — لمَّح إلى الانتحار ليلة البارحة فقط. وبهذه الفكرة، يدخل إلى الشقة ويرى رجلًا شديد الشبه بالسيد بلاكمور، ويرتدي ملابس السيد بلاكمور، وينام على فراش السيد بلاكمور. وفكرة أن الجثة ربما تكون لشخصٍ آخر لم تَرِد على ذهنه مطلقًا. وإن لاحظ فرقًا في المظهر، فسيَعزيه إلى تأثيرات الموت؛ حيث إن الكل يعلم أن مظهر الإنسان ميتًا يختلف

قليلًا عن مظهره حيًّا. وأنا أعدُّها دليلًا على الدقة البارعة من جانب جون بلاكمور في أنه حسب لكل شيءٍ بمنتهى الذكاء؛ حيث إنه لم يحسب العملية الذهنية من جانب البواب فحسب، بل أيضًا التفكير الخاطئ الذي قد يبنيه أيُّ شخصٍ على استنتاجات البواب. نظرًا لأن الجثة كانت في الواقع لجيفري، وقد تعرَّف عليها البواب على أنها جثة المستأجر لديه؛ فقد افترض الجميع أنه لا يوجد أيُّ شكٍّ ممكن حول هُوية جيفري بلاكمور ومستأجِر مجمع نيو إن.»

خيَّم صمت للحظات ثم سأل مارشمونت:

«هل أعتبر أننا سمعنا الدليل كاملًا؟»

قال ثورندايك: «نعم. انتهت القضية.»

سأل ستيفن مُتلهِّفًا: «هل أعطيت الشرطة أي معلومات؟»

«نعم. بمجرد أن حصلت على إفادة سائق العربة المدعو ريدلي، وشعرت أن الأدلة صارَت كافيةً لرفع دعوى، اتصلت بشرطة سكوتلاند يارد وتحدَّثت مع مساعد المفوض. والقضية صارت بين يدَي المشرف ميلر، من قسم التحقيقات الجنائية، وهو ضابط شديد النشاط والحيوية. لقد كنت أتوقع أن أسمع أن أمر الضبط والإحضار قد نُفذ؛ لأن السيد ميلر عادةً ما يكون دقيقًا جدًّا في إبقائي على علمٍ بتقدُّم القضايا التي أقدمها له. ولا شك أننا سنسمع خبرًا في الغد.»

قال مارشمونت: «في الوقت الراهن، يبدو أن القضية قد خرجت من أيدينا.»

قال السيد وينوُود: «ولكني سأقدم إنذارًا قضائيًّا.»

حاجَّه مارشمونت: «يبدو أنه لا حاجة إلى هذا الإجراء. الأدلة التي سمعناها كافية لضمان الإدانة، وسيظهر الكثير حين تتحرى الشرطة في القضية. وبالطبع فإن الإدانة بجريمتَي القتل والتزوير ستُبطل الوصية الثانية.»

كرر السيد وينوود: «ولكني سأقدم إنذارًا قضائيًّا.»

عندما أبدى الشريكان ميلًا للتجادل بشأن هذه المسألة، اقترح ثورندايك أن يناقشاها فيما بعدُ بناءً على ما ستُبينه الأحداث اللاحقة. بناءً على هذا التلميح — حيث كاد الوقت يبلغ منتصف الليل — تأهَّب زوَّارنا للمغادرة، وكانوا في الواقع يشقُّون طريقهم نحو الباب عندما دق الجرس. فتح ثورندايك الباب على مصراعيه وتعرف على الزائر وحيَّاه بحرارة ظاهرة.

«أهًا! السيد ميلر، كنا نتحدث عنك لتوِّنا. دعني أعرفك على السيد ستيفن بلاكمور ومحاميَيه السيد مارشمونت والسيد وينوُود. أظنُّك تعرف الدكتور جيرفيس.»

أومأ الضابط لأصدقائنا وعلق قائلًا:

«يبدو أنني أتيت في الوقت المناسب. ولو تأخَّرت بضع دقائق، لما لحقت بهؤلاء السادة. لا أعرف ما تقولون بشأن ما لديَّ من أخبار.»

صاح ستيفن: «أتمنى أنك لم تسمح لهذا النَّذل بالهرب.»

قال المشرف: «للأسف، إنه ليس بيدي ولا بيدكم، وكذلك المرأة. ربما الأفضل أن أخبركم بما حدث.»

قال ثورندايك وهو ينقل الكرسي للضابط: «تفضل بالجلوس.»

جلس المشرف في الكرسي وكأنه مر بيوم طويل ومجهِد؛ ومن ثم بدأ يسرد قصته.

«بمجرد أن حصلنا على المعلومات التي لديك، حصلنا على أمر ضبط وإحضار لكلَيْهما، ثم ذهبنا من فورنا أنا والمفتش بادجر ورقيب إلى شقتهما. وعلمنا من الخادم أنهما خارج المنزل، ولا يُتوقَّع عودتهما قبل ظهر اليوم. أبقينا المبنى تحت المراقبة، وفي الوقت المحدد تقريبًا من صباح اليوم، وصل إلى الشقة رجل وامرأة تنطبق عليهما الصفات. دخلنا في عقبهما ورأيناهما يدخلان المصعد، وكدنا ندخل نحن أيضًا، ولكن الرجل ضغط على الزر وصعد. حينئذٍ لم يسعنا إلا الركض على السلم، وبالطبع ركضنا بسرعة وكأننا في سباق، ولكنهما وصلا إلى طابق شقتهما أولًا، وقد وصلنا في الوقت المناسب كي نراهما وهما يدخلان ويغلقان الباب من خلفهما. بدا لنا أننا حبسناهما؛ حيث إنه لا مَهرَب لهما من النوافذ من هذا الارتفاع؛ ومن ثم أرسلنا الرقيب كي يأتيَ بصانع أقفالٍ حتى يفتح القفل أو الباب بالقوة، ونحن ظللنا ندقُّ جرس الباب.

بعدما غادر الرقيب بنحو ثلاث دقائق، وجدت نافذة عند البسطة، نظرت منها ورأيت عربةً متوقفة في الاتجاه المقابل للمبنى. أخرجتُ رأسي من النافذة، وللأسف رأيت صاحبَينا يركبان العربة. وكأن الشقة بداخلها مصعد صغير متصل بالمطبخ، وقد نزلا منه واحدًا تلو الآخر.

بالطبع نزلنا على السلم مُسرعَين وكأننا بهلوانان، ولكن حين وصلنا إلى الطابق الأرضي، وجدنا أن العربة قد انطلقت مسرعة. ركضنا في شارع فيكتوريا ورأينا العربة في منتصف الشارع وهي تسرع وكأنها في سباق. تمكنَّا من أخذ عربة أخرى، وأخبرنا السائق أن يُبقيَ العربة التي أمامنا في مرمى بصره، وانطلقنا بسرعة كبيرة، وبدأنا بطول شارع فيكتوريا وبرود سانكتشواري، ثم عبرنا ساحة البرلمان، ثم إلى جسر ويستمِنستَر ثم بطول طريق يورك، وأبقينا العربة الأخرى في مرمى بصرنا، ولكننا لم نتمكَّن من الاقتراب

منها ولو حتى قيد بوصة. بعد ذلك، انعطفنا إلى محطة وُوتَرلُو، وبينما نصعد المنحدَر قابلنا عربة أخرى تَنزله، وحين قبَّل السائق يده وابتسم لنا، خمَّنا أنه سائق العربة التي كنا نتعقَّبها.

لكن الوقت لم يتَّسع لطرح الأسئلة. إنها محطةٌ غريبة؛ حيث إنها مليئةٌ بعددٍ كبير من المخارج، وبدا لي أن طريدتنا قد هربت. ولكني بذلت محاولة. تذكرت أن القطار السريع المتجه إلى ساوثامبتون سيقوم في هذه الساعة؛ ومن ثم أخذت طريقًا مختصرًا وعبرت خطوط السكك الحديدية، ووصلت إلى الرصيف الذي سيقوم منه. وحين وصلنا أنا وبادجر عند بداية الرصيف، وكانت مؤخرة القطار أمامنا بمسافة ٣٠ ياردة، رأينا رجلًا وامرأة يركضان أمامنا. ثم أطلق الحارس صفارته وبدأ القطار يتحرك. تمكَّن الرجل والمرأة من التشبُّث بإحدى العربات الخلفية وأسرعنا أنا وبادجر على الرصيف كالمجانين. حاول حمَّال أن يعترض طريقنا ولكن بادجر طرحه أرضًا، وأسرع كلانا أكثر من ذي قبل، وقفزنا على عتبة عربة الحارس حين بدأ القطار يأخذ سرعته. لم يستطع الحارس أن يغامر بإنزالنا؛ ومن ثَم سمح لنا بالدخول إلى عربته، وقد ناسبنا هذا الموقع كثيرًا حيث استطعنا مراقبة جانبَي القطار من نقطة المراقبة. وقد راقبنا بالفعل، ولكن رآنا صاحبُنا الذي في العربات الأمامية. فقد كان رأسه خارج النافذة حين قفزنا على عتبة العربة.

ولكن لم يحدث شيء حتى توقَّف القطار في محطة ساوثامبتون ويست. وهناك، أؤكد أننا لم ندَّخر وقتًا في القفز من العربة، حيث من الطبيعي أن نتوقَّع أن صاحبَينا سيخرجان بسرعة. ولكنهما لم يفعلا. راقب بادجر الرصيف وظللت أنظر كي أتأكد من أنهما لم ينزلا من الجانب الآخر، عبر خطوط السكك الحديدية. ولكن لم نرَ أي علامة لهما. ثم ركبت القطار إلى العربة التي رأيتهما يدخلانها. وقد وجدتهما، ولكن خُيِّل لي أنهما نائمان في الزاوية بجوار النافذة الجانبية، الرجل يميل إلى الخلف فاغرًا فاه والمرأة تستند إليه ورأسها على كتفه. لقد شعرت بالخوف حين اقتربتُ كي أنظر إليهما؛ حيث إن عينيها كانتا مُغمَضتَين قليلًا، وخُيِّل إليَّ أنها تنظر نحوي بنظرة مُرعبة، ولكني اكتشفت فيما بعد أن نظرتها تلك سببها الحوَل في عينها.»

قال ثورندايك: «هل أفترض أنك وجدتهما ميتَين؟»

«نعم يا سيدي. كانا جثتَين هامِدتَين، ووجدت هذَين في أرضية العربة.»

أخرج أُنبوبَين زجاجيَّين صغيرَين وأصفرَين، وكلٌّ منهما عليه مُلصَق مكتوب عليه «أقراص تحت الجلد. نترات الأكونيتين بتركيز ١ / ٦٤٠ قمحة».

تعجَّب ثورندايك: «أها! يبدو أن هذا الرجل كان على علمٍ واسعٍ بالسموم القَلَوية، ويبدو أنهما كانا مستعدَّين لحالات الطوارئ. احتوى كل أنبوب من هذَين الأنبوبَين على ٢٠ قرصًا، ويبلغ تركيزها جميعًا ٣٢ حبة؛ ومن ثم يمكننا افتراض أنهما ابتلعا جرعةً تُساوي ١٢ ضعفًا من الجرعة الطبية. ولا بد أنهما ماتا في غضون دقائق، وبطريقة رحيمة أيضًا.»

صاح ستيفن: «موت رحيم أكثر مما يستحقَّان حين أُفكر في المأساة التي ألحقوها بالعم البائس العجوز جيفري. ولو بيدي لسلمتُهما إلى حبل المشنَقَة.»

قال ميلر: «هكذا أفضل يا سيدي. والآن، لا حاجة إلى طرح أي أسئلة تفصيلًا في التحقيق. فانتشار خبر المحاكَمة بتهمة القتل لن يسرَّك. ليت الدكتور جيرفيس قد أبلغني بالأمر بدلًا من ذلك الضابط المرتبِك والمفرِط في الحذر، ولكن يجب ألَّا أنتقد زملائي الضباط، فمن السهل أن يتحلَّى المرء بالحكمة بعد مرور الموقف.

تُصبحون على خيرٍ أيها السادة. هل أقول إن هذا الحادث يقدِّم لك حلًّا بشأن الوصية؟»

وافقه السيد وينُوود: «أجل، إنه يقدم الحل بالفعل. ولكني سأرفع إنذارًا قضائيًّا إلى المحكمة.»


هنداوي